قوانين الخلق

اللّه سبحانه وتعالى حينما خلق هذا الكون، وضع لكل شيء فيه قانونا، وجعل القوانين تخضع لمن خلقت من أجله، فالإنسان له القانون البشرى الذى يناسب خلقه من طين والجان له القانون الذى يناسب خلقه من نار، فهو يستطيع أن يخترق الجدران بحكم طبيعة خلقه، ويستطيع أن يتشكل كما يشاء، والشياطين لها قوانينها، والملائكة كخلق من نور لها قوانين، وهى تصعد إلى السماء وتنزل إلى الأرض بأمر ربها.

ونحن حين نتحدث عن العلم، فإننا نطلب من العقول أن تنطلق كما تشاء، لتبحث فيما تشاء من ظواهر الكون المادية، فقوانين الشمس والأرض والنجوم والرياح والنبات والحيوان وكل ما يستطيع الإنسان أن يبحث فيه بحثا معمليا مُتاحاً للعقل البشرى، يجتهد فيه كما يشاء، ومطلوب من الإنسان أن يكتشف آيات اللّه فى الكون، واللّه سبحانه وتعالى حين قال فى كتابه العزيز: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

إنما أعطانا أنه سيكشف عن هذه الآيات لغير المؤمنين، لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾، أى إن هؤلاء الذين سيريهم اللّه آياته منكرون للحق، ولو أنهم كانوا مؤمنين، لما كانت هناك حاجة لأن يذكر اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾؛ ذلك أن المؤمن يعرف أن اللّه حق، والقرآن حق، ورسول اللّه حق، وهذا الدين بمنهج حياته وبالإعلام عن الآخرة حق، ولكن إرادة اللّه قضت أن يكتشف غير المؤمنين آيات اللّه ليدحضهم، ويكونوا هم بعدم إيمانهم المثبتين للإيمان فى الأرض، ذلك أن الكفار يحاولون أن يضلوا عن سبيل اللّه، فى مرات مستخدمين نظريات يطلقون عليها العلم زيفا، وفى مرات مستخدمين ما يوجد فى عقول البسطاء من تضاربات يحاولون الإيهام بها، بين القرآن وحقائق الكون، ولذلك يأتى اللّه سبحانه وتعالى بهم هم، ليسخر من كل قدراتهم، ويستخدمهم فى تثبيت الإيمان.

واللّه سبحانه وتعالى، قد استخدم الكفار فى تثبيت الإيمان، منذ بداية نزول القرآن الكريم حتى الآن، ففى أول أيام الرسالة نزلت الآية الكريمة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ [المسد].

وكانت هذه الآية الكريمة كما ذكرنا فى الجزء الأول، أول تثبيت للإيمان على أحد

أئمة الكفر، ذلك أن أبا لهب كان يستطيع زيفا أو كذبا، أن يأتى فى جمع من العرب ويقول: لقد قال فئ اللّه كلاماً متعبدا بتلاوته إلى يوم القيامة لا يتغير ولا يتبدل، قال: إننى سأموتُ كافرا وأصْلئ نارا ذات لهب، وهأنذا أمامكم أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه. لأُثبت أن محمداً كاذب فيما يقول، كان أبو لهب بهذه الشهادة يستطيع أن يهدم الدين من أساسه، ولكنه حتى هذا الأمر الاختيارى لم يجرؤ عليه، وعند تغيير القبلة، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢].

واستخدام حرف السين هنا يدل على أنهم لم يقولوها إلا بعد نزول الآية الكريمة، وكان من الممكن ألا يقولوا، ثم يأتوا إلى العرب ويقولوا إن محمداً قال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾، ولكنّ أحداً لم يقل ذلك، وكان ذلك هدما فى قضية الدين.. ولكنهم جاءوا وقالوا.

وإذا انتقلنا إلى التحديات فى العصر الحديث، نجد أن اللّه تعالى قد قال: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١].

أى: إنه سيأتى أناس يضلون عن سبيل اللّه؛ أى يحاولون إضلال غيرهم، وأنا لم أُشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق إنسان، ولم اتخذهم سنداً لى، فلو أنه لم يأت من يجادل فى خلق السماوات والأرض ولا خلق إنسان، ويقول: إن الإنسان أصله قرد إلى آخر النظريات التى نسمعها عن خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، لقلنا أين هؤلاء الذين أنبأ عنهم القرآن، ولكن كونهم أتوا، وكونهم يحاولون الإضلال عن سبيل اللّه بنفى القدرة الإلهية فى الخلق، فقد جاءوا مثبتين للإيمان، وسيأتون على مر السنين والقرون فعطاء القرآن مستمر حتى يوم القيامة، سيأتى من الكفار وغير المؤمنين من يكشف لهم اللّه آيات من آياته، يحاولون الوصول إليها بالتشكيك فى دين اللّه، وتأتى نتيجتها بأنه الحق وتأتى مثبتة للإيمان.

تلك مقدمة كان لابد منها، لبيان القدرة الإلهية، وكيف تستطيع أن تسخر الكافر وغير المؤمن بدين اللّه لتثبيت هذا الدين وإظهار أنه الحق، وهذه العقول غير المؤمنة تحاول أن تدخل فى مجالات لم يخلقها اللّه للعقل البشرى، فتجادل فى الملائكة والآخرة والجان والشياطين، إلى آخر هذه المخلوقات، التى لم نعرف عنها شيئاً ولا نستطيع أن ندخلها إلى المعمل لنضعها تحت الميكروسكوب.

وليس هذا محاولة للحجر على العقل البشرى، بل للعقل البشرى الحق فى أن يبحث فى كل شىء، بشرط ألا يقدم خرافات، لا يملك عليها دليلا.

فإذا تحدث عن قوانين الجن والملائكة، أو عن خلق الإنسان بطريقة تتنافى مع ما

أخبرنا به اللّه سبحانه وتعالى، نقول ما هو برهانكم؟ فإذا كان مجرد فرض أو وهم، فإننا نرفضه ولا نقبله، وإذا كان عليه دليل مادى فإننا نناقشه، واللّه سبحانه وتعالى حين خلق أعطانا قوانين المخلوقات الأخرى التى خلقها، ولكننا لا نتحدث عن خصوصيات وإنما نتحدث عن الأشياء العامة.

حين يأتى إنسان ويجادل فى ذلك، ويحاول أن يكذب قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم»[1]، ويقول: هذا غير ممكن، نقول له: هل عرفت قوانين الشيطان، فيقول: لا. نقول: أليس الدم مكونا من كرات حمراء وكرات بيضاء إلى آخره، ألا يستطيع أى ميكروب أن يدخل إلى مجرى الدم ويجرى فيه إذن.. فلماذا تنكر أن الشيطان يجرى فى الإنسان مجرى الدم، مادمت لا تعلم شيئاً عن قوانين الشياطين، ومادمنا نعلم جميعا أن كل شىء فى هذا الكون له قانون يخضع له فقانون الشمس ليس كقانون الأرض، وقانون الجماد ليس كقانون الإنسان، والملائكة لهم قانون يفعلون ما أمرهم اللّه، والجان له قانون مختلف عن قانون الإنسان، وهناك عباد يعطيهم اللّه علماً ورحمة، فيصبحون بقوانين خاصة لهم قدرات على الكون.

على أننا يجب أن نتنبه إلى سورتين هامتين نقرؤهما كل ليلة، هما سورة الفلق وسورة الناس، ففى سورة الفلق نتجه إلى اللّه ونستعين به فى الأمور التى لا إرادة لنا فيها، وفى سورة الناس نتجه إلى اللّه ونستعيذ به فى الأمور التى لنا فيها إرادة، ولكننا نخاف أن نضعف أمامها، ولنوضح هذا الموضوع قليلاً.

السورة الأولى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ [الفلق]

كل هذه الشرور التى نستعيذ باللّه منها، تأتى من خارج أنفسنا، أو من خارج منطقة الحساب والتكليف فى أفعل ولا تفعل، فعندما يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، فالاستعاذة هنا: هى الالتجاء إلى اللّه سبحانه وتعالى من شىء يفزع الإنسان ويهدد أمنه وأمانه، ولا يستطيع الإنسان أن يواجهه بقدراته، ومن هنا فهو يلجأ إلى اللّه سبحانه وتعالى لأنه القادر على دفع السوء بقدرة تفوق قدرة البشر جميعا.

واللّه سبحانه وتعالى هو الذى طلب منا أن نستعيذ به، ومن هنا فنحن حين نفعل ذلك إنما نطبق منهج اللّه فى أنه أمان الخائفين وجار المستجيرين، والمنهج هو النور والهداية للإنسان فى حياته، والفلق هو النور بعد الظلمة.. أو هو ما ينفلق عنه الوجود والحياة، وإذا كان الفلق بمعناه الأول أو الثانى، واللّه سبحانه وتعالى هو الذى أوجد النور

(١) رواه البخاري [٣٢٨١] عن صفية بنت حيي رضي الله تعالى عنها، ومسلم [٢١٧٤/ ٢٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه.

فى الكون لتسير الحياة على هداه، وهو الذى أوجد النور فى القلوب، ليهديها إلى الإيمان واليقين وهو الذى أوجد الكون وخلقه هذا الخلق المبدع، وهو فالق الحب والنوى، من هنا فكلا المعنيين يلتقيان.

واللّه سبحانه وتعالى، حين طلب منا أن نفزع إليه قال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، وهنا لنا وقفة، فما دام اللّه سبحانه وتعالى قال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، فلابد أن هناك شرا قد خلقه اللّه بالنسبة للإنسان، ولكن اللّه سبحانه وتعالى لم يخلق لنا إلا النافع فى حياتنا والإنسان هو الذى أوجد الشر وأوجد المعصية، وأوجد كل ما يفسد هذا الكون، ويسفك الدماء فيه، وينشر الظلم والبغى والطغيان، فما هو الشر الذى خلقه اللّه سبحانه وتعالى؟

obeikandl.com

الحكمة من الفيضانات والزلازل

هناك رأيان يجب أن نتناولهما فى هذا الموضوع:

الرأى الأول: يتعلق بحكمة الخالق.

والرأى الثانى: يتعلق بالخلق نفسه.

أما ما يتعلق بحكمة الخالق فالله سبحانه وتعالى قد خلق لنا قوى هائلة فى الكون لنؤدى مهمتنا فى الحياة.. وأخضع لنا هذه القوى بمشيئته هو، فالشمس والقمر والأرض والنجوم وكل ما فى الكون والحيوانات التى أقلت البشر، كل هذه القوى مسخرة للإنسان بأمر الله، ولكن الإنسان بغروره يحاول أن يدعى أن هذه القوى مسخرة له بأمره وذاته، أى يحاول أن يأخذ مما أعطاه الله له من أسباب الحياة فى الكون، على أساس أنه شىء طبيعى، لم تتدخل قوة الله سبحانه وتعالى فى تسخيره، ومن هنا يأتى الله سبحانه وتعالى بعلامات تذكر الخلق بنعم الله عليهم، فتأتى الريح لتصير إعصارا مدمرا، وتحدث الزلازل والفيضانات بأعداد قليلة، وبصورة نادرة؛ لأنه ليس المقصود منها الدمار، فلو شاء الله لدمر الكون كله فى لحظة، ولكن المقصود منها التذكير، ليقول الله للإنسان: إذا كنت تدعى أن الريح مسخرة لك بأمرك، أو بقوانينها، فأنا سأخرق قوانين الريح لتصبح إعصاراً مدمراً، وقوانين الأرض الطيبة التى تعطيك كل شىء لتبتلع ما فوقها، لعلك تتذكر أنك لا تملك السيطرة على هذه القوى، وإذا كنت تستخدمها وتنتفع بها، فذلك لقدرات الله سبحانه وتعالى التى سخرها لك، فاعبده، واسجد له.

وإذا كانت هناك إشارات وقتية تأتى بين الحين والحين، وفى مساحات محدودة جدًا لتذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى، فإن هناك بجانب ذلك ما يذكرنا دائماً بهذه القدرة فمثلاً إذا جئنا إلى الحيوانات، نجد بعضها مسخراً للبشر، ليخدمه فى الحياة، فالفرس مثلاً أقوى من الصبى الصغير مئات المرات، ولكن هذا الصبى يستطيع أن يركبها ويسخرها لما يريد، وقوة الصبى وعقله وقدراته لا يمكن أن تجعل الحصان خاضعاً له خضوعاً إراديًا، أى لإرادة الإنسان. فلو وجدت الفرصة لمعركة بين الحصان والصبى، لقضى الحصان على الصبى فى دقائق، ولكن هذا الحيوان ذلله الله لخدمة الإنسان، فأصبح مقهوراً بقدرة الله يستطيع أن يستخدمه فى الأغراض التى يريدها.

فإذا جئنا إلى الثعبان مثلاً، وجدنا أن الله سبحانه وتعالى لم يخضعه للإنسان، وليس معنى هذا أن الثعبان شر مطلق، بل إن من السموم الناقعات دواء، فنحن نستخرج

من سم الثعبان دواء ربما أنقذ حياة مئات الألوف من البشر، ونحن نستفيد بجلد الثعبان، وبعض الشعوب تستفيد بلحمه وتأكله، إذن.. فهو ليس شرًا مطلقاً، ولكنه شر يمكن أن يؤذى الإنسان ويقتله، ومن هنا فنحن نستعيذ بالله منه، لماذا؟، لأن الله سبحانه وتعالى لم يخضعه لنا، ولذلك فهو يستطيع أن يهاجم الإنسان ويقتله، وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى المخلوقات المجهولة لنا، كالشياطين والجان، نجد أن الله سبحانه وتعالى لم يسخرها لنا، ولم يجعلها خاضعة لخدمة البشر، وهى تستطيع أن توسوس للإنسان بالشر، وأن تؤذيه، ومن هنا فإننا لا نستطيع بقوتنا الذاتية أن نواجهها لأننا لا نراها، ولكن الله طلب منا أن نستعيذ به منها، فإذا استعذت بالله من شر هذه المخلوقات، وقفت إرادة الله سبحانه وتعالى بينك وبينها حجاباً لا تستطيع أن تخترقه، فأصبحت لا تملك لك ضرًا، إذن.. فهناك أشياء لم يخضعها الله سبحانه وتعالى بقدرته للبشر، ولا يستطيع البشر أن يخضعها بقدراته، وسواء أكانت هذه الأشياء من قوى الطبيعة، أم من قوى الحيوانات، أو الإنسان الذى يعيش معنا، أو من القوى الخفية فى الكون التى لا نراها، فإنها شر للإنسان؛ لأنه لا يستطيع أن يقف أمامها بقدراته الذاتية، ومادامت كذلك فقد أمرنا الله أن نستعيذ به منها، ونحن حين نلجأ إلى الله فى ساعة المرض، نلجأ إليه لتكون قدرته مع الدواء ليتفاعل معه فى الجسم ويقضى على الميكروبات، ففى كثير من الأحيان يتناول مريضان بالداء نفسه الدواء نفسه، أحدهما يُشفى والثانى يشتد عليه المرض، وتسأل الطبيب فيقول لك: إنها قدرة الله التى جعلت الدواء يتفاعل هنا مع الميكروب فيقتله، ولا يتفاعل هناك، والميكروبات ليست شرًا مطلقاً فإننا نستخرج منها الأمصال التى تقينا الأمراض، وأحيانا نستخرج منها الدواء ولكنها شر للإنسان، ونحن بجانب العلاج الطبى نتجه إلى الله تعالى ليحقق لنا الشفاء، هذا هو معنى الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ذلك فإن الأخذ بأسباب المرض جزء من محاربة الداء، أما أسباب الشفاء فهى فى يد الله سبحانه وتعالى، ولقد أمرنا أن نأخذ بالدواء الذى خلقه الله لشفاء الداء، ثم نترك إتمام الشفاء لقدرة الله، ولعل أكثر الناس فهما لهذه النقطة هم الأطباء الذين يشاهدون معجزات الشفاء كل يوم، والذين ينتظرون بعد إعطاء الدواء قدرة الله على الشفاء.

إذن.. فحكمة الخالق فى كل ما تحدثنا عنه من شر للبشر، هو لفت للقدرة التى سخرت كل شىء للإنسان، فقوة الميكروب، أو الثعبان، أو أى خلق من خلق الله لا تقاس بجانب قدرات الكون كله من شمس وقمر ورياح وبحار وأنهار، والله يريد دائماً أن يلفتنا إلى أن الأشياء مذللة بقدرته وليست بعقولنا، فيأتى بأشياء متناهية فى عدم القدرة أمام قدرات الكون، كالميكروبات أمام الشمس مثلاً، ليذكرنا أنه هو الذى ذلل لنا قوى الكون الهائلة وأننا بقدراتنا لا نستطيع أن نذلل أدنى الأشياء المتناهية فى الصغر كالميكروبات؛

وذلك حتى لا يظن الإنسان الذى سخر له اللّه الكون كله أنه مستغن عن اللّه، بل تأتى هذه الأشياء لتذكره بالنعم، وفى الوقت نفسه تجعله يحس أنه محتاج إلى اللّه فى كل دقيقة وخوف الإنسان من الأشياء التى لم تذلل له هو ربط للإنسان بالخالق، وفى الوقت نفسه إشعار للإنسان بضعفه وقدرة خالقه، ذلك أنه ضعيف لا يستطيع أن يتغلب على هذه الأشياء، ولكنه فى الوقت نفسه إذا استعاذ باللّه، فلا تستطيع هذه الأشياء أن تمسه.

obeikandl.com

قوانين الخلق.. وطلاقة القدرة فى الكون

اللّه سبحانه وتعالى خلق ما فى الأرض جميعا، وخلق لها الأسباب التى تتفاعل بها والقوانين التى تحكمها، واللّه سبحانه وتعالى حين قال ﴿ كُن ﴾، تم الخلق فى اللحظة نفسها، ولكن الأسباب تفاعلت فى السماوات والأرض فى ستة أيام.

ولكن هذه القوانين والأسباب لا يمكن أن تكون قيدا على طلاقة القدرة، ذلك لأن اللّه سبحانه وتعالى لو قضى بالأسباب وحدها فى الأرض، لعبد الناس الأسباب، ونسوا المسبب سبحانه، لذلك بقيت طلاقة القدرة لتلفت الناس إلى أن الذى خلق الأسباب لا تقيده هذه الأسباب فى قدرته، وأنه يفعل ما يشاء، عندما يشاء، وقتما يشاء، لذلك نجد إنسانا يكد ويكدح كثيرا، ومع ذلك فهو ضيق الرزق.. وإنسانا آخر يعمل قليلا ومع ذلك فرزقه وفير.

وإنساناً ضعيفاً ينتصر بقدرة اللّه على إنسان قوى ظلمه، تلك ليست القاعدة، فالقاعدة هى الأسباب، ولكن طلاقة القدرة تأتى، وتأتى بشكل ظاهر لتلفت الناس إلى قوة اللّه وقدرته.

إن هذا الحديث لا يعجب أناسا كثيرين من أولئك الذين تعلقوا بالحياة المادية ؛ ذلك لأنهم ينسبون إلى الإسلام أنه دين يحض على التخلف بسبب الإيمان بطلاقة القدرة، ويقولون إن قول اللّه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢]، هو مدعاة لئلا يسعى الإنسان فى الرزق، ولماذا السعى وراء الرزق، مع ما يورثه للنفس من مشقة ومما تكره؟ وقبل أن نجيب على هذا السؤال نطرح قضية هامة معاصرة، تلفت هؤلاء الناس إلى صدق قول اللّه وتجعلهم يعرفون يقينا صدق الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]، هؤلاء يطعنون الدين فى هذه الآية، يعبدون الأسباب ويتخذونها إلها، فالرزق مساو للعمل الذى يتم من أجله، فأنت إذا عملت ليل نهار، زاد رزقك، وإذا عملت بضع ساعات مثلا قل رزقك، وهكذا، تلك هى القاعدة التى يتبعونها فى أن كل رزق يجب أن يكون مساويا للعمل الذى يتم من أجله.

نقول لهم: إن هذا قد يكون صحيحا كقاعدة عامة، ولكنه لا ينفى قول اللّه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٨]، ولنلاحظ فى الآية الكريمة قول اللّه: ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾، ولم يقل سبحانه وتعالى أرزق كل الناس بغير حساب، بل كل له رزق معلوم على قدر ما أتاح اللّه من عمل وجهد له.. ولكن هناك المشيئة، أو طلاقة القدرة تعطى بغير حساب.. أو بغير أسباب.

هنا يجب أن يوقف الحكم المادى الغربى الذى يأخذ الأسباب على إطلاقها، والذى يطعن فى الآية الكريمة ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، ويدعى أنها لا تتمشى مع تطورات العصر، وتقدم العلم ومقاييس الزمن، نقول له: قبل أن تتسرع فى اتهامك، تأمل فى الكون، تجد فى كل مكان رزقا لمن يشاء الله بغير حساب، هذا الرزق يلقى بالأسباب بعيداً، تأتى طلاقة القدرة وتعلن أن الله يفعل ما يشاء، عندما يشاء، وقتما يشاء، وأنه إذا كانت الأسباب موجودة، فإن طلاقة القدرة موجودة فى الكون، وأعتقد أنه لا أحد يستطيع أن يرد على هذه النقطة، أو يدعى ظلماً وبغير حق أن الآية الكريمة ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، ليست حقيقة كونية، موجودة منذ خلق الله الأرض، وستظل إلى قيام الساعة، ونحن نطلب من كل من يستطيع الرد على ذلك أن يتكلم.

نعود بعد هذه اللمحة إلى طلاقة القدرة، لماذا أبقى الله سبحانه وتعالى طلاقة القدرة فى الكون ولم يتركه يتفاعل بالأسباب وحدها؟ إن الأسباب أو المعطيات المادية، تعطينا ظاهرة الحياة، وتنظم سيرها العادى، ولكن إبقاء هذه الأسباب وحدها فيه بعد عن الله سبحانه وتعالى، ذلك أن الله قد مكن بعض خلقه من الأسباب فى الأرض، ليسير الكون وتمضى الحياة، فهذا رئيس للدولة، وهذا ميسر له أسباب النفوذ والسلطان، وهذا ميسر له أسباب المال، إلى آخر ما نراه فى الدنيا كلها، وجعل الله العطاء ظاهرا من الأسباب ليسير الكون ثم ماذا حدث، جاء إلى الكون أناس ماديون، يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله بالأخذ بالأسباب وحدها، فهذا يملك المال وهو يستطيع منحى ما أريد إذا فعلت له ما يطلب وهذا يملك الجاه والسلطان، وهو يستطيع أن يعطينى ما أريد إذا فعلت له ما يطلب وهكذا ظاهر الحياة الدنيا.

هب أن هؤلاء الناس لا يخشون الله، إنهم قد طلبوا منى أن أفعل ما يغضب الله من أجل منصب أو جاه أو مال، فماذا يكون الموقف، لو كنت أعبد الأسباب وحدها لنفذت لهم ما يريدون.. لأصل إلى حاجتى، أو ما أريد، فإذا قال لى صاحب المال، أو صاحب النفوذ والسلطان اقتل وسأعطيك كذا وكذا، لفعلت ذلك بلا تردد، إحساساً منى بأن عطاء الأسباب فى يد هذا وحده، وأن معصيته ستؤدى بى إلى التهلكة وتحرمنى من مقومات الحياة، وأن طاعته ستجعلنى أعيش الحياة الرغدة التى أتمناها فى الدنيا، وبهذا وبغير ما نظر إلى ما قال الله: أفعل ولا تفعل، أنطلق أنا لأحقق هوى وشهوات ذلك الذى يملك المال أو الجاه أو السلطان.. ولو كانت تغضب الله، وتمضى الأسباب لتؤدى إلى عبادة الفرد، حيث يصبح الهوى الشخصى، والغرض البشرى، هما الأساس فى الحياة.. فيفسد الكون كله، ولا تمضى الحياة وفقا لمنهج الله الذى يحمى الإنسان الضعيف من بطش القوى، والمظلوم من قدرة الظالم، ولكنها تكون حياة وفقاً لهوى النفس، فيصبح الذى يحكم هو شهوة الحاكم وليس دين الله.

هذه هى خطوة الأخذ بالأسباب وحدها، وهى خطوة تعرض الكون كله للاختلال وتضيع موازين العدل، وتكثر من البغى فى الأرض والفساد، وما من أمة عبدت الفرد إلا وانتشر فيها الظلم، وعم فيها الإرهاب، وضاع فيها الحق واستعبد فيها الإنسان، تلك الحقيقة تستطيع أن تدركها إذا نظرت إلى أى دولة نصب حاكمها نفسه إلها، يعبد من دون الله فى الأرض، وهى حقيقة منذ بدء التاريخ فى عهد فرعون حتى عصرنا هذا، والله سبحانه وتعالى قد شدد العذاب على أولئك الذين يعاونون هذا الحاكم، ويفعلون له ما تهوى نفسه ويغضبون الله سبحانه وتعالى، فخص آل فرعون من دون سائر خلقه بأنهم منذ ساعة أن توفاهم حتى يبعثهم يوم القيامة يعرضهم على النار صباحا ومساء، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

أى إنه لم يختصهم فقط بأشد العذاب يوم القيامة، بل زادهم بالعرض على النار غدوا وعشيا إلى يوم البعث، وتشديد العذاب هنا متناسب مع شدة المعصية، فعبادة الفرد هى إطلاق للشهوات والظلم والإفساد.

إذن.. فإطلاق الأسباب وحدها فى الكون، يؤدى إلى عبادة الفرد، وإلى ظلم عظيم ويجعل الناس يعبدون الأسباب، وينسون المسبب، ويخضعون لمن فى يده الملك والسلطان والجاه والمال، ويتركون حكم الله، لماذا؟ لأن الأسباب هنا هى التى تعطى، وهى التى تهب، وما يهب ظاهراً يعبده الناس؛ لأنه ظاهراً يُعطى ويمنع، ومن هنا كان لابد من طلاقة القدرة لتصحح المسيرة، وتفيق الناس، وتجعلهم يعلمون أن الله هو الذى أعطى الأسباب، وأنه يستطيع كما أعطاها أن يأخذها، وأن العبادة لله وحده، وأن من ترك المسبب وعبد الأسباب، فإنه قد ضل ونسى الله.

ولذلك فنحن نتعجب من إنسان يملك أمور الدنيا كلها من قوة وجاه ومال وسلطان، ثم يأتى إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة فيقصيه عن ملكه ويبعده عن ماله، ويصبح ذليلا طريدا، تضيق عليه الأرض بما رحبت بعد أن كان يملك من أسباب القوة والملك ما يجعل الدنيا كلها تخضع له وتتقرب إليه

ونحن نرى كل يوم طلاقة القدرة فى العالم كله من ملك يذهب، وملك يجىء، ومن صاحب سلطان أو مال، يصبح فقيرا معدما أو مطرودا فى ساعات، ومن ذلك الذى كان يجلس على كرسى الوزارة، ثم بعد ذلك بساعة نجده فى السجن والقيود فى يديه.. كل ذلك يحدث أمامنا ليذكرنا بطلاقة القدرة وقوة المشيئة، ويؤكد لنا أن الأسباب التى أعطيت لأى بشر، لتمكن له ملكا، وجاها، أو سلطانا، إنما هى أسباب معطاة من الله سبحانه وتعالى، وليست باجتهاد هذا الشخص أو نابعة من ذاته؛ بحيث إذا أراد الله زالت هذه الأسباب، ولو كانت الأسباب ذاتية، أى تنبع من الإنسان نفسه لبقيت له، ولم يستطع

أحد أن يأخذها منه، ولكن كونها تزول عنه وفى لحظات دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبه هذه الأسباب، وهو الذى أخذها منه.

ولا تقتصر طلاقة القدرة على قمة الأمور فى الدنيا، بل هى فى أكبر الأشياء وفى أبسط الأشياء، ولا تقتصر على فرد من دون آخر، بل يراها الجميع، وكل منا صاح فى يوم من الأيام «ربنا كبير»، أو «ربنا موجود»، أو «ربك يمهل ولا يهمل» وهو يرى القدرة تتدخل لتنصر مظلوما ضعيفا على ظالم قوى.. أو تقتص من إنسان ارتكب جريمة، وحسب الناس أنه نجا من العقاب، أو لتعيد حقا ضاع من صاحبه وحسب الناس أنه ضاع إلى الأبد، أو لتزيل ظلماً، أو لتقعد جباراً كان يؤذى الناس لتجعله عاجزاً عن رد الأذى عن نفسه، تلك كلها طلاقة القدرة وكلمة «يارب» التى تخرج من قلب مظلوم لا حول له ولا قوة يتبعها تدخل السماء لتزيل ظلماً وتعيد حقا، وتصحح الموازين فى الأرض.

وإذا كانت طلاقة القدرة باقية فى الكون، فأساس بقائها أنها تذكرنا بالله سبحانه وتعالى فإذا وعدك ظالم بأخذ أسباب المال مقابل أن تفعل له ما يغضب الله فإن طلاقة القدرة تذكرك بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب، وإنك إذا عصيت هذا الظالم وأطعت الله فإن الله يعطيك من الرزق مالا يخضع للأسباب، ويفتح لك أبوابا ما كنت تدرى عنها شيئاً ومن حيث لا تعلم يأتيك الرزق الذى تريده، وإذا طلب منك صاحب جاه أو سلطان أن تفعل ما يغضب الله فإن طلاقة القدرة تذكرك بأنك إذا أطعت الله أعطاك هذا المنصب أو خيراً منه، وأنه إذا كان هذا الإنسان يملك الأسباب التى تجعلك تخاف ألا تصل إلى ما ترجوه، فإن الله سبحانه وتعالى يملك طلاقة القدرة التى تعطيك بلا حساب وبهذا تعرف جيداً أن يغريك: هذا بماله، وهذا بسلطانه هما سببان زائلان، وأن طلاقة القدرة لا يهمها هذه الأسباب، ولا تتقيد بها.

على أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل طلاقة القدرة غيباً عنا، ولا جعلنا نجهلها ولا نعرف عنها شيئاً، بل ذكرها فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم، بحيث نجد فى كل سورة إشارة إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى، فإذا قرأت قول سبحانه وتعالى: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ١٠٥]، ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٤٠]، ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ [الرعد: ٢٧]، ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ﴿ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠].

نجد أنه سبحانه وتعالى قد أعطانا القدرة فى هذه الآيات وفى عشرات من الآيات الأخرى فى القرآن الكريم، وليست هذه الآيات إلا مثلاً فقط على أن طلاقة القدرة يُشار إليها فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع، ولو قرأت القرآن لوجدت أضعاف أضعاف

هذه الآيات تُنبئنا بطلاقة القدرة، على أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل طلاقة قدرته سرا على عباده بل أنبأهم بطلاقة هذه القدرة ووجودها، ولعل الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، هو قمة طلاقة القدرة ذلك أن هذه الآية تنبئنا أنه ليس عند الله أسباب، وأنه إذا كان قد خلق الأسباب لتنتظم الحياة على الأرض فهى ليست قيدا على مشيئته سبحانه وتعالى، ولو كانت قيدا لقال لنا الله: إنه إذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب ليكون، ولكن كلمة: ﴿ كُن ﴾ معناها أنه لا دخل للأسباب هنا، وأن الشىء يوجد بمجرد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ دونما أسباب أو مسببات، وخلق السماوات والأرض وما فيهما كان بكلمة ﴿ كُن ﴾، وخلق الإنسان كان بكلمة ﴿ كُن ﴾ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [الشورى: ٤٩] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى: ٥٠]، والحكمة هنا أنه رغم أن الله سبحانه وتعالى قد جعل السبب فى الذرية من ذكر وأنثى، أى إنه لا يتم الإنجاب إلا باجتماع الذكر والأنثى، إلا أن طلاقة القدرة تجعل من يشاء عقيما، أى إنه رغم اجتماع الذكر والأنثى لا يتم الإنجاب، وتتوقف الأسباب أمام مشيئة الخالق.

هذا ما قاله الله سبحانه وتعالى عن القدرة فى القرآن الكريم.. فإذا جئنا إلى التطبيق وجدنا أن طلاقة القدرة ظاهرة واضحة فى الرسل عليهم السلام، فمعجزاتهم كلها تأتى بطلاقة القدرة وليس بالأسباب.. فنوح عندما دعا ربه أن يهلك الكافرين فتحت ينابيع من السماء والأرض ليتم الطوفان، ولم تفتح هذه الينابيع بالأسباب، ولكنها فتحت بطلاقة القدرة، وإبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وخاصية النار هى الإحراق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فتوقفت خاصية الإحراق فى النار فأصبحت لا تحرقه ولا تؤذيه، هنا أيضاً طلاقة القدرة، وموسى عليه السلام عاش مع طلاقة القدرة طوال عهد نبوته، نظراً للمعصية المستمرة لبنى إسرائيل فقد قال الله: ﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣] فانفلق، وظهر قاعه ووقف الماء الذى من خاصيته الاستطراق وقف ساكناً بعيداً عن الأرض بقدرة الله سبحانه وتعالى، وعبر موسى وقومه البحر، وعندما حاول فرعون العبور عادت نظرية الاستطراق إلى الماء فأغرقته هو وجنده.. وعندما استسقى موسى قومه ضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، ولو أن موسى عليه السلام قام بحفر حفرة ليبحث عن الماء، لقلنا إنه اتخذ الأسباب، ولكن لمجرد ضربه الحجر بعصا انفجر منه الماء، لا عين واحدة، ولكن اثنتا عشرة عينا، ذهبت كل عين بمائها إلى القوم الذين قسمها الله لهم، ورَفْع الجبل فوق بنى إسرائيل، وضَرْبُهم الميت بأجزاء من البقرة بعد ذبحها، أى ضرب ميت بميت، وتخرج منهما الحياة، ويبعث القتيل ليدل على قاتله.

كل هذه معجزات لا يمكن أن تدخل فيها الأسباب، بل هنا تتجلى طلاقة القدرة فى أن يقول للشىء: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾، ثم تأتى بعد ذلك طلاقة القدرة فى زكريا ومريم حينما دعا زكريا الله أن يهبه غلاماً.

قال الحق سبحانه: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

قال الحق سبحانه: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٧].

هنا أخذت زكريا طلاقة القدرة فاهتز، وسأل الله سبحانه وتعالى كيف يمكن أن يحدث ذلك وهو شيخ كبير وامرأته عاقر، أى إن الأسباب إذا طبقناها هنا لا يمكن أن تؤدى إلى مولد طفل، حينئذ رد الله سبحانه وتعالى عليه: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٩]، أى إن الله سبحانه وتعالى ذكر زكريا بطلاقة القدرة فقال له لا تعتقد أن هناك شيئاً صعبا على لأن الأسباب لا تأتى به، بل من أهون الأشياء على قدرتى أن افعل ما أريد، ويتم ما أشاء بدون أسباب، وإذا كان هذا صعبا على فهمك فتذكر خلقك، ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾، فإذا كانت قدرتى أن أوجد من العدم، أفلا أستطيع أن أخلق بلا أسباب.

وعندما دخل زكريا المحراب على مريم وجد عندها رزقا، أى فاكهة فى غير أوانها فسألها: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧] أى من أين أتيت بهذه الفاكهة وهذا الطعام فقالت: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] إشارة إلى أن طلاقة القدرة لا يستعصى عليها شىء.

بل إن خلق المسيح عيسى ابن مريم كان من طلاقة القدرة، والله سبحانه وتعالى خلقه من لا شىء، وخلق حواء من آدم، أى إنثى من ذكر بلا أنثى، وخلق من ذكر وأنثى، ولإتمام مراحل الخلق بقى أن يتم الخلق من أنثى بدون رجل وقد تم ذلك فى عيسى ابن مريم عليه السلام.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الإسراء والمعراج نجد أنها معجزة كبرى دالة على طلاقة القدرة فرسول الله صلى الله عليه وسلم أسرى به من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، حيث صلى بالأنبياء، وهى طلاقة فى القدرة أن يصلى حى بأولئك الذين انتقلوا إلى جوار ربهم منذ مئات السنين، ثم بعد ذلك انطلقت به طلاقة القدرة ليخترق السماوات السبع، ويصل إلى سدرة المنتهى، وهذا الانطلاق كان فيه تغيير لطبيعة الأشياء حتى يمكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصل إلى سدرة المنتهى، بل إن الوحى نفسه من طلاقة القدرة أن يلتحم الملك بإنسان ليتم تبليغ القرآن الكريم.

كل هذه الأشياء فى مجموعها، هى تطبيق حى لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى،

فالله لم يذكر لنا طلاقة القدرة فى القرآن الكريم، بدون أن يعطينا أمثلة على التطبيق، متواكبة على رسله، تؤيدهم هذه القدرة بالمعجزات التى رواها لنا القرآن الكريم.

على أن طلاقة القدرة لم تتوافر للرسل وحدهم، بل هى فى كل جزء من الحياة، وإذا أردنا أن نتأمل طلاقة القدرة فى مظاهر الدنيا، فلنأخذ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

إذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلا ببعوضة، والمثل هنا كالأمثلة فى القرآن الكريم لا تضرب جزافا، ولكن لحكمة بالغة، حين ضرب هذا المثل قال الكفار ماذا أراد الله بهذا مثلا ولم يفهموا شيئاً، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضرب مثلاً بدقة الخلق، فإن خلق البعوضة المتناهية فى الصغر بكل الوظائف اللازمة لها فى الحياة دقة فى الخلق تستوجب خالقاً قادراً، فهذه البعوضة الصغيرة الحجم، قد جعل الله فيها كل أسباب الحياة وما فوقها ؛ أى ما أصغر منها وأدق فى الخلق، خلقه الله ووضع فيه أسباب الحياة واستمرار الحياة.

هنا حكمة الله.. إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا ألا نستهين بالمخلوقات الدقيقة التى خلقها لصغر حجمها وضآلتها، بل إنه كلما زادت دقة المخلوق كان بأسه شديداً، وكلما زادت ضخامة المخلوق فليس هذا بالضرورة دليلاً على القوة، وإذا أخذنا بهذه النظرية وعدنا إلى بداية الخلق، نجد مثلا أن الحيوانات الضخمة التى عاشت فى القرون الأولى على الأرض كالديناصور مثلا قد هلكت وانقرضت ولم تستطع أن تعيش العصر الجليدى الذى ساد الكرة الأرضية، هذه الحيوانات المرعبة التى كانت تزلزل الأرض، لم تستطع أن تتغلب على الطبيعة.. بينما البرغوث والنملة مثلا قد عبرا هذه العصور حتى عصرنا هذا، ويقول العلماء وهم يفسرون هذه الظاهرة: إن الحيوانات الضخمة فى أجسامها كانت تملك عقولاً صغيرة، لم تمكنها من التحايل على البيئة ولذلك هلكت، هذا هو تفسير العلم، ولكن التفسير الإيمانى يقول: إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن البقاء لا يخضع لعنصر القوة، وإنما يخضع لعنصر القدرة وأن الأشياء القوية، أو ذات القوة الهائلة التى تظن أنها ستسود الأرض إلى الأبد، تأتى قدرة الله سبحانه وتعالى فتهلكها، بينما تبقى الأشياء الصغيرة التى لا ترى بالعين المجردة، فالفيروس مثلاً الذى لا يستطيع أحد رؤيته حتى الآن لتناهى حجمه فى الدقة، أقوى من الفيل والأسد وعقل الإنسان وكل قدرات المخلوقات على الأرض، فهو يستطيع أن يقضى على أى من هؤلاء فالكل يقف عاجزاً أمامه، وهو يعيش ملايين السنين مع ضآلة حجمه وتناهيه فى الصغر، وهذه الفيروسات تستطيع أن تسلب الحياة من شعب بأسره، ومن أمة تختال على

الناس بقوتها، فسلط الله سبحانه وتعالى هذه الفيروسات التى لا ترى وتنتشر بين أفراد هذه الأمة كوباء يفنيها، هنا طلاقة القدرة التى تعطى ذلك الشيء المتناهى فى الصغر قوة هائلة تجعله يهلك أقوى الأقوياء فى الأرض من دون أن يستطيع القوى أن يفعل شيئاً، ويأتى ذلك لنؤمن بأن القوة هى لله فلا نغتر بقوتنا الظاهرة، ونحسب أنه لا يوجد فى الأرض من يغلبنا، وأدق مخلوقات الله تستطيع أن تسلبنا الحياة فى ساعات، وفى ذلك قضاء على الغرور فى النفس البشرية وتثبيت للإيمان بأنها بدون قوة الله وتأييده لا تساوى شيئاً.

على أن الله سبحانه وتعالى، قد أعطانا كل هذا لحكمة بالغة، وأوجد لنا ما يثبت طلاقة قدرته علما وعملا، وقولاً وفعلاً ؛ حتى يمضى موكب الإيمان فى الحياة فى نفوس مطمئنة إلى قوة الله، لا تزلزلها الأحداث، ولا تشقيها الأسباب.

والنقطة الأولى: فى الحكمة البالغة فى طلاقة القدرة هى إيمان بأن الله موجود إذا عجزت الأسباب، وهذا الإيمان هو الذى يبقى الإنسان المؤمن مطمئنا إلى أن الله سبحانه وتعالى لن يتخلى عنه مهما كانت الأسباب تقول ذلك، وإذا كانت الدول المادية التى لم يدخل فيها الإيمان تعانى من شيء وهو الإحساس بالخوف واليأس من الحياة، ورغم كل ما فى هذه الدول من تقدم مادى، وأمن وأمان، فإن كل فرد فيها يعيش فى قلق يمزقه، لماذا؟ لأن كل إنسان مادى يعبد الأسباب بدون المسبب، ويعتقد فى القدرة البشرية دونما قدرة الله سبحانه وتعالى، فإذا فصل من وظيفته لا يقول: إذا أغلق الله باباً للرزق أمامى فسيفتح لى عدة أبواب، ولا يقول إن هذا ابتلاء من الله ليمتحننى، وإن مع اليسر يسرا، ولا يقول: إن الذى آمنت به وعبدته لن يتخلى عنى أبداً، فذلك منطق الإيمان، ولكن منطق المادية يجعله يرى المستقبل أسود، ويحس أن الدنيا أغلقت فى وجهه، وأنه لن يجد باباً للرزق.. وأنه قد انتهى تماماً، ومن هنا فهو بيأسه من رحمة الله يلجأ فى كثير من الأحيان للانتحار ويُصاب بالجنون، لماذا؟ لأنه يعتقد أن البشر الذى منعه هو الذى يملك كل الأسباب، وأن الله سبحانه وتعالى لا يملك شيئاً.

وإذا مرض الإنسان المادى، بمرض ميؤوس من شفائه، فقد الأمل فى المستقبل، ولم يقل إذا عجزت الأسباب فإن رحمة الله لن تتخلى عنى وسيجد لى سبيلاً للشفاء، أو يقول إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يشفينى حتى ولو عجزت الأسباب، بل هو فى عبادته للأسباب يتخذها إلها، فإذا عجزت الأسباب فإن إلهه قد تخلى عنه، ولم يعد أمامه إلا مصير أسود.

الله سبحانه وتعالى، يريد أن يُنجّى المؤمنين من هذه الحياة الدنيا، فهو وعدهم بالحياة الطيبة، والحياة الطيبة ليس فيها الشقاء البشرى الذى تفرضه المادة على الإنسان، بل فيها رحمة الله سبحانه وتعالى، تلك الرحمة التى جعلت طفلاً كإسماعيل عليه السلام يضرب الأرض بقدمه الصغيرة فيخرج منها ماء زمزم، بعد أن هرولت أمه عليها السلام بين

الصفا والمروة سبعة أشواط وهى تبحث عن الماء، تأتى رحمة الله لتجعل الماء يخرج من ضربة بقدم طفل صغير، فيتشقق الصخر ويخرج منه الماء.

تلك هى المعجزة الكبرى التى يريدنا الله أن نعيش معها، فإذا وقفت أمامنا الأسباب فأمامنا الطلاقة الكبرى، نلجأ إليها، ولذلك قال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢]، وإذا تأملنا هذه الآية، نجد أن الله سبحانه وتعالى استخدم لفظ: «المضطر»، وهو ذلك الذى تخلت عنه أسباب الدنيا ووقف كل شىء حائلا بينه وبين ما يريد، حينئذ لا تجدى الأسباب معه، فيقول الله سبحانه وتعالى: إذا تخلت عنك الأسباب فلا تيأس ولا تعتقد أن كل شىء قد ضاع، بل ارفع يديك إلى السماء وقل «يارب» وساعتها تتفتح أبواب السماء، وتتدخل القدرة لتحقق لك ما تريد.

وهذا ليس غريباً عنا، عن حياتنا العادية، وليس كلاما يقال بدون أن يكون له واقع فى الحياة، فلو استعرض كل منا شريط حياته لوجد أن فيه طلاقة القدرة، كم منا واجه مشاكل بلا حل، وربما ظل ساهراً ليالى طويلة، يقلب عقله، ويُعمِل فكره، ولا يستطيع أن يصل إلى الحل، ثم فجأة يتغير كل ما حوله ليجد الباب مفتوحاً من حيث لا يدرى ولا يحتسب، ويأتى الحل ميسراً سهلاً من أشياء لم نكن نتوقعها، ولا نظن أنها ستحدث كل منا مر بذلك، وكل منا رأى فى حياته مرة أو مرات قدرة الله سبحانه وتعالى وهى تزيل ظلما ما كان يحسب أن يزول، أو تحل مشكلة لم يكن يعتقد أن لها حلاً، هو يأتى بشىء لم يكن يحلم به، كل هذا حدث لنا جميعاً.

يريد الله سبحانه وتعالى أن يملأ النفس المؤمنة برحمته، بحيث تواجه مصاعب الحياة وفى قلبها شعلة إيمان لا تنطفئ، هذه الشعلة هى أمل متصل بالله سبحانه وتعالى، أمل لا ينطفئ أبدا، حينئذ يحس الإنسان المؤمن بأن كل الصعاب التى يواجهها لن تقضى عليه ولا تمس أمنه وأمانه، لماذا؟ لأنه يتذكر قول الله تعالى: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٩] فالصعاب مهما بلغت فهى على الله شىء هين، وهى أمام قدرة الله سبحانه وتعالى لا شىء فلا يدخل اليأس إلى قلبه أبداً، ولا تحطمه الحياة فتدفعه إلى الجنون والانتحار، ولعل ارتفاع نسبة الجنون والانتحار فى الدول المادية، وانخفاضها فى الدول التى تتمسك بالدين هو خير دليل على الحياة الطيبة التى يعطيها الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين.

والنقطة الثانية: هى أن طلاقة القدرة تفسر لنا ما يحدث فى الكون من أشياء لا تتفق مع الأسباب، فنحن نعيش فى كون تحكمه طلاقة القدرة مع الأسباب؛ ولذلك فإننا نرى أحيانا أن إنسانا يملك كل أسباب القوة من جيش وشرطة وأجهزة دولية، ثم يأتى إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة، فنجد قدرة الله سبحانه وتعالى تأتى إلى هذا القوى فتزيله من مكانه، وتأتى بهذا الضعيف وتضعه مكانه، ذلك يحدث أمامنا فى العالم كل يوم، ولو طبقنا الأسباب لقالت عكس ما يحدث، ولكن الأسباب شىء، وطلاقة القدرة شىء آخر.

فإذا جئنا لأمة كافرة، كالاتحاد السوفييتى مثلاً نجد الله سبحانه وتعالى يسلط عليها ما يهلكها، أحيانا بين يوم وليلة، وأحيانا على فترة من الزمن، فإذا نظرنا إلى الاتحاد السوفييتى بعد أن كان هو مخزن الحبوب فى العالم، وبعد أن كانت أوكرانيا تنتج من القمح ما يزيد عن حاجة الاتحاد السوفييتى بكميات هائلة، نجد أن البركة قد رفعت منها، وأصبح الاتحاد السوفييتى يستورد كميات كبيرة من القمح من الخارج، ولا يجد رغيف الخبز الذى يقتات به، وكذلك نجد كل الدول التى تحارب الدين، تملؤها الكوارث، ويذهب عنها الأمن والأمان، ويُصبح رزقها ضيقا، وأمنها معدوما، والشقاء يخيم على من يعيش فيها، كل ذلك يتم بطلاقة القدرة بدون الأسباب التى ربما قد تؤدى إلى عكس ذلك، بل إنه فى بعض الأحيان، تقوم هذه الدول بمشاريع تُجند لها دعايتها، وتقول: إن بها خيرا وفيرا، وأنها ستحقق الرفاهية والعيش الرغد، ثم تتم هذه المشاريع فإذا بها تأتى بعكس ما قيل عنها تماما وإذا بها وبال، فى وبال، فى وبال.

وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى تجعله هو الوحيد، وتجعل كل ما حوله متغيرا، وتأتى أنت لترى الدول الكبيرة التى لم تكن تغرب عنها الشمس وقد تضاءلت وربما انمحت من خريطة الكون، وربما أصبحت عاجزة عن حماية نفسها، مع أن الشعب هو الشعب لم يتغير، والقدرات هى القدرات لم تتغير، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى غير كل شىء.

النقطة الثالثة: أن كل شىء فى الكون قد جعل الله له مولدا فى طلاقة قدرته، فطلاقة القدرة هى التى تكشف أسرارا لكل جيل أخفيت عن الجيل الذى سبقه، فالله له عطاء جديد لكل جيل من البشر، وإذا أردنا أن نستطرد فى شرح هذه النقطة ؛ نقول: إن بعض الناس يعجز تفكيره عن فهم تفسير للآية الكريمة: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وبعضهم لا يذهب إلى الطبيب تطبيقاً لهذه الآية، والبعض الآخر يذهب إيماناً منه بأن الشفاء يحدث على يد الطبيب، ولكن الذى يحدث أن لكل شفاء أجلاً، فإذا جاء الأجل أو الموعد كشف الله للطبيب المرض فيتحدد الداء والدواء ليتم الشفاء، والذى يحدث عادة وهذا فى حياتنا كلنا، أننا نذهب إلى أشهر الأطباء وأكثرهم علماً وفنًا فلا يتم على يديه الشفاء، ثم نذهب إلى طبيب صغير أو مبتدئ فيعرف الداء ويكتب الدواء، ونحن حين يحدث هذا نتعجب ؛ ذلك لأن الذى حدث يخالف الأسباب فى الأرض، فالمفروض أن الطبيب الأكثر علماً هو الذى يكتشف الداء بحكم علمه وخبرته، والطبيب المبتدئ لا يمكن أن يكتشف ما عمى على أستاذه، تلك هى أسباب الأرض، ولكن الحقيقة، أو ما يحدث، وما نشاهده جميعا ونعرفه هو عكس ذلك، والحقيقة أن علم الطبيب المبتدئ لا يمكن أن يزيد عن علم أستاذه، ولا خبرته، ولكن الذى حدث أن وقت الشفاء قد جاء فيسر لنا الله الطبيب الذى عرف الداء وكتب الدواء، وإذا لم نذهب نحن إلى الطبيب فأحيانا يحدث

ذلك بطريق ما نسميه «الصدفة» وهو أن يجمعنا مكان مع أحد الأطباء ويدور الحديث عن المرض ويقوم الطبيب بتشخيص الداء وكتابة الدواء.

وكما يقال عن المرض، يقال عن كل كشف من أسرار الأرض، يريد الله سبحانه وتعالى أن يمكن منه خلقه، فكل كشف له ميلاد عند الله وفي علمه، والذي يحدث أنه عندما يأتي وقت هذا الميلاد إما أن يصادف هذا الكشف عالماً يبحث عنه، فيكشف الله سبحانه وتعالى له، وإذا لم يصادف هذا الكشف عالماً يبحث في الموضوع نفسه كشفه الله سبحانه وتعالى لعالم يبحث في موضوع آخر، ولذلك نرى كثيراً من الأبحاث العلمية تبدأ بالبحث عن كشف ثم تنتهي إلى كشف آخر مختلف تماماً، لم يكن يدور في ذهن العالم، بل حدث بطريق ما نسميه الصدفة، ولو تتبعنا الكشوف العلمية وما يحدث فيها، لوجدنا أن اكتشافات كثيرة قد تمت من دون أن يكون هناك باحث عنها بالذات، بل بدأ البحث عن شيء وانتهى إلى شيء آخر.

وهكذا يكون العطاء في كثير من الأحيان بمولد وميقات من الله سبحانه وتعالى، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يطلعنا على ذلك، فأحيانا نأخذ بالأسباب، وأحيانا نرى أن هناك أشياء يحار العقل فيها فننسبها للصدفة، أو للحظ، أو لكل هذه المسميات.

النقطة الرابعة: أن الإيمان بطلاقة القدرة هو أساس الإيمان وركيزته، والذي لا يؤمن بطلاقة القدرة لا يمكن أن يؤمن بالغيب، فالإنسان الكافر، أو الذي ينكر وجود الله يأخذ بالأسباب وحدها، فما هو ظاهر أمامه يصدقه، وما هو غيب عنه يكذبه، فإذا حدثته عن الجنة والنار، والثواب والعقاب، وما أعده الله سبحانه وتعالى للمؤمنين من عباده سخر منك ولكن الذي يؤمن بطلاقة قدرة الله هو الذي يفهم معنى أنه سيكون في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولذلك فإننا لكي نؤمن بالآخرة، ونؤمن بقدرة الله على بعث الموتى، ونؤمن بما يعدنا الله من ثواب أو عقاب، يجب أن نؤمن أولا بطلاقة القدرة، ونعرف أن الله سبحانه وتعالى لا تحده قيود ولا حدود، ولا شيء عنده يقع تحت كلمة مستحيل، وأنه مادام قد وعد، ووعده الحق، فإنه سيتحقق، وأنه قادر على أن يخلق جنات فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقادر على أن يعطي الإنسان نعيماً أبديا، ويعطيه عذابا أبديا، وقادر على أن يسجل أعمال كل البشر، وعلى أن يواجههم بأعمالهم في الآخرة، تلك كلها لا تخضع لقانون السببية ولكنها تخضع لطلاقة القدرة التي حرص الله سبحانه وتعالى على أن يبينها لنا قولاً وفعلاً ويضعها في حياتنا اليومية، فنحن نعيش مع طلاقة القدرة كل يوم ليزداد إيماننا بالغيب الذي حجب عنا، ونحن حين نجد طلاقة القدرة التي تصطدم مع العقول وتحيرها إنما يزيد إيماننا بأن الله سبحانه وتعالى فوق قدرة العقول كلها.

تلك حقيقة يجب أن نتنبه إليها، فطلاقة القدرة أساس إيماني لكل شيء أخبرنا الله

عنه وجعله غيبا عنا، وكل شيء يكشفه الله سبحانه وتعالى لنا جيلا بعد جيل، ذلك أن هذه الأشياء التى تزيدنا يقينا بقدرة الله، يجب أن تزيدنا خشوعا له، فكل يوم يضاف إلى علمنا أسرار كانت موجودة فى هذا الكون، ولم نكن نعرف عنها شيئاً، وهذه الأشياء فى كثير من الأحيان تصحح مفاهيم خاطئة كانت موجودة على أساس أنها علم أرضى.

ولو أننا قمنا بحصر ما كشفه لنا الله سبحانه وتعالى من أسرار فى الكون. لوجدنا أن هذا الجيل يجب أن يكون أكثر عبادة وخشية لله من الأجيال التى سبقته ؛ لأنه وصل إلى أسرار فى الكون جعلته يعرف قدرة الخالق وعظمته، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤].

ومعنى هذه الآية الكريمة، أن الله سيكشف من أسرار كونه للبشر ما يريهم به دقة صنعه وإحكام خلقه، ولكن البشر لن يأخذوا هذه الأشياء على هذا المعنى، بل سيركبهم الغرور ويحسبون أنهم هم الذين صنعوا، وهم الذين اكتشفوا، ويجعلهم هذا الغرور يظنون أنهم قد وصلوا إلى العلم الذى يمكنهم من أن يتحكموا فى كل شيء فى الأرض، حينئذ يأتى قضاء الله، وتقوم الساعة، ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة «ظن» لحكمة بالغة ذلك أن الله هو الذى سخر للإنسان كل ما فى الكون، وهو الذى كشف له عن الآيات فى هذا الكون، ولكن بدلا من أن ينسب الإنسان الفضل لصاحبه، نسبه لنفسه، ليس حقيقة ولكن «ظنا»، فالعلم كلما تقدم، اعتقد الإنسان أن هذا عطاء من ذاته، وأنه هو الذى سخر هذه الأشياء لنفسه، وهذا الظن يجعله يعتقد أنه قد سيطر على الأرض تماماً، وأصبح قادرا عليها وعلى كل القوى فيها، حينئذ تأتى الساعة، وتتعطل القوانين كلها، ويعرف الإنسان أن ما وصل إليه هو من فضل الله، وأن الله إذا كان قد خلق لنا الأسباب وجعلها خاضعة لنا، فيجب ألا نغتر بها وننسى طلاقة القدرة.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

والقرآن كلام متعبد به، لا يتغير ولا يتبدل حتى قيام الساعة ؛ ولذلك فإن كل جيل سيقرأ: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾، و «السين» مستقبلية، والمعنى أن كل جيل يرى ما لم يره الجيل الذى سبقه، ليس فقط من آيات الله فى الأرض، بل فى الآفاق، وفى النفس البشرية، ولعل التقدم العلمى فى كشف الآفاق، وفى معرفة أسرار الجسم البشرى يجيء مصداقا لهذه الآية الكريمة، ويجب أن نعرف أنه لا يقدر على العطاء المستقبلى إلا الله سبحانه وتعالى فلا يمكن مهما بلغت أنا من العلم أن أتنبأ بما سيحدث مستقبلاً، ولأجيال قادمة، ولكن الله سبحانه وتعالى هو القائل، وهو الفاعل ومن هنا فإنه يستطيع أن يعطينا صورة يقينية عن المستقبل.

والنقطة الخامسة: أن الإنسان حين يتمسك بالأسباب، فإنه يعطى نفسه قدرات ليست فيه ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حين يرى عبدا من عباده يأخذ بالأسباب، فإنه يتركه ليتفاعل مع الأسباب التى اعتقد أنها قد أعطته، وفى هذه الحالة تسقط عنه الأسباب فيذهب العطاء، ولو أن الإنسان كان قد ملك الأسباب حقيقة وهى التى تعطى، لما زالت عنه هذه الأسباب وذهب العطاء، ولقد أعطانا الله سبحانه وتعالى مثلا لذلك فى القرآن الكريم، فقارون قال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]، وصاحب الجنتين فى سورة الكهف قال: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٣٥]، والذين أرادوا أن يأخذوا حق الفقراء فى ثمر الحديقة، قالوا في سورة القلم: ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾[القلم: ٢٤] وكان فى هذا كله الهلاك، فخسف بقارون وبداره الأرض وأحيط بثمر الجنتين، وذهب خير الحديقة، وأصبحت كالصريم، كان ذلك كله سببا فى زوال النعمة؛ لأن المنعم عليه أخذ ظاهرية الأشياء بدون حقيقتها وهى طلاقة القدرة التى أعطت، والتى أخذت.

وطلاقة القدرة تعنى أن الله واحد أحد، والقول بأن الله أحد، معناه أنه يجمع من الصفات مالا يمكن أن تجتمع لبشر أو مخلوق، بل للخالق وحده سبحانه وتعالى، وهو الذى يملك وحده طلاقة القدرة، يقول للشىء كن فيكون بلا أسباب، وكل منا له حظ فى العلم، ولكن الله سبحانه وتعالى عليم، أى علمه لم يعلمه أحد، وإنما العلم من ذاته ويعلم مالا نعلم.

إذن.. فقولنا «أحد»، هو تنزيه لله سبحانه وتعالى أن يكون هناك شبيه له، فالشىء الواحد يمكن أن يكون له شبيه، والشىء الواحد يمكن أن يكون من مجموعة الأشياء فأنت تقول عن عدة أشخاص إنهم يتحدثون بلسان واحد، أى إن كل واحد منهم، يكرر الكلام نفسه الذى يقوله زميله، ولكن «الأحدية» تنفى هذا كله عن الله، وأنت تقول للشىء المكوّن من عدة أجزاء شىء واحد، فالكرسى مثلاً مكون من خشب ومسامير وجلد ولكنه شىء واحد، هو كرسى، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك تماماً، ذلك أن الله لا يمكن أن يكون مكونا من أجزاء متداخلة، تبارك وتعالى وتنزه عن هذا، وإلا فأى واحد من الثلاثة خلق الآخرين، ومن الذى وجد أولاً، وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى وجد أولاً، فباقى الأجزاء هى من خلقه وليست جزءاً منه، ومن هنا فإنها تصبح من مخلوقات الله، وليست جزءاً من الذات، والقول بأن الله سبحانه وتعالى مكون من عدة أجزاء ينفى الكمال عن الله إذا انفصلت ما يقال عنها أجزاء متداخلة عن الله سبحانه وتعالى، إذا فالقول بأن الله واحد، هو قول فيه تجاوز، ولكن صحيح القول إنه أحد، وليس كمثله شىء، ولا يحتاج لأى خلق من خلقه، بل هو الله الأحد الذى لا شبيه له، ولا يرقى شىء مهما بلغ إلى قدرته وعظمته.

الله هو الصمد، أى: القوى الذى يقصده الناس لقضاء حوائجهم، أى: إن الله

سبحانه وتعالى وحده الأحد الذى ليس كمثله شيء، الصمد الذى يقصد إليه فى الحوائج، فأنت تتجه إلى الله سبحانه وتعالى إذا أردت شيئاً واستعصى عليك، وأنت تتجه إليه إما اضطرارا، وإما اختيارا، وهناك خلق مسخر لله لا اختيار لهم فى الاتجاه إلى الله أو لغير الله، فالملائكة مثلاً: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، ليس اختياراً، ولكن اضطراراً، فهم مخلوقون لهذا، وكذلك الشمس والقمر، وكل الأشياء التى سخرها الله سبحانه وتعالى، فهى مسخرة لما خلقها له، فالشمس لا تستطيع أن تختار يوماً تشرق ويوماً تغيب، والأرض لا تستطيع أن تقول سأتوقف عن الدوران، والنجوم والقمر والجبال والبحار، كل شيء مسخر لا يملك قدرة الاختيار، ومن هنا فهو متجه إلى الله، يقوم بدوره الذى خلقه الله سبحانه وتعالى له.

يأتى بعد ذلك الإنسان، وقد أعطاه الله حرية الاختيار، وجعله قادراً على أن يفعل أو لا يفعل، وأن يتجه إلى الله، أو يحاول إنكار وجود الله، وذلك فى فترة حياته الدنيا فقط.

إذن.. فقول الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص: ٢] وضع أمامنا الصورة الصحيحة للعقيدة، فما دام الله أحدا، فليس هناك غيره، ومادام الله الصمد، فهو مقصود فى الحوائج، ليس هناك من يقوم مقامه، فلا وجود على الحقيقة إلا وجوده، ولا فعل إلا فعله، والله سبحانه وتعالى لا ينقص من ملكه أن يعطى كل إنسان ما يشاء، ولا أن يكفر الناس جميعا، فالله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين، وهو القادر على أن يهب ويأخذ، وأن يجعل الضعيف قويا، وهذا هو الفرق بين عطاء الله وعطاء البشر، وفرق آخر.. أن الإنسان إذا أعطى لا يستطيع أن يسترد عطاءه، فأنت إذا أعطيت شخصاً مالاً، وتنكر لك، فأنت لا تستطيع أن تسترد هذا المال ما دام هذا المال قد أصبح مملوكاً له، وأنت إذا كنت طبيباً وأعطيت الإنسان دواء أزال مرضه ثم رفض أن يدفع لك نفقاتك فأنت لا تستطيع أن تسلبه نعمة الصحة، ولكن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطى ويأخذ، فهو إذا أعطى النعم وكفر الإنسان بها، يستطيع أن يجعل الغنى فقيراً، ويجعل السليم مريضاً، وإذا قابل الإنسان النعمة بالشكر، زاده الله وأعطاه.

والله سبحانه وتعالى إذا أعطى إنساناً أسباب الحكم فى الأرض، فبغى على الناس وظلمهم، فإنه يسلط عليه من هم أظلم منه، فينتقم منه، فالله لا يسلط على الظالم رجلاً طيب القلب مؤمناً، ذلك أن اللين والرحمة، وحب العفو، وكظم الغيظ، ومواجهة الإساءة بالإحسان، وهو ما أمر به الله، يقف بين هذا العبد المؤمن، وبين القصاص العادل من الظالم، ولكن يسلط على الظالم من هو أشد منه ظلما، حتى يكون القصاص رهيبا ويأتيه الله من حيث لا يدرى ولا يحتسب.

وطلاقة القدرة لله سبحانه وتعالى هى نعمة لا تبارى على خلقه، فالله سبحانه

وتعالى لا هوى له، كلنا عبيده، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، ومن هنا، فإن طلاقة القدرة تصحح المسيرة فى الكون، ذلك أن الله دائماً مع الضعيف ضد القوى، ومع العاجز ضد القادر، ولو لم توجد طلاقة القدرة، وبقيت الأسباب وحدها تعطى: لملأ الفساد الأرض، ذلك أن الذى يأخذ بالأسباب يمتلئ غرورا بقدرته على خلق الله، ويأخذ حق الغير، ويحاول أن يملك ما لا يستطيع أن يفنيه أو يستخدمه طول حياته، ومن هنا فإن قضية الحياة نفسها تفسد، ولكن الله سبحانه وتعالى يزيل الأسباب، فيصبح القوى ضعيفاً والغنى فقيراً، والعزيز ذليلاً.

إذن.. فالله سبحانه وتعالى خلق الكون، ومنح كل من فى الكون رزقا وعطاء، الكافر منهم والمؤمن، والعطاء من الله سبحانه وتعالى لكل فرد هو ابتلاء، سواء أكان هذا العطاء خيرا أم شرا، فأحيانا يكون ما نحسبه شرا هو خير لحياتنا من مئات الأشياء التى قد نفرح عندما تحدث، والله سبحانه وتعالى قد أعطانا الأسباب لتسير الحياة فى الكون، ولكنه فى الوقت نفسه، بقيت طلاقة القدرة لله سبحانه وتعالى؛ ذلك حتى لا ننسى الله ونعبد الأسباب فالكون يمضى كله بالأسباب، ثم تأتى طلاقة القدرة فى حدث من الأحداث لتلفت الناس إلى أن معطى الأسباب موجود وقادر، وأن الأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى، لا يمكن أن تكون قيدا على قدرته، وأننا يجب أن نلتصق فى حياتنا بالله، وليس بالأسباب التى مكن الله فيها عددا من خلقه.

وفى هذه الحالة نتذكر أن ما أجراه الله علينا على يد عبد من عباده، إنما هو من الله أولاً قسمه الله لنا، ثم أجراه على يد هذا العبد، فلا ننسى المنعم ونعبد السبب، ولنعلم أيضا حينما يحيط بنا اليأس ونصل إلى شىء لا تستطيع الأسباب أن تجد له حلا، وتقف قدراتنا عاجزة أمامه، نتذكر أن طلاقة القدرة موجودة، وفى هذه الحالة لا يدخل اليأس إلى قلوبنا أبداً؛ لأن قدرة الله بلا حدود ولا قيود.

وطلاقة القدرة تصحح المسيرة، وتذكر الناس بعدم الابتعاد عن الله، وتتدخل لتنصر المظلوم على الظالم، وغير القادر على القادر، وتقتص للضعيف من القوى.

والله أحد لا شريك له، قادر على أن يفعل ما يشاء وقتما يشاء، مقصود فى كل الحوائج بيده الخير كله، يستطيع أن يعطى كل إنسان حاجته، من دون أن يُنقص ذلك مما عند الله شيئاً وهو فى قوته لا يستعصى عليه أحد، مهما بلغ جاهه أو سلطانه، ولذلك فإننا يجب ألا نخاف الدنيا كلها، ما دمنا مع الله، وما دمنا على الحق.

والله أحد ليس كمثله شىء، لا شريك له، ولا أحد يعلو ليكون ندا لله جل جلاله وكل الناس بدرجاتهم وجاههم فى الدنيا هم عبيد لله سبحانه وتعالى، فالكل عبد الله والكل آتيه بعد هذه الحياة.

وطلاقة القدرة تعطينا الشجاعة فى هذا الكون لكى نواجه كل ظالم، ونقف مع كل

مظلوم، ونأخذ جانب الحق، فإذا حاول أحد أن يخيفنا بالأسباب أو ظاهر الحياة الدنيا من جاه أو سلطان أو ملك أنعم الله به على عبد من عباده، فلنتذكر أن الله سبحانه وتعالى كما أعطى يستطيع أن يأخذ، وكما أعز يستطيع أن يذل، وأن نقف مع الحق، ولا تغرنا الأسباب لأنها زائلة.

وطلاقة القدرة من روح الإيمان ؛ لأنها تجعلنا نؤمن يقينا بما يستطيع الله أن يكافئ به المؤمن فى الآخرة من نعم دائمة، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر وتذكرنا دائما بأن الله وحده هو القادر، والله وحده هو الفعال.

obeikandl.com

طلاقة القدرة.. وخواطر من سورة مريم

لا يكمل الحديث عن طلاقة القدرة إلا إذا سجلنا بعض الخواطر عن سورة مريم، ذلك أن طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى، تتمثل فى أجل معانيها فى سورة مريم، وعيسى ابن مريم عليهما السلام، ولقد كان اختيار مريم فيه طلاقة قدرة، واصطفاؤها الأول فيه طلاقة قدرة وتطهيرها فيه طلاقة قدرة، واصطفاؤها الثانى فيه طلاقة قدرة، ومولد عيسى ابن مريم من طلاقة القدرة، ثم بعد ذلك رسالته مؤيدة كلها بطلاقة القدرة، ورفعه إلى السماء فيه طلاقة القدرة.

كل هذه الأشياء جاءت لتهزم العالم المادى الذى يعيش فيه بنو إسرائيل خلال هذه الفترة فبنو إسرائيل فى طول حياتهم والمادة تحكمهم وتسيطر عليهم، والذهب هو معبودهم حتى حينما أراهم الله طلاقة القدرة بأن جاوز بهم البحر وأنجاهم من آل فرعون، اتخذوا عجلاً من الذهب له خوار البهائم، وعندما أنعم عليهم الله سبحانه وتعالى بالمن والسلوى وهى أشياء غيبية لا يستطيعون التحكم فيها، ولكنها رزق يأتيهم به الله ؛ طلبوا أن يأكلوا مما تنبت الأرض فى عدم ثقة بالغيبيات، وثقة كاملة بالماديات، وعندما أرسل الله لهم طالوت ملكاً ونبيًا، قالوا إنه لا يملك مالاً، يؤهله للملك، وهكذا كل حياتهم هى إنكار لنعم الله، وإيمان بالماديات، وبعد عن الغيب، حتى إنهم قتلوا أنبياء الله الذين جاءوهم يدعون إلى منهج غيبى ويطلبون نبذ الإيمان المطلق بماديات الحياة، وهنا يجب أن نفرق بين رسول ونبى، فالرسول مرسل بمنهج سماوى من الله سبحانه وتعالى وهو مؤيد من عنده والله يحفظه فلا يستطيعون الوصول إليه، ولكن النبى لا يأتى بمنهج - ولكن يأتى بقدوة سلوكية - أى إنه يأتى مطبقاً لرسالة غيره من الرسل، التطبيق السليم والصحيح، هذا النبى الذى هو قدوة سلوكية تعرض للقتل من بنى إسرائيل الذين لم يحتملوا منهج الله فى البعد عن الماديات.

وقبل أن أبدأ الحديث عن الخواطر الإيمانية حول سورة مريم، أحب أن أوضح حقيقة هامة هى أن الله سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً، يكون هذا الرسول من البشر، لماذا؟ لأن رسالة الله فى أفعل ولا تفعل، هى المنهج الذى اختاره الله سبحانه وتعالى للحياة الآمنة الطيبة على الأرض، ولكن الله لا يترك منهجه بدون تطبيق، بل هو يرسل المنهج، ويرسل من يطبقه ليكون قدوة حسنة للمؤمنين بالمنهج، وليرى الناس كلهم المنهج يطبقه على الطبيعة بشر مثلهم، فلا يقولوا يا رب إن هذا المنهج لا نستطيعه، أو إنه يا رب فوق طاقة وقدرات البشر، فيرسل الله سبحانه وتعالى بشراً رسولاً، يطبق المنهج

بحذافيره، ويراه الناس فى الحياة العملية وفى التجارب اليومية، حتى يكون هؤلاء الناس شهداء على أنفسهم يوم القيامة، ولا يقول واحد منهم إن الله قد حملنا فوق قدراتنا أو فوق ما نطيق.

إذن.. فبشرية الرسول، أمر حتمى للرسالات كلها، ولو كان الرسول فوق مستوى البشر لوجدنا عذراً لأولئك الذين لا يتبعون المنهج ويخالفونه، ولقال هؤلاء كيف تريدوننا أن نتبع منهجا وُضع لمن هم فوق مستوى البشر، هؤلاء الذين طبقوا منهج الله ليسوا بشرا مثلنا أما نحن كبشر عاديين فقدراتنا تختلف، وهى فى جميع الأحوال، أقل منهم قدرة، فإذا أردت يارب أن ترسل لنا منهجا نتبعه، فأرسل لنا بشرا رسولا يطبقه، ولا ترسل رسولا فوق قدرة البشر لأنك فى هذه الحالة تطالبنا بما فوق طاقة البشر، ومن هنا كانت حتمية الرسالات تقتضى أن يكون الرسول بشراً ليكون قدوة مساوية لقدوة المؤمنين، فيتخذوه قدوة حسنة دونما حجة بأنه يملك ما فوق الطاقات البشرية.

نعود بعد هذه المقدمة إلى الخواطر عن قصة مريم عليها السلام، وتبدأ القصة كما يرويها القرآن الكريم بامرأة عمران. ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: ٣٥].

أى: إن امرأة عمران حينما حملت، وقبل أن تلد، ولم تكن تعرف أنها ستلد ذكراً أو أنثى نذرت ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى ولعبادته، وكان هذا النذر لمحة إيمانية مؤمنة أرادت أن تهب لله ذريتها تقرباً منه.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فوجئت امرأة عمران عندما وضعت أنها لم تضع ولداً ولكنها وضعت أنثى، وفى هذه الحالة انتابتها الحيرة، فقد كانت تريد ولداً يدعو إلى منهج الله وينشأ فى عبادته، ولكنها وضعت بدلاً من ذلك أنثى، فاتجهت إلى الله سبحانه وتعالى لتقول: ﴿ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾.

أى: إن الذكر أو الولد له قدرات على المشاق من الحياة، وعلى الدعوة لدين الله لا تملكها الأنثى، ورد الله سبحانه وتعالى ليذكرها بطلاقة القدرة، فقال: يا امرأة عمران إننى أعلم بما وضعت، وأنا الذى أخلق ما فى الأرحام ولست أخلقه فقط بل أعلم كل شىء عنه من يوم مولده إلى يوم وفاته، كم عمره، وكم رزقه، هل هو شقى أم سعيد، مرزوق أو مقتر عليه فى الرزق، ماذا سيحدث له من أحداث ويصيبه من أمراض، فى كل رحلة حياته وأعلم كل صغيرة وكبيرة عما يواجهه فى الحياة، وليس هذا فقط بل إننى أخلق صورته وأعلم هذه الصورة قبل أن يعرفها أحد من العالمين، ومن هنا فإن علمى بما جاء فى الأرحام يتجاوز علم الدنيا كلها، والله سبحانه وتعالى لو شاء أن تضع امرأة عمران

ولداً لأعطاها ولداً ولكن الطلاقة الكبرى بدأت منذ اللحظة الأولى لخلق مريم فى رحم أمها فجعلها الله سبحانه وتعالى أنثى وحينئذ اتجهت أمها إلى السماوات وقالت رب: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، أى يا رب لا تجعل للشيطان كيداً ولا سيطرة على مريم ولا على ذريتها.

هنا يأتى سؤال هام، من أين عرفت امرأة عمران أن مريم ستكون لها ذرية؟ هل أنبأها الله سبحانه وتعالى بما هو قادم، أم أنه دعاء كل أم لابنتها حسب ما هو متبع، ولا أحد يعلم إذا كان الله قد أنبأ أمها بما أعده لمريم، فلم يخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه أنبأها، ولكنه فى الغالب دعاء كل أم.

هنا بدأت الخطوة الأولى لالتقاء مريم مع طلاقة القدرة، فتقبلها الله سبحانه وتعالى كنذر نُذر لله قبولاً حسناً؛ وهذا القبول غير الاصطفاء الذى سنتحدث عنه فيما هو قادم.

ولكنه الخطوة الأولى على الطريق إلى المعجزة الكبرى لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى وما يعده لبنى إسرائيل من نبى يفيقهم بطلاقة القدرة عن عبادة الأسباب والماديات ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، وذهبت مريم إلى مكان تنقطع فيه إلى العبادة وتنافس الأحبار ورجال الدين أيهم يكفلها، فقد كانت من طيب المنبت والخشوع إلى الله سبحانه وتعالى بحيث رغب كل منهم فى أن يكون له شرف كفالتها، وألقوا أقلامهم وقسم الله سبحانه وتعالى أن يكفلها زكريا، ودخلت مريم وانقطعت لعبادة الله.

كان زكريا يدخل على مريم المحراب ليحضر لها طعامها وشرابها ويطمئن عليها بينما انقطعت هى إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، ولكن زكريا فوجئ بشىء غريب؛ ذلك أنه كلما دخل على مريم وجد عندها رزقا، وأى رزق ذلك الذى وجده، رزق عجيب فاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء فى الصيف، ورزق لا ينفد مهما أكلت منه مريم، ولا يتلف أو يتعفن.

كان هذا شيئاً عجيباً أثار انتباه زكريا، وكان هذا أول اصطفاء لمريم بأن اختصها ربها بطلاقة القدرة، فأراها أنه يعطى ما يشاء لمن يشاء دونما أسباب، حتى إذا وقعت المعجزة ووضعت مريم عليها السلام عيسى بدون الأسباب البشرية، لم تهتز اهتزازا يذهب نفسها ولم تشك فى أن ما حدث ربما كان فيه خدعة، بل إنها رأت بعينها فى الاصطفاء الأول بطلاقة القدرة، ما يبرر ويسهل عليها فهم الاصطفاء الثانى على نساء العالمين، بأن تضع بدون رجل، وبدون أن يمسها إنسان، ولذلك كانت طلاقة القدرة فى رزق مريم عن غير طريق الأسباب بداية تمهيدية من الله سبحانه وتعالى، واصطفاء أول تمهيداً للاصطفاء الثانى على نساء العالمين، ولكن زكريا النبى الحريص على مريم دخل الشك إلى قلبه، ورغم علمه بأن مريم متفرغة تماماً للعبادة، وأنها لا تغادر غرفتها

وتقضى الليل والنهار فى الركوع والسجود لله، إلا أنه ببشريته أراد أن يتأكد فسألها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧] أى: من أين لك ذلك يا مريم.

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا هنا لفتة كريمة فيها صلاح الكون كله، فلو أن كل رب لأسرة، أو راع لمجموعة من الناس، عندما وجد مظهرا من النعم لا يتناسب مع القدرات البشرية، قال من أين لك هذا، لصلح الكون كله، ولأصبح كل إنسان رقيبا حقيقيا على أسرته، ولكن الذى يحدث أن الأب أو المسئول عن الأسرة، يجد من بناته وأولاده مالا يتناسب مع قدراتهم المادية، كفستان مرتفع الثمن، أو مال كثير، أو أى شىء غال لا يستطيعون شراءه، لو أنه وقف وقال من أين لكم هذا، لعرف كل واحد منهم أنه إذا انحرف، فإنه سيحاسب، ولعلم قبل أن يمد يده إلى الحرام، أن الحرام سيكشفه، ويجعله موضع مساءلة، ولكن حين يغمض الأب عينيه ويرى مع بناته وأولاده مالا يتناسب مع مدخولهم فلا يسألهم من أين لكم هذا، يشيع الفساد فى الكون، وتلك الآية ترينا مدى حرص زكريا على مريم وسلوكها، مع أنها عابدة متعبدة، منقطعة لعبادة الله سبحانه وتعالى، إلا أن ذلك لم يعفها من المساءلة من زكريا، ولم يقل زكريا لنفسه إن مريم امرأة عابدة متعبدة لا يمكن أن يأتيها هذا إلا من طريق سليم، ولكنه وضع المساءلة أولاً ليكون متأكداً مائة فى المائة من مصدر هذا الرزق، حينئذ ردت مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وكان الرد مفاجأة لزكريا، فقد التقى وجها لوجه مع طلاقة قدرة الله التى تهب ما تشاء لمن تشاء دونما اللجوء إلى الأسباب، وإنما تقول للشىء كن فيكون، وهنا ثارت فى نفس زكريا قضية قديمة، فهو ليس له ذرية وامرأته عاقر، وهو كنبى يخاف على أتباعه بعد موته أن يتفرقوا أو يضلوا، ويريد لهم سلوكية تحفظهم من بعده.

وثارت فى نفس زكريا مسألة طلاقة القدرة، فما دام الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب، فلماذا لا يدعوه ليرزقه بولد، ومادامت الأسباب لا تقيد قدرة الله سبحانه وتعالى، فإنه قادر على أن يهب زكريا ما يريد.

هنالك، وفى محراب مريم: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

رفع زكريا يده إلى السماء، وهو فى محراب مريم، وقال يا رب لقد تجلت طلاقة قدرتك فى هذا المكان فرزقت مريم فاكهة وطعاماً ليسا موجودين فى الدنيا، فبحق طلاقة القدرة هذه، هب لى ذرية طيبة واسمع دعائى، ولم تمض إلا لحظات وزكريا قائم يصلى فى المحراب عند مريم حتى نزلت الملائكة وقالت له: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

نزلت الملائكة على زكريا تبشره بالغلام، ليس بهذا فقط، بل تقول له ما هو

مستقبله وإلى ماذا سيصير، فلم تكتف الملائكة بإبلاغ زكريا بأن الله سيهب له غلاما، بل إنه سيكون سيداً ونبيًا من الصالحين، وهكذا كان الإبلاغ، فيه إعجاز، إعجاز بعلم الخالق قبل أن يخلق، وقبل أن تحمل زوجة زكريا، فقال له: إن زوجتك ستحمل، وستأتى بولد ولن أخبرك بهذا فقط، بل إن هذا الغلام سيشب ويكبر ويكون سيداً فى قومه، ونبيا من الصالحين، وهكذا نرى مدى التفسير الصحيح لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان ٣٤]، وهو ينبئ زكريا بأن امرأته ستلد ولداً، وهى قد حملت به، أو قد مضى عليها فى الحمل عدة شهور، بل قال له وأنبأه بذلك قبل أن تحمل، وقبل أن يحدث أى اتصال بين زكريا وزوجته، وأنبأه بالمستقبل الذى ينتظر هذا الطفل بعد سنوات طويلة.

هنا اهتز زكريا، اهتز من اللقاء بطلاقة القدرة، وتذكر الأسباب التى تعطى، واعتقد أنه قد فهم خطأ، فأراد أن يتأكد، فرفع يده إلى السماء مرة أخرى، وقال: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٠].

رفع زكريا يده إلى السماء وقال يارب ! لقد التبس علىّ الأمر فأنا أريد أن أتاكد أننى لم أسئ الفهم، أنا يارب رجل عجوز، وأمرأتى لا تلد، الأسباب هنا ممتنعة من الناحيتين، من ناحية زكريا الذى بلغ من الكبر عتيًا، ولم يعد بالأسباب صالحاً لإنجاب الولد، وحتى هب أن زكريا صالح لذلك فامرأته عاقر، لم تلد طوال حياتها، ولم تلد فى شبابها، فهل يا رب إذا كنت لم أستطع أن أنجب الولد فى شبابى، وإذا كانت زوجتى عاقراً لم تحمل طوال حياتها، أتأتى الآن وهى عجوز لتحمل، وآتى الآن وأنا شيخ كبير لأفعل ما عجزت عن فعله فى شبابى، هنا اهتز زكريا بالأسباب، وكان لقاؤه مع طلاقة القدرة، وكان أول لقاء له، لقاء قويًا هزه من أعماقه فاعتقد أنه قد فهم خطأ قول الملائكة أو أن هناك لبساً ما حينئذ يقول له الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٩].

وفى سورة آل عمران: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠].

هنا يذكر الله سبحانه وتعالى بحقيقتين هامتين حول طلاقة القدرة فيقول له: ﴿ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ أى ليس هناك قيود على إرادة الله سبحانه وتعالى، وإذا كانت هناك الأسباب فى الدنيا فالله هو الذى خلق الأسباب، ولا يمكن أن يكون المخلوق قيدا على الخالق، إن الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب لا تقيده هذه الأسباب وتحد من قدرته، بل إنه يفعل ما يشاء بدون أن تكون هناك فى الكون كله قدرة مانعة لهذا الفعل، أو موقفة له ولو كانت هى الأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى لنظام الحياة فى الكون. ثم يلفت الله سبحانه وتعالى زكريا إلى الحقيقة الثانية، فيقول له: إنك تتعجب مما أبلغتك الملائكة وأخبرتك به، ولكنك يجب ألا تتعجب لأن الذى تحسبه صعبا ومستحيلا هو على هين إنه أمر بسيط جدا بالنسبة لى، أنا الذى خلقت هذا الكون كله بما فيه ومن فيه، هل يستعصى

علىّ أن أخلق لك غلاماً، ذلك أمر هين وبسيط أمام قدرة الله سبحانه وتعالى وإذا كنت تتعجب من ذلك فانظر إلى نفسك حتى يزول العجب، فقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً، أوجدتك من العدم، فلماذا تتعجب أن أخلق لك ابنا، إذا كنت أنا قد أتيت بك من العدم، وخلقتك ووهبت لك الحياة، فمن السهل علىّ أن أهب لك الولد.

كانت هذه إفاقة لزكريا وهو واقف فى محراب مريم، وأول ما رآه من طلاقة قدرة الله التى جعلته بعد ذلك لا يشك فى مريم أبدا إذا وجد عندها أشياء عجيبة، بل يعلم أن طلاقة القدرة تستطيع أن تعطى بلا أسباب، بدليل أنها أعطت زكريا الولد بلا أسباب، وكان هذا من الله سبحانه وتعالى تطهيرا لمريم عليها السلام من أى شك يمكن أن يقع فى أى نفس بشرية، ذلك فى المعجزة التى تمت مع زكريا وفى المحراب عند مريم جعلته يعرف يقينا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ولا يتساءل هو أو غيره عما يكون عند مريم من رزق يهبه الله لها.

ويمضى القرآن الكريم ليروى قصة مريم عليها السلام: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عمران].

هنا نزلت الملائكة إلى مريم لتنبئها أن الله قد اصطفاها وطهرها ثم اصطفاها على نساء العالمين، الاصطفاء الأول هو بالعيش مع طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى، والله تقبل مريم عند ولادتها كنذر لله، ثم اصطفاها بأن جعلها من دون خلقه تعيش دائما مع طلاقة القدرة استعدادا لما سيحدث من ولادة المسيح عليه السلام، ثم طهرها بعد ذلك بأن منع عنها الشياطين وجعلها تتطهر بالعبادة الدائمة له والركوع والسجود لله سبحانه وتعالى، ثم حدث الاصطفاء الثانى وهو اختيارها من دون نساء العالمين كلهن أن تضع مولودا بدون أن يمسها رجل، وكان الاصطفاء الثانى هو اصطفاء لمريم بالذات ؛ ولذلك نلاحظ فى القرآن الكريم أنه حين تأتى أنباء المعجزات والقصص الإيمانية لا يذكر الله سبحانه وتعالى الاسم كاملا، لماذا؟ لأن هذه لمحات إيمانية مقصود أن يقتدى بها الناس، ولو أنهم ذُكروا بأسمائهم كاملة، لكانت هذه المعجزات خاصة بهم لا تتكرر لغيرهم، إلا مريم فكلما ذكرت فى القرآن، قال الله سبحانه وتعالى مريم ابنة عمران ؛ لأن معجزة الميلاد من أنثى بلا ذكر لن تتكرر بالنسبة لنساء العالمين كلهن إلى يوم القيامة، فهذا اصطفاء لمريم أو اختيار لها لهذه المعجزة من دون نساء العالمين. ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى لم يستخدم لفظ نساء الأرض، ولكنه استخدم لفظ نساء العالمين، أى نساء الإنس والجن، وكل مخلوقات الله لن توجد التى يتكرر لها ما حدث لمريم ممن اصطفاه الله سبحانه وتعالى به وهى معجزة الميلاد من أنثى بدون ذكر.

تم الاصطفاء الأول، ثم بعد ذلك قضت مريم سنوات فى العبادة حتى تطهرت،

والتقت بطلاقة القدرة، وألفتها فأصبح الله يرزقها بغير حساب ويطهرها ويحفظها من شياطين الإنس والجن، ثم جاء الاختيار الثانى ونزلت الملائكة على مريم لتقول لها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

كانت هذه أول بشارة لمريم ومحاولة لإعدادها لما سيتم من ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام.

وأخذت مريم بهذه البشارة، فرغم التقائها مع طلاقة القدرة، وتعودها عليها فى الرزق من الله بغير حساب، ورغم أنها قضت فترة طويلة تتعبد وتتطهر، وحفظها الله من كل الشياطين، فإن نفسها اهتزت من وقع الخبر، واتجهت إلى السماء وقالت: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧].

اتجهت هى الأخرى كما اتجه زكريا إلى الأسباب، ومع عيشها فى ظل طلاقة القدرة فى المحراب فإنها لم تستطع أن تستوعب تماما طلاقة القدرة فى الخلق، فقالت يا رب كيف ألد ولم يمسسنى بشر، لم يقربنى رجل، فكيف أضع غلاماً، وهنا جاء رد الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

لم يقل الله سبحانه وتعالى لها كيف سيتم ذلك، ذلك أن الخلق مما احتفظ الله به لنفسه لم يُطلع عليه أحداً من خلقه، حتى إن إبراهيم عليه السلام حينما سأل الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

لم يقل له الله سبحانه وتعالى كيف يحيى الموتى، ولم يطلعه على سر الحياة والموت، وإنما أدخله فى تجربة رأى فيها إحياء الموتى بقدرة الله، فجاء بالطير وقطعه ثم وضع كل جزء على جبل ثم دعاهم فجاءوا إليه أحياء، كانت هذه تجربة عملية على إحياء الموتى، ولكنها لم تكن إخبارا من الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عن سر الحياة والموت.

كذلك مريم، حين سألت الله سبحانه وتعالى: كيف سيكون لى ولد ولم يمسسنى بشر لم يعطها سر الخلق، ولكنه قال لها: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

أى: لم تتعجبين إن الله قادر على أن يخلق ما يشاء، وقد أراك طلاقة القدرة فى الرزق وسيريك طلاقة القدرة فى الاصطفاء، لم تتعجبين يا مريم، ألم يخلق الله سبحانه آدم بدون ذكر ولا أنثى، ألم يخلق حواء من ذكر بدون أنثى، فالله سبحانه وتعالى ليس لقدرته حدود، إنه قادر أن يخلق بدون ذكر أو أنثى كخلق آدم، وقادر أن يخلق بدون أنثى كخلق حواء، وقادر أن يخلق من أنثى بدون ذكر كعيسى ابن مريم، وقادر أن يخلق من ذكر وأنثى وهو خلق الأسباب، إذن.. فلا عجب هنا لأن الله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء وإذا أراد أمراً فإنه لا يلجأ إلى الأسباب، وإنما بطلاقة قدرته يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، إذن.. فلا تتعجبى مما بشرتك به الملائكة، لأن الله قادر على أن يخلق عيسى بدون أن يمسّك بشر.

جاء الملك المكلف بالمهمة إلى مريم، فظهر لها على هيئة بشر، قد يقول بعض الناس ما دامت الملائكة قد بشرت مريم بالغلام، وما دام الله سبحانه وتعالى قد لفتها إلى طلاقة القدرة فى أنه يقول للشيء: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾، فلماذا جاء الملك إلى مريم وتمثل لها فى صورة إنسان؟ نقول: إن فى ذلك حكمة كبرى، إن الملك لم يأت إلى مريم ولم يتمثل لها فى صورة إنسان، ويقول لها أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا، ثم يختفى فجأة بدون أن يمسها، لو لم يحدث ذلك لربما دخل الشك إلى قلب مريم، واعتقدت أن بشراً قد مسها بأن خدرها وهى نائمة، وعلى العموم لم يكن الأمر يدخل يقينا إلى نفسها، ولكن كون الملك جاء، وكونه تمثل لها بشراً سويًا، وكونه قال لها: أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا، وكونه اختفى بدون أن يمسها، أدخل اليقين فى قلب مريم فى أن ما حدث لها هو من طلاقة قدرة الله وليس لبشر دخل فيه، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت فؤادها مرة أخرى بعد أن اهتزت نفسها، من تبشير الملائكة لها، وتعجبت أن تلد بدون أن يمسها ذكر، وهنا ومع هذا التثبيت من الله سبحانه وتعالى لمريم، لأنها تجربة سيكذبها فيها اليهود، ولو لم تكن على يقين مما حدث، وأنه من طلاقة قدرة الله فإن نفسها قد تهتز وتضعف، ذلك لأنه أمر غير مألوف فى تاريخ البشر كلهم، وأنه يصطدم بأسباب العقل وأنه لا يتمشى مع المنطق البشرى، ومن هنا كان لابد من تثبيت مريم تثبيت اليقين، حتى لا تهتز نفسها أبداً لما سيقابلها من أهلها وعشيرتها من إنكار وعدم تصديق لما حدث وكان لابد أن تكون مريم على يقين كامل من أن مشيئة الله سبحانه وتعالى هى التى أعطتها عيسى عليه السلام، ومن هنا كان التثبيت بالتعرف على طلاقة القدرة، فى أمور مادية محسة كالرزق، ثم التطهير بالعبادة حتى تشف النفس البشرية، وتستطيع أن ترى مالا يراه غيرها، ثم الإخبار من الملائكة، ثم بعد ذلك باليقين من الروح أو الملك الذى أرسله الله لها على صورة إنسان، والذى اختفى من أمامها بدون أن يمسها، ومع ذلك قالت مريم: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠].

وعادت مريم إلى الأسباب مرة أخرى، فرد الله: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢١].

هنا حسم الله سبحانه وتعالى المسألة مع مريم تماما فى رده عليها هذه المرة فقال إن ذلك علىَّ هين وبسيط أن أهبك غلاماً بدون بشر، وسيكون هذا الغلام آية للناس ؛ أى معجزة من الله سبحانه وتعالى لخلقه يفيقهم من الماديات التى عبدوها من دون الله، ورحمة منا أى إنه سيكون رحمة لمن يتبعه يقودهم إلى الطريق، ويرشدهم إلى المنهج، ويكون قدوة لهم، وينقذهم من ضلال بنى إسرائيل وماديتهم ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ هنا الحسم، أى: إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يقول لمريم إن هذا الأمر قد قضى وانتهى، ولم يعد لك خيار فيه، وأنه بعد هذا الإعداد كله لابد أن يدل اليقين قلبك على أن الله

سبحانه وتعالى يقول للشئ: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ فيما يريد أن يفعله ولقد قضى الأمر وانتهى ولم يعد موضع أخذ ورد، وحملت مريم بطلاقة القدرة، وذهبت إلى مكان بعيد عن الناس، فقد كانت تخشى أن تواجههم، فهى تعلم يقينا أن هذا آية من آيات الله.. ولكن ماذا ستقول لهم، وكيف تشرح لهم طلاقة القدرة، وهم لا يعرفون عنها شيئاً، إن بنى إسرائيل أناس ماديون، والمادة تُبعد الشفافية عن الجسم وتجعله معتما، لا يرى إلا ما هو مادى صرف معزول تماما عن الغيبيات، فكيف ستأتى إلى هؤلاء القوم، لتقول لهم كلاما عن طلاقة قدرة الله، وكيف سيصدقونه وهم على غير علم.

كان هذا هو الذى يخيف مريم عليها السلام، وهو الذى جعلها تبتعد عن الناس إلى مكان قصى بعيد تضع فيه طفلها ؛ لأنها لم تكن تستطيع أن تواجه وحدها قوما لا يعلمون شيئاً عن طلاقة القدرة، بمعجزة من معجزات طلاقة القدرة، مريم نفسها كانت على يقين مما حدث، وبعد الآيات البينات التى أراها لها الله سبحانه وتعالى، وتبشير الملائكة لها، ثم الملك الذى ظهر ليجعلها تتأكد يقينا أنه لم يمسها بشر، ثم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾، كل ذلك قد جعل مريم لا تهتز ولا تظن بنفسها السوء، بل هى على يقين من المعجزة، ولكن ماذا تقول للناس، وكيف تفسر لهم ما حدث، وكيف تجعلهم يصدقون؟

ولكن الله سبحانه لم يكن غافلاً عن هذا، كان يعلم هذا كله، وهو العليم بخلقه وكان يعرف أن مريم إذا واجهت بنى إسرائيل وقالت لهم إنها طلاقة قدرة الله فلن يصدقوها ولن يستمعوا إليها، وسيفترون عليها مختلف الافتراءات، حينئذ جاء الحل من السماء قال لها الله سبحانه وتعالى: أنت لن تتكلمى يا مريم ولا أريد لك أن تتكلمى، ذلك أنك مهما قلت فإن كلامك قد يؤخذ وينسج عليه افتراءات ضدك، ولكن الذى سيتكلم هو هذا الطفل الرضيع الذى يبلغ ساعات فقط، سأجعله ينطق أمامهم لأريهم طلاقة القدرة فإذا ما رأوا آمنوا، لا يوجد طفل فى العالم يتكلم بعد ولادته بساعات، ولا يستطيع لفترة قد تزيد إلى العام، ولكنى سأجعل عيسى ابن مريم يتكلم بعد ولادته بساعات، لماذا؟ لمجرد الإعجاز، لا، فالله سبحانه وتعالى أعلى وأكبر من أن يريد شهادة من خلقه على إعجازه، أو أن يريد شهادة من خلقه على أى شىء، ولكن حتى إذا كذبوا بطلاقة القدرة التى فعلت كل هذا وجاءت بعيسى ابن مريم، أريهم طلاقة القدرة على الطفل الصغير علها تفيقهم من غيهم وتجعلهم يُحسون أنه من الجرم والإثم الكبير الافتراء على مريم.

ومن هنا فإن عيسى ابن مريم تكلم ساعة ولادته، بل انظر إلى دقة تعبير القرآن الكريم: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤].

أى: إن عيسى ابن مريم عليه السلام تكلم لحظة ولادته وعمره دقائق فقط، وقبل

أن تمتد يد أمه لتلتقطه من تحتها، لا تحزنى فقد جعل الله تحتك نوراً منه يهدى إلى الحق.

وكان قول عيسى عليه السلام ردا على مريم التى كانت تفكر، كيف ستلاقي قومها به وماذا ستقول لهم، وكان الموقف بالنسبة لها عصيبا، حتى إنها قالت: ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣]، وهى فى لحظة تمنيها الموت لأنها تعرف ما ستقابله من بنى إسرائيل، وكيف سيقابلونها بالنكران والافتراءات، والموقف العصيب الذى ستمر به، وهى فى قمة هذا، تكلم عيسى ابن مريم وقال لأمه: ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤]. ثم نبهها الطفل الذى ولد منذ دقائق فقط أنها فى حاجة إلى الطعام والشراب، لتقوى وتشتد وتستطيع أن تواجه ما هو قادم، فقال لها: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا . . . ۝ ﴾ [مريم] ثم جاءت الآية الكبرى من الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦].

هكذا قال عيسى ابن مريم لأمه مؤيداً بروح القدس، ومؤيداً بنور من الله سبحانه وتعالى، قال لها: إن أحداً لا يطلب منك أن تتكلمى فمهما قلت فى هذه الحالة فلن يفيد ولن يقنع أحداً، ذلك أنهم معزولون عن طلاقة القدرة، وقد جئت لهم لأخرجهم بطلاقة القدرة من المادة التى يعبدونها، فمهما قلت يا مريم فقولك لن يقنع أحداً، وفى مثل هذه الحالة قول الأم لا يفيد، فاصمتى أنت تماماً، وقولى: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾، أى قررت أن أصوم لله تعالى، فكان الصوم عن الكلام، قولي لهم إننى لن أكلم إنسانا اليوم لأننى صائمة عن الكلام، ولكن الذى سيكلمكم، ويناقشكم، ويرد على حججكم، هو هذا الطفل الذى عمره ساعات، إنه هو الذى سيرد ليكون دليلاً ماديًا ملموساً أمامكم على طلاقة قدرة الله التى جاءت به، وما دمتم لا تعبدون إلا المادة ولا تثقون إلا فى الماديات فقد اختار الله سبحانه وتعالى لكم معجزة من جنس ما تثقون به، ليرد كيدكم، ويكون آية من الله لكم لا تستطيعون إنكارها، ولا تقدرون على إخفائها.

عند هذه النقطة اطمأن قلب مريم. وعرفت أن الله سبحانه وتعالى الذى اصطفاها على نساء العالمين لن يتركها، وأنه سيرسل معها من يدل على صدقها وطهرها، وأن هذا الطفل الصغير الضعيف سيكون الدليل على قدرة وعظمة الله سبحانه وتعالى وعلى صدق مريم.

حين أطمأنت مريم عليها السلام إلى أن الله سبحانه وتعالى سيرسل معها الدليل المادى الذى لا يحمل الشك على صدقها، اطمأن قلبها، وحملت ابنها وذهبت إلى قومها ويقول القرآن الكريم: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ ﴾ [مريم].

وهكذا نجد أن المواجهة التى توقعتها مريم قد حدثت، وأن بنى إسرائيل قد واجهوا مريم بالسوء قبل أن يسمعوا منها كلمة واحدة، وهم كقوم ماديين عبدوا الأسباب، لم ينتظروا حتى تتكلم مريم لتروى لهم ماحدث وهو المنطق الطبيعى فى هذه الأشياء، فقد كان من الممكن أن يسألوها عن هذا الطفل، ربما ليس طفلها، ربما وجدته فى مكان يواجه خطراً فجاءت به، وربما ماتت أمه وهى تلده فحملته مريم إلى قومها، ولكن كل هذه الافتراضات التى تحتم الأخذ بحسن النية أولاً لم ترد على خاطر بنى إسرائيل، بل افترضوا السوء من أول وهلة وأخذوا يعيرونها وأنها ارتكبت إثماً كبيراً، ويَذكُرونها بطيب أصلها وصلاح أبويها وأخيها هارون، وكيف أن هذا الصلاح والتقوى كان يجب أن ينتقل إليها وأن تكون هى قدوة سلوكية حسنة، واتهموا قبل أن يسألوا وقبل أن يعرفوا الحقيقة، وفى هذا يبين لنا القرآن الكريم سوء أخلاقيات بنى إسرائيل وإسراعهم إلى الظن بالسوء والافتراء فى الاتهام، وكيف أنهم وقد عصوا الله وقتلوا أنبياءهم، إنما ذلك عن خلق سيئ لا يعرف للعمل الطيب مكانا.

حينئذ ماذا فعلت مريم، أشارت إلى عيسى عليه السلام وهى تحمله، فبهت القوم لأنهم لم يتوقعوا منها ذلك، كانوا يتوقعون أن تتحدث هى معهم، أو أن تقول لهم شيئاً يبرئها أو تحاول تبرير ما حدث، ذلك كان ظنهم، ولكنهم فوجئوا بها وهى تشير إلى الطفل الصغير، ولم يفهموا لأن طلاقة القدرة غابت عنهم وهم لا يتعاملون إلا بالأسباب، فأبدوا عجبهم مما فعلته مريم فقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، أى يا مريم أنت تستخفين بعقولنا فهذا طفل صغير عمره ساعات، أو يوم أو بعض يوم، فكيف تطلبين منا أن نتحدث معه، وهل ينطق مثل هذا الطفل، إن الأسباب كلها تقول: لا، إنه عاجز عن النطق.

ولكن الله سبحانه وتعالى أنطق عيسى ابن مريم، أنطقه وهو طفل صغير، أنطقه ليثبت لهم طلاقة القدرة، وأن الله سبحانه وتعالى الذى لا يجعل طفلاً ينطق إلا بعد عام أو أكثر من عام من عمره، يستطيع أن يجعل طفلاً عمره يوم أو بعض يوم يتحدث، ولا يجعله يتحدث حديث الأطفال، بل يجعله يتحدث حديث الرجال راجحى العقل والمنطق وأن يناقش ويرد بالحجة عليهم، وأن يكلمهم وكأنه قد بلغ مبلغ الرجولة، وعقل كل شىء.

لماذا وقعت هذه المعجزة؟ ولماذا أتمها الله سبحانه وتعالى؟ ليجعل هؤلاء القوم الماديين يوقنون بما حدث لمريم، فلو أنها رزقت بطفل عن طريق عادى كما تلد النساء لما استطاع هذا الطفل أن يتكلم أو ينطق حرفاً واحداً، وحتى ولو كانوا قد انتظروا عليه حتى يكبر ليتعلم النطق، لكان حديثه حديث الأطفال، فيه سذاجتهم وافتقارهم إلى المنطق والحجة والفهم، ولكن كون عيسى ابن مريم نطق بعد ولادته بيوم أو بعض يوم فإن ذلك

معناه يقينا أن ذلك الطفل لم يأت بالطريق العادى وهو الذكر والأنثى، ولكن معجزة كلامه تدل على طلاقة القدرة فى مولده، وأن مريم لم يمسها بشر، وإنما عيسى ابن مريم جاء بكلمة «كن»، وإلا إذا كانت مريم قد مسها أى بشر لجاءت بطفل عادى مما تلد النساء كان يجب على بنى إسرائيل أن يفيقوا ساعة نطق عيسى ابن مريم، وأن يعلموا أنهم أمام معجزة خارقة لله سبحانه، وأن يؤمنوا بكل ما تقوله مريم، ويؤمنوا بعيسى رسولاً ونبيًا.

ماذا قال عيسى ابن مريم، كان أول ما قاله: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ [مريم: ٣٠]، أى: إن أول ما بَشّر به هو رسالته، قال إنى عبد الله حتى لا يُفتتن الناس بمولده، فيُحمّلوا الأشياء أكثر مما تحتمل، فحسم الموقف بأنه عبد من عباد الله وبشر ورسول، ثم بعد ذلك قال: ﴿ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٣٠]، أى جعل لى كتاباً سأبلغه إليكم، ورسالة من السماء لكم، وهكذا كانت أولى معجزات عيسى عليه السلام فى أول كلمات نطقها فقد أبلغهم بالمستقبل وهو مازال فى المهد صبيًا، فقال لهم إنى قد جئتكم بكتاب الله سبحانه وتعالى، لأهديكم إلى صراطه المستقيم، والله جعلنى لكم نبيًا، وفوق ذلك آتانى الحكمة، وأنتم ترون هذه الحكمة، وأنا أتحدث إليكم، فليس حديثى هذا حديث طفل رضيع، ولكنه حديث رجل أوتى الحكمة يستطيع أن يجادلكم فيما تقولون، وكانت هذه المعجزة الثانية بطلاقة القدرة، إنباء بغيب قادم ونبوة ورسالة، ومازال عيسى ابن مريم فى المهد صبيًا، وأنبأ بأنه وهو رضيع لم يعط نعمة الكلام فقط من الله سبحانه وتعالى، بل أعطى نعمة الحكمة أيضاً، ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣١].

ومضى عيسى ابن مريم فى كلامه ليقول إن الله سبحانه وتعالى قد أحاطنى ببركته أينما كنت، فما من مكان أذهب إليه، إلا حلت فيه البركة.. وملأه الرزق، كما أوصانى الله سبحانه وتعالى أن أعبده حق عبادته مادمت حيا، والعبادة واجبة على الإنسان فى فترة الحياة التى تتصل فيها الروح بالمادة، تلك الفترة التى يكون فيها الإنسان مختاراً أن يفعل أو لا يفعل، أن يعبد الله أو يعصيه، فقبل الحياة، وبعد الموت، لا يكون هناك اختيار، بل هو قهر، والله سبحانه وتعالى قال فى قرآنه الكريم: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٧٠]، أى إن القرآن الكريم للأحياء وليس للأموات، ولا يستطيع واحد عصى الله فى حياته الدنيوية أن يقول بعد أن يموت إننى سأعبد الله حق عبادته بعد الموت ليكفر عنى ما فعلته وارتكبته من معاص، فبعد الموت ينقطع عمل ابن آدم، ويعرف جزاءه أو مصيره، بل إنه فى ساعة «الغرغرة»، وهى ساعة خروج الروح من الجسد، تُعرض أعمال ابن آدم عليه، فإن كانت طيبة انفرج وجهه وظهر السرور عليه، وعندما تنظر إليه بعد الموت، تقول إن نهايته أو خاتمته كانت طيبة، وإن كان عمله سيئاً، انقبضت أساريره واكفهر وجهه، وحاول أن ينطق بالشهادتين فخانه لسانه، وفى هذه اللحظة يعرف أن مصيره هو

النار، والذى يصل إلى حالة «الغرغرة» يعرف يقيناً أنه ميت، ويبدأ أولى دقائق حياته فى العالم الآخر وهكذا جاء قول عيسى ابن مريم مؤكداً أنه كنبى لم يُعف من التكليف، فقد طلب منه الله سبحانه وتعالى وأوصاه بأن يعبده حق عبادته مادام حيًا.

ويمضى عيسى ابن مريم، ليكمل ما أوصاه الله به فيقول: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢] ولم يقل: وبرًا بوالدىّ، وهذه تأتى لتؤكد لبنى إسرائيل مرة أخرى معجزة الله سبحانه وتعالى فى مريم عليها السلام، فلو أن عيسى جاء من ذكر وأنثى، لقال: وبَرًا بوالدىّ.. ولكنه قال: وبَرًا بوالدتى ليكون شاهد صدق على طريقة خلقه، وأنه لم يأت من ذكر وأنثى، بل أتى بطلاقة القدرة من مريم عليها السلام بدون أن يمسسها رجل.

هنا يجب أن يكون لنا وقفة، لقد أتت مريم قومها وهى تحمل عيسى عليه السلام ونطق عيسى وهو فى المهد، وكانت هذه معجزة كافية لتُقنع بنى إسرائيل بأن ما حدث ليس شيئاً عاديا، ولا تنطبق عليه أسباب الدنيا التى يعرفها الناس، ولكن الله سبحانه وتعالى يعرف عناد بنى إسرائيل، ومكابرتهم فى الحق، وإمعانهم فى الباطل، ولذلك فقد أراد أن يأتى بأكثر من آية، تأكيداً لصدق مريم عليها السلام فى كل ما يقول، ولم يجعل الطفل ينطق فقط، ولكنه جعله يؤكد لهؤلاء القوم بأنه جاء من امرأة بدون أن يمسسها رجل ويؤكد لهم هذا بكلامه هو، وهو رسول ونبى، مؤيد من الله بمعجزة منذ لحظة ولادته ومُبلّغ عن الله سبحانه وتعالى برسالة ومنهج، ومن هنا فإنه صادق أمين فيما يقوله، فإذا قال وبَرًا بوالدتى ولم يقل وبرًا بوالدىّ، فإن ذلك معناه صدق معجزة مريم، وهكذا يسوق الله سبحانه وتعالى الدليل تلو الدليل لبنى إسرائيل على طلاقة القدرة، وصدق رسالة عيسى عليه السلام، ورغم ذلك فقد كابروا ولم يؤمنوا.

ويمضى عيسى عليه السلام ليقول: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، أى إننى لم آت إليكم كجبار يفسد فى الأرض ويقهر الناس ويجبرهم على الأشياء، وينشر الرعب وسفك الدماء، بل جئتكم رحمة من الله سبحانه وتعالى، رحمة منه لأعيدكم إلى المنهج الذى تركتموه واتخذتموه وراءكم ظهريًا؛ أى وضعتموه وراء ظهوركم حتى لا تلتفتوا إليه ولا ترجعوا إليه أبدا، وجئتكم كرحمة لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم، وفى هذا رحمة من الله وفضل، إنه يرفع العنت عنكم، ويزيل عنكم بعض المشاق التى فرضت عليكم بعصيانكم للمنهج ولأوامر الله، أنا قد جئت لأرفع عنكم كل هذا برحمة من الله سبحانه وتعالى، فكأننى رحمة فى أن أعيدكم إلى المنهج، لتعودوا إلى الطريق السوى وأجنبكم عذابه وغضبه، وجئت إليكم لأيسر لكم حياتكم فأحل لكم بعض ما حرم عليكم وجئتكم برحمة أخرى، هى أننى أخرجكم من الماديات التى غرقتم فيها، وألفتكم إلى الغيب وإلى الله سبحانه وتعالى، علّكم ترعون الله وتهتدون، وتعرفون أنه بجانب ماديات الدنيا، هناك الغيب والروح، وهناك غير المادة التى تعبدونها وتتخذونها إلها،

هناك اللّه سبحانه وتعالى الذى بقدرته يستطيع أن يحقق لكم كل ما تريدون، فلا تتخذوا منهج اللّه وراء ظهوركم وتنبذوه، وتعبدوا مادة الدنيا وحدها.

لم يجعلنى اللّه جباراً، ولكنه سبحانه وتعالى جعلنى رحمة، ولم يجعلنى شقيًا محكوماً عليه بالشقاء والعذاب، بل جعلنى مرضيًا عنه منه، أى إن اللّه قد رضى عنى فى الدنيا والآخرة، ولم يجعلنى فى زمرة الأشقياء الذين يشقون بغضب اللّه فى الحياة الدنيا وعذابه فى الآخرة.

ثم يمضى عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٣]، وهذه الآية تحمل معانى عميقة.. فما من شىء أحدث جدلاً فى الدنيا مثل ثلاثة أشياء: يوم ولادته وطريقة هذا المولد، ويوم وفاته ورفعه إلى السماء ويوم يبعث حيا؛ أى بعثه فى آخر الزمان ليهدى الناس، أو بعثه يوم القيامة، وهذه النقاط الثلاث ما زالت موضع جدل كبير حتى يومنا هذا، وستظل كذلك حتى قيام الساعة فمازال مولد عيسى ابن مريم موضع جدل بين اليهود والنصارى، ومازال كل فريق منهما يتحدث عن المولد بطريقة تختلف عن طريقة الفريق الآخر، ما زالت النظريات الفلسفية تقوم، والفلاسفة الذين يكتبون عن الدين يحاولون وضع الروايات المختلفة والنظريات الفلسفية المتناقضة عن مولد المسيح عليه السلام، ورغم أن القرآن الكريم قد حسم الموقف تماماً، وروى عن اللّه سبحانه وتعالى قول الحق الذى فيه يختلفون، إلا أنه مازالت هناك فلسفات تقوم ونظريات بعد نظريات، ولقد كان يكفى ما أراه اللّه لعباده من طلاقة القدرة فى مولد المسيح عليه السلام، وحديثه وهو طفل، والمعجزات التى أيده بها، فقد كان جبريل لا يفارق عيسى عليه السلام ليثبته أمام الجدل والاتهام اللذين واجهه بهما بنو إسرائيل، ولكن رغم كل هذه المعجزات والتحضير الإلهى لمولد عيسى، واللفتة إلى الروحانيات، أو إلى الغيب وطلاقة القدرة التى جاء بها عيسى عليه السلام، فإن الجدل مازال يثور، ولكم أن تطلعوا على الكتب التى تصدر حتى فى هذه الأيام فتجدوا أنها تحمل صورة هذا الجدل، ودليلاً يهدمه دليل، ولكن رغم هذا الجدل فإن عيسى عليه السلام أعطى السلام والأمن من اللّه يوم مولده وبرّأه اللّه تعالى من كل جدل يحدث بعد ذلك.

ويدور الجدل حول وفاة عيسى عليه السلام والقرآن الكريم يقول لنا: إن عيسى لم يصلب وإن اللّه قد رفعه اليه، ولا شك إن مسألة الرفع إلى السماء يجب ألا نتوقف عندها، ذلك لأن عيسى عليه السلام من مولده إلى وفاته مؤيد بقدرة اللّه سبحانه وتعالى، وإذا كان ميلاده معجزة، وحديثه وهو طفل معجزة، والأشياء التى قام بها وهو نبى والتى سنتناولها معجزات، وكلها مؤيدة بطلاقة قدرة اللّه سبحانه وتعالى، لا تخضع لأسباب الكون فلماذا نريد أن نخرج عن هذا كله فى رفعه إلى السماء؟ ولماذا نصدق طلاقة القدرة فى مولده ومعجزاته؟ ثم بعد ذلك نأتى إلى وفاته ورفعه إلى السماء ونجادل فى الأسباب؟

ما دامت الرسالة كلها مؤيدة بطلاقة القدرة، فيجب أن نأخذ كل الأحداث فيها بمنطق طلاقة قدرة الله، وليس بمنطق الأسباب، فلا نطبق على جزء من حياة عيسى عليه السلام طلاقة القدرة، وعلى جزء آخر منها الأسباب، وإلا نكون قد ناقضنا أنفسنا، وهدمنا المنطق، بل إننا يجب أن نأخذ رسالة عيسى منذ مولده حتى رفعه إلى السماء بطلاقة القدرة وحدها التى تقول للشيء: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ ولا نأخذها بالأسباب والمسببات التى نعرفها.

لماذا الجدل عن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بالجسد أو الروح؟ فلقد حدثت هذه المعجزة لرسولنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام وأسرى به الله بالروح والجسد إلى سدرة المنتهى، ثم أعاده إلى الأرض مرة أخرى، وهذا ثابت ويقينى مما أخبرنا به القرآن الكريم صدقا من الله سبحانه وتعالى، فهل تقف طلاقة قدرة الله عن أن يرفع عيسى إلى السماء بالجسد، إن الذى يؤمن بطلاقة القدرة يعلم يقينا أنه لا شيء يستطيع أن يحدها، لا قيود ولا حدود على قدرة الله سبحانه وتعالى، ولا أسباب ولا مسببات، ومادام الفعل قد نسب إلى الله سبحانه وتعالى فهو الذى عرج إلى السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم وهو الذى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، فإن العمل يجب أن يُنسب إلى قدرة الفاعل الذى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] فإذا كان الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، يكون الفعل بلا قيود ولا زمان ولا مكان، ويكون مُصدّقا؛ لأن الفاعل هو الله الذى خلق كل شيء والذى يقول للشيء: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾.

إذن.. فلا محل للجدل هنا، لأن الجدل يمكن أن يثار إذا كان الفاعل إنسانا، أو محدود القدرة، ولكن إذا كان الفاعل هو الله فلا جدال، أما بقاء عيسى عليه السلام ليبعث فى آخر الزمان أو يوم القيامة فلا يثير جدلاً هو الآخر، ذلك أنه فى الحالة الأولى، فإن الفرق بين معجزة محمد عليه الصلاة السلام ومعجزة عيسى هو فرق الزمن الأرضى أو الوقت فمحمد عليه الصلاة السلام عرج إلى السماء ثم أعيد إلى الأرض فى فترة زمنية قصيرة وعيسى عليه السلام سيأخذ فترة زمنية أطول ولا زمن عند الله سبحانه وتعالى.

على أننا فى كل هذا، أعود فأكرر مرة أخرى يجب أن ننسب الفعل إلى الفاعل، وإذا كنا فى الأشياء الأرضية ننسب الفعل إلى الفاعل، فحفل يقيمه وزير أو حاكم لا نتقبله بعقولنا كما نتقبل بالمقاييس نفسها حفلاً يقيمه رجل فقير بسيط، فإذا قيل لى إن حاكماً أو وزيراً قد أقام حفلاً، وإن رجلاً بسيطاً قد أقام حفلاً، فإننى بعقلى من دون أن يخبرنى أحد أعرف أنه يجب أن ينسب الفعل إلى الفاعل، فأعرف أن الحفل الذى يقيمه الوزير أو الحاكم يقام فى مكان فاخر، يحضره عدد كبير من الناس وعلية القوم، بينما حفل الرجل الفقير يقام فى مكان بسيط ويحضره عدد قليل من عباد الله البسطاء، إذن.. ففى الحالتين قد نسبت الفعل إلى الفاعل، وفرقت فرقاً هائلاً بين إمكانيات الفاعل فى حدث واحد وهو

الحفل، وإذا كانت هذه هى المقاييس فإننا يجب أن نفرق بين قدرة الفاعل وهو الله، وبين قدرة البشر، وأن ننسب الحدث لقدرة فاعله الذى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾.

على أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا فى كتابه العزيز أن هذه المسائل الثلاث: مولد عيسى ورفعه إلى السماء وبعثه ؛ ستكون مثار جدل حتى قيام الساعة، وأن الله سبحانه قد بَرّأ عيسى عليه السلام من هذا الجدل، ومن كل ما قيل ويقال بعد رفعه إلى السماء.

على أننا حين نتحدث عن معجزات عيسى عليه السلام، فيجب أن نلاحظ شيئاً هامًا هو أن الله سبحانه وتعالى فرّق بين هذه المعجزات رغم أن عيسى عليه السلام رسول مؤيد من الله، فقال الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى: ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

نلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين المعجزات، فجعل بعضها تتبعه عبارة ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، والبعض الآخر لم يذكر فيه شيئاً عن هذه العبارة، ورغم أن عيسى عليه السلام رسول مؤيد من ربه بالمعجزات، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد فرّق بين المعجزات التى هى بإذنه والمعجزات التى أيد بها رسوله، فمعجزة الخلق وإن عيسى عليه السلام يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيراً، ذكر الله سبحانه وتعالى أن الحياة تدب فى هذا الطير بإذن الله ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد احتفظ بسر خلق الحياة لنفسه ولم يعطه لعبد من عباده، ومن هنا كان لزاماً أن تأتى كلمة: ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بمعنى أن الخلق يتم لا بمعجزة ذاتية ولكن بإذن الله تعالى، ثم تمضى السورة الكريمة: ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، ذلك أن الشافى هو الله سبحانه وتعالى ولا شافى غيره، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠] كما أن إحياء الموتى هو بإذن الله سبحانه وتعالى الذى يحيى ويميت، وهكذا كانت هذه المعجزات إعلانا من الله سبحانه وتعالى بأنه هو الفاعل وحده، لا يشرك أحداً معه فى ذلك إنه إذا كانت هذه المعجزات قد تمت على يد رسول فإنها تتم بإذن الله فإنه هو الذى يحيى ويميت وهو الذى يشفى من المرض.

ثم تأتى بعد ذلك المعجزات الأخرى: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران: ٤٩] تلك آية من الله سبحانه وتعالى إلى عيسى عليه السلام مكّنه الله منها فاستطاع أن يقوم بها بذاتيته، وهى وإن كانت تأييداً من الله، إلا أنها تأييد لرسوله، كدليل على صدق الرسالة، وأن الله سبحانه وتعالى لم يحتفظ بسر هذه الأشياء لنفسه، بل أطْلَع عليه عيسى عليه السلام ومكّنه منها، ومن هنا فإن هناك معجزات احتفظ الله بسرها لنفسه

ومكن عيسى من القيام بها، ومعجزات أطلع الله عيسى عليها السلام على سرها ومكنه منها، وسر الخلق والموت وإحياء الموتى احتفظ به الله لنفسه ولم يطلع رسولاً من رسله على الكيفية التى يتم بها ذلك.

على أنه رغم طلاقة القدرة التى لازمت عيسى منذ ساعة مولده حتى رَفْعه إلى السماء تلك الطلاقة التى أعطته من ساعة ولادته حتى ساعة رفعه إلى السماء معجزات بينات.. فإن ذلك لم يقنع بنى إسرائيل، ولم يجعلهم يؤمنون به، بل على العكس جعلهم يتمسكون بالماديات وهم يرون الغيبيات وطلاقة القدرة، وبدأوا يتآمرون عليه ويكذبون رسالته، وكلما جاءهم بمعجزة أنكروها ولم يلتفتوا إليها، ذلك هو طبع بنى إسرائيل، فقد جاءهم موسى بمعجزات لا تعد ولا تحصى، وكلما حدثت أمامهم معجزة، بقوا فترة وجيزة على الإيمان.. ثم عادوا إلى الكفر مرة أخرى، ولم تجعلهم كل المعجزات يبتعدون عن الماديات ويتجهون إلى الله سبحانه وتعالى، بل كان ولاؤهم دائما للذهب والمال حتى يومنا هذا، ولقد لعنهم الله بكفرهم.

وأحس عيسى عليه السلام بعد كل ما أراه لهم رؤيا العين، ويقين المشاهدة، أنهم لم يؤمنوا، وأحس أنهم يبتعدون عن الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٣].

أى: إن عيسى عليه السلام حين أحسّ من هؤلاء اليهود بكفرهم وعنادهم، وعدم طاعتهم أو اقتناعهم رغم كل ما أرسله الله على يديه من آيات بينات، أحس عيسى منهم الكفر، فبدأ يبحث عن رجال أمناء مؤمنين، يبلغون رسالته من بعده ويحملون منهج الله إلى عباد الله فى الأرض، كان ذلك يقيناً من عيسى عليه السلام أن بنى إسرائيل لن يؤمنوا له رغم كل البينات التى جاء بها، ورغم أنه قد جاء إليهم رحمة من الله سبحانه وتعالى ليحل لهم بعض ما حرم عليهم، ليدلهم على منهج الله وينجيهم من عذاب أليم، ورغم كل هذا الذى يعتبر فى مصلحة بنى إسرائيل، فقد أحس عيسى منهم الكفر وعدم الإيمان، فبدأ يلتجئ إلى الحواريين ومريديه ليلقنهم الرسالة الصحيحة، ويخبرهم بما أنزله الله عليه؛ حتى يكونوا من بعده دعاة مخلصين لهذا الدين الذى كان واثقا أن بنى إسرائيل سيحاولون تشويهه ومحاربته ونشر الأكاذيب عن رسالته، ولقد قام الحواريون بتلقى منهج الله ثم نقلوه بعد ذلك إلى أقطار الأرض.

وهكذا كان عيسى عليه السلام حريصا فى حياته على أن يبلغ الرسالة التى كلفه الله بها فلما لم يفلح مع بنى إسرائيل اتجه إلى تلاميذه وحوارييه، وأعطاهم التعاليم التى نزلت عليه من السماء، وأخذ عهدا منهم أن يقوموا بإبلاغها إلى الناس حتى يُفوت على بنى إسرائيل فرصة القضاء على هذا الدين وهو ما كانوا يُبيّتونه وأحسه عيسى عليه السلام فى حياته.

إلى هنا، وأتوقف عن خواطرى حول سورة مريم، وعيسى ابن مريم عليهما السلام، ولقد كانت رسالة عيسى عليه السلام تجسيدا لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى ؛ فطلاقة القدرة جاءت من أول الرسالة إلى آخرها، فعندما نذرت امرأة عمران ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى، جعلها الله تلد أنثى، ولما أحست امرأة عمران أن الذكر ليس كالأنثى، ورفعت يديها إلى السماء معلنة ذلك، قال لها الله سبحانه وتعالى إنه أعلم بما وضعت، ثم بدأ اصطفاء مريم بكشف طلاقة القدرة لها على أشياء مادية من الرزق الذى يعطيه لها الله وهى فى المحراب تتعبد، وشاء الله سبحانه وتعالى أن يرى زكريا طلاقة القدرة عندما سأل مريم من أين لك هذا، ورزقه بابن وهو رجل عجوز وامرأته عاقر، ثم طهر الله سبحانه وتعالى مريم بالعبادة له والسجود إليه والتقرب منه ثم اصطفاها مرة أخرى على نساء العالمين لتكون هى الأنثى الوحيدة فى سائر مخلوقات الله من الإنس والجن وكل ما خلقه الله لتضع مولودا بدون ذكر ؛ ولذلك كان الاصطفاء الثانى مقروناً بذكر اسم مريم مميزاً فى القرآن الكريم ففى كل آيات القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾ [التحريم: ١٢] و ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [مريم: ٣٤]، ولا يأتى ذكرها ولا ذكر ابنها إلاّ بالاسم الأول وهو مريم وعيسى.. مع أن المتبع فى القرآن الكريم هو الاسم الأول فقط ؛ لأن ما يرويه القرآن هو أمثلة إيمانية لا تتعلق بالشخص نفسه، إلا فى قصة مريم فقد اختصها الله بهذه المعجزة التى لن تتكرر إلى يوم القيامة، والتى فضلها بها على كل النساء اللاتى خلقهن فى العالمين..

وقد جاء ميلاد المسيح ابن مريم دليلا على طلاقة القدرة التى تقول للشىء كن فيكون فولد من أنثى بدون ذكر، وثبت الله مريم قبل أن يحدث ذلك، ثم أظهر صدق المعجزة بأن جعل عيسى ابن مريم ينطق وهو طفل عمره دقائق، ثم أيده بالمعجزات، عَدَدٌ منها بإذن الله كأن يصنع الطين على هيئة الطير، ويُحيى الموتى ويشفى المرضى، كل ذلك يتم بإذن الله، وعَدَدٌ منها يتم بما أطلعه الله ونبأه به من أسرار الكون لتكون آية ودليلا على صدق رسالته كإنباء الناس بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم.

ورغم هذه المعجزات البينات، وأن عيسى قد أرسل رحمة لبنى إسرائيل، فقد كفر به بنو إسرائيل وتربصوا به، فلما أحس عيسى منهم الكفر جمع حواريه أو تلاميذه، وأبلغهم ما أرسل به لينقلوا رسالة الله إلى البشر، وحمّلهم أمانة هذه الرسالة.

معجزة القرآن.. عطاء متجدد

الإعجاز فى القرآن الكريم هو إعجاز دائم، أى إن القرآن معجزة يوم أن أنزل، ومعجزة فى هذا العصر، ومعجزة فى العصور القادمة إلى أن تقوم الساعة، ذلك أن إعجاز القرآن متجدد، وعطاءه لكل جيل، عطاء مختلف عن الجيل الذى سبقه، تلك حقيقة هامة لابد أن نعيها حين نتحدث عن إعجاز القرآن الكريم.

والقرآن لا يفسر بمعنى أنه لا يمكن لأحد أن يقول إنه يفسر القرآن، بل هى خواطر إيمانية لكل مجتهد حول القرآن الكريم، ذلك أن التفسير الكامل للقرآن لا يعلمه إلا الله وحده وإنما خواطر القلب المؤمن هى التى يمكن أن نسجلها حول آيات القرآن الكريم، ولو أن القرآن الكريم كان من الممكن أن يفسر لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره، لأنه نزل عليه، ولكن رسول الله بين للناس الأحكام التكليفية التى يثاب المرء إن فعلها، ويعاقب إن تركها، وهى حدود الله سبحانه وتعالى فى أفعل ولا تفعل، أما ما يتعلق بالوجود وأسرار القرآن حول هذا الوجود، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُشِعْ ذلك ولم يُعمِّمْه، وإن كان قد عَلِمَه هو نفسه، لماذا؟ لأن العقول قد لا تتقبله فالقرآن لم يأتِ ليعلمنا أسرار الوجود، وإنما وُضعت أسرار الوجود فى القرآن الكريم لتعطى عطاء لكل جيل حسب العلم الذى يكشفه الله له، حينئذ يكون عطاء القرآن مستمرًا مع تقدم العلم والحياة إلى أن تقوم الساعة.

إن فى القرآن الكريم إعجازا فى اللفظ، واختيار الكلمات والمعانى، بحيث تناسب كل عقل.. وكل جيل، ولعل أولى معجزات القرآن أنها تخاطب الجميع: المتعلم، والجاهل، والذى قرأ علوم الدنيا كلها، والذى لم يقرأ حرفا واحداً، وإذا لاحظنا فى الخطاب البشرى، نجد أنه يقال لكل مقام مقال؛ أى إن الذى تتحدث به مع نخبة من العلماء غير الذى تتحدث به مع أُناس بسطاء، لم يقرأوا شيئاً، غير حديثك لأولئك المفكرين، ولكنك تذهب إلى المسجد فتجد العالم والأمى ونصف المتعلم يجلسون معا، ويُقرأ القرآن، فتهتز نفوسهم جميعا، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يخاطب ملكات خفية فى النفس لا يعلمها إلا هو وهذه الملكات هى التى تهتز للقرآن الكريم، كلام الله، وكل واحد من الجالسين مهما كانت ثقافته له متاع فيما يقرأ، واهتزاز وانفعال داخل نفسه، رغم أنه من الصعب أن تخاطب هؤلاء جميعا، وتحدثهم بكلام دنيوى لاختلاف مستوى العقول.

إن القرآن الكريم لم يأت ليعلمنا أسرار الوجود، ولكنه أشار إليها وسجلها ليظهر

الإعجاز الإلهى للناس، فى كل عصر ومع تقدم العلم البشرى، على أن ربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية شىء لا يجب أن يحدث، فالقرآن لا تربط صحته باتفاقه مع نظرية علمية أيا كانت، ولكن العلم هو الذى ستمتد صحته وبيانه إذا اتفق مع آيات القرآن الكريم فكل علم مخالف لحقائق القرآن هو علم زائف، لأن قائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى وخالق الكون هو الله سبحانه وتعالى، ولا يمكن لمخلوق أن يصل فى أسرار الكون إلى علم الخالق، تلك حقيقة هامة وخاصة لأولئك الذين يحاولون أن يربطوا معجزة الخلق بنظريات أرضية، والحياة والموت هما مما اختص به الله تعالى نفسه، حتى إنه إذا أعطى هذه المعجزة رسولا من رسله، كما أعطاها عيسى عليه السلام، فإنه يقول: ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩] فعيسى يقول: ﴿ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، ويقول: ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، ولكنه يقول: ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾، ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾، يلاحظ أن معجزة الحياة والموت لم ترد إلا ومعها كلمة: ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، بينما وردت المعجزات الأخرى كإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك، كمعجزات أُيِّدَ بها عيسى من الله سبحانه وتعالى دليلاً على صدقه، وتبليغه عن الله، ولكن معجزة الخلق هى لله وحده، ولكن بعض الناس يأتى ليجادل فى ذلك، مدعياً أن الإنسان أصله قرد، إلى آخر ما يقال فى عدد من النظريات العلمية، ونحن نقول لهؤلاء، إذا كان الإنسان أصله قرد، فلماذا توقف هذا التحول منذ ألوف السنين، لماذا لم نشهد نحن فى كل التاريخ المكتوب للبشرية، أن قرداً قد تحول إلى إنسان، فمن الذى اختص قردا واحدا، من دون بقية بنى جنسه، فى أن يتحول إلى إنسان مرة واحدة فى التاريخ لا نعرف لها سجلاً، ولم نسمع عنها شيئاً، اللهم إلا افتراضات لا تستند إلى الحقيقة، لو أن الإنسان أصله قرد، لكانت سنة أن يتحول القرود إلى بشر، وما دام ذلك قد حدث مرة واحدة، فإنه لابد أن يتكرر، ولكننا لم نشاهد هذا فى التاريخ الإنسانى، فما الذى أوقفه؟ ولماذا لم تستمر العملية ككل عمليات الحياة؟ إن الذى أوقفه أنه لم يحدث أصلا، ولم يكن موجوداً إلا فى خيال أولئك الذين زعموه بلا دليل علمى محسوس، ولو كان هذا صحيحا لأمكن بعد تقدم العلم البشرى أن يقوم العلماء بتحويل قرد إلى إنسان، ولكنه مجرد زيف.

والله سبحانه وتعالى حين أوجد الحياة أبلغنا بطريقة الخلق ومعجزته، وقال إننى خلقت من كل شىء زوجين اثنين؛ أى إن كل مخلوقات هذه الدنيا بدأت بخلق الله سبحانه وتعالى لذكر وأنثى، ثم بدأ التكاثر بعد ذلك، وكل من يقول غير هذا هو مخالف للحقائق العلمية فى أن الحياة لا يمكن أن تتكاثر إلا بذكر وأنثى، وهذا هو بداية الخلق.

على أن بعض الناس لا يكتفى بما قال الله سبحانه وتعالى عن الخلق، وإنما يحاول أن يصل إلى أسرار ليس هو مؤهلا لها، نقول له إن الله سبحانه وتعالى أعطى للعلم

البشرى ما يفيده وحجب عنه ما هو علم لا ينفعه، وجهل لا يضره، فعدم علمك بأسرار خلق الشمس مثلاً لا يؤثر فى شىء فى استفادتك بالشمس نفسها.. فى الزراعة، والتدفئة، واستغلال النهار فى السعى من أجل الرزق، وغير ذلك مما أحتاج إليه فى حياتى العادية، تماماً كما يحدث بالنسبة للكهرباء مثلاً، فعدم معرفتى بأسرار الكهرباء لا يمنعنى من أن أضغط على الزر فأوقد المصباح، وأؤدى عليه حاجاتى فى الليل، وعدم علمى بأسرار التليفون لا يمنعنى من أن أستخدمه أتحدث به إلى من لا أرى، وهكذا أشياء كثيرة فى الكون أستطيع أن أستخدمها بدون أن أصل إلى أسرارها ؛ أى يستخدمها العالم بها والجاهل بها بالطريقة نفسها، والاستفادة نفسها.

ومن هذه الأشياء، الغيبيات التى اختص بها اللّه سبحانه وتعالى نفسه، فنجد إنسانا يبحث عن أسرار الروح، نقول له إنك لم تخلق روحا، ولن تصل إلى أسرارها لأنك لا تستطيع أن تأخذها وتضعها فى المعمل، وتُجرى التجارب عليها، فهى شىء غير مادى يتصل بالمادة فيعطيها الحركة، ويخرج منها فتعود مادة هامدة كما كانت، وأنت لا تعرف مكان الروح فى جسدك، فى أى جزء هى، هل هى فى القلب، أو فى المخ، أو فى اليدين أو فى القدمين، فالجسد كله يتحرك بالروح، ولكن هذه الحركة عامة، بحيث لا يستطيع إنسان أن يحدد بالدقة مكان الروح من الجسد.. بل إن الروح حين تغادر الجسد فإن وزنه لا ينقص.

إذن.. فالنفس هى اتصال الروح بالمادة لتعطيها الحياة، فإذا اتصلت الروح بالمادة أعطتها القدرة على الحركة والنمو، وكل ما تحتاج إليه الحياة البشرية، وإذا انفصلت عنها عادت المادة إلى طبيعتها الساكنة الهامدة، واللّه سبحانه وتعالى احتفظ لنفسه بسر الحياة، وسر الموت، فهو خالق الحياة، وخالق الموت، وكل محاولة فى هذه المجالات، إنما هى علم لا ينفع وجهل لا يضر، ذلك أن عدم معرفتى بأسرار الروح والخلق لا يمنعنى من ممارسة حياتى على الأرض، وليس معنى ذلك أن البحث فى هذا الموضوع منهى عنه، بل ليبحث أهل الأرض كما يشاءون، ولكن الذى نرفضه أن يأتى إنسان بنظرية مبنية على الظن والاستنتاج ويحاول أن يجعل منها قضية لطعن الدين، بينما هى فى الحقيقة مجرد ظن لا يغنى عن الحق شيئاً، فأن يقول عالم إن الإنسان أصله قرد بدون أن يأتى بدليل مادى على ذلك، أمر مرفوض لأنه يخالف قول اللّه تعالى، بأن الخلق تم لكل نوع بزوجين ذكر وأنثى، فالبحث العلمى إذا قام على حقائق فإنه مقبول، وإذا قام على الظن والافتراض، فإنه مرفوض وحقائق الكون كما ذكرها اللّه فى القرآن الكريم هى حقائق أزلية، لا يمكن أن تتصادم مع الخلق لأن القائل هو الخالق.

ونأتى الآن إلى خلق آدم ؛ اللّه سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الإنسان من طين، أى من عناصر الأرض والتربة التى نعيش عليها، والبحث العلمى المعملى أثبت أن الأرض

تتكون من مجموعة عناصر، كلها موجودة فى جسد الإنسان، ثم نفخ الله سبحانه وتعالى فيه من روحه، والروح من أمر الله، لم يصل إليها العلم ولن يصل، فتم خلق آدم، وخلق حواء من آدم، ثم عرض الله سبحانه وتعالى آدم على الملائكة، وقال لهم إنه خلق خليفة فى الأرض، وهنا قالت الملائكة، أتخلق من يفسد فيها، ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك، قول الملائكة هذا قد يوحى بأنه كان هناك خلق آخر قبل خلق الإنسان، عوالم أخرى كالجن مثلا، وأن هؤلاء أفسدوا فى الأرض، وسفكوا فيها الدماء، وكانت تجربة شهدها الملائكة فحكموا بها، ومن هنا فإن حكمهم كان على شىء قد مضى وحدث وهم يطبقون التجربة ؛ فالقياس حينئذ ماذا فعل الله سبحانه وتعالى؟ علم آدم الأسماء كلها أى إنه علمه أسماء الأشياء التى سيقابلها فى حياته على الأرض، وسواء كان ذلك هو العلم البشرى كله، اختزن فى عقل آدم ليخرج بعد ذلك إلى ذريته جزءاً جزءاً، أو كان ذلك العلم الأولى الذى استخدمه آدم حين نزل الأرض، فالثابت أن علم آدم جاء من الله سبحانه وتعالى، وأن الله هو الذى علّم الإنسان.

هنا لنا وقفة قصيرة، إن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يجعل العقل البشرى منفرداً بأن يرث الحضارات، أى إن الإنسان هو الكائن الذى يستطيع أن يبدأ من حيث انتهى أبواه وأجداده، فأنت تستطيع أن تُعلّم ابنك ما وصلت إليه من قمة العلم، وهو يزيد عليه، ويعلم ابنه ما وصل إليه من قمة العلم، وابنه يزيد عليه وينقل إلى أبنائه ما أخذه عن أبيه، وما زاد عليه، وهكذا تنتقل الحضارة الإنسانية من جيل إلى جيل مستوعبة الماضى، مضيفة إليه من الحاضر لتصل إلى المستقبل، هذه خاصية للعقل البشرى وحده، أعطاها الله سبحانه وتعالى له، وهى خاصية لا توجد فى الحيوانات مثلاً، فأنت تدرب القرد أو الفيل، أو أى حيوان آخر، على أن يقوم بأعمال معينة تحتاج إلى شىء من التدريب، وهو ينجح فى القيام بها، ولكنه لا يستطيع أن ينقل ذلك إلى إخوته وأولاده، بل لا يستطيع أن ينقله إلى أحد من بنى جنسه، فالقرد الذى يتعلم شيئاً مثلاً، لا يستطيع أن يعلمه لأولاده، ليزيدوا عليه ثم يعلموه لأولادهم، وهكذا، كما يحدث فى البشر، ذلك أن وراثة الحضارة خاصية يتمتع بها العقل البشرى وحده، وهذه الخاصية قد وضعها الله سبحانه وتعالى فى العقل البشرى ليستطيع أن يتقدم، وأن يكون مُعداً عندما يكشف الله له آياته فى الأرض فيستوعبها.. ولولا تلك الوراثة الحضارية لبقى الإنسان الأول على ما هو عليه، ولما تقدمت الدنيا كلها ؛ لأنه فى هذه الحالة حتى لو حصل إنسان على العلم فإنه يعجز عن نقله إلى أولاده، وينشأ الابن على الفطرة، وحتى إذا استوعب الابن علماً لا ينقله إلى أولاده وهكذا يبقى الإنسان بدائيًا كأول عصور الحياة، ولكن وراثة الحضارة التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى العقل البشرى وحده قد جعلته يستطيع أن يحقق هذا التقدم العلمى الهائل، فإذا قال لك أحدهم مزهُوًا بما حققه الإنسان من العلم الذى أتاحه الله له فى

الأرض، فقل له لا تَزْهُ بنفسك ولا بالبشر جميعاً، بل أرجع الفضل إلى الله، واسجد له شكراً ؛ لأنه هو الذى اختص عقلك البشرى من دون سائر المخلوقات، بوراثة الحضارة والعلم ولو كان لك عقل كالقرد مثلاً، لبقيت على حالتك بالنسبة للحياة الأولى، ولما استطعت أن تتقدم خطوة فى سبيل الحضارة، وأن تصل إلى هذا العلم الذى أتاحه لك، فالفضل أولا فى كل تقدم بشرى هو لله سبحانه وتعالى الذى أعطى العقل البشرى خاصية التقدم بأن جعله يستطيع أن يرث الحضارة، وإذا أردنا أن نسجد شكراً للنعم التى أتاحها لنا الكشف العلمى، والتقدم التكنولوجى، فإننا يجب أن نسجد أولاً لله سبحانه وتعالى الذى وهبنا العقل، الذى يمكن أن يحقق هذا، واختصنا بالقدرة على استيعاب التقدم العلمى. والذين يحاولون استغلال هذا التقدم العلمى بالتشكيك فى قضية الدين، نقول لهم ارجعوا إلى الأساس أولاً، من الذى حقق هذا التقدم العلمى، علم أتاحه الله للعقل البشرى وكيف استطاع العقل البشرى أن يستوعب العلم، استطاع أن يستوعبه بالخاصية التى أعطاها الله له، وميزه بها، وهى القدرة على استيعاب الحضارة، والزيادة فيها، فاستيعاب علم مضى والزيادة عليه بعلم قادم، ثم استيعاب هذا العلم القادم، فضل لله على الإنسان وحده، ولو كان للإنسان عقل كسائر الحيوانات مثلا، لما استطاع أن يوجد حضارة أو يستوعب علما والذى خلق هذا العقل البشرى، وأعطاه هذه الميزات، هو الله سبحانه وتعالى، ولا يستطيع أحد أن يجادل فى هذه الحقيقة.

بعد أن علم الله آدم الأسماء كلها عرضها على الملائكة وقال أنبئونى بأسماء هؤلاء، حينئذ قالت الملائكة: سبحانك.. لا علم لنا إلا ما علمتنا، الله سبحانه وتعالى هنا يريد أن يعلمنا مبدأ هاماً، إنه يستطيع أن يعطى الأدنى ما يميزه على الجنس الأعلى، وهو وحده القادر على ذلك، فالملائكة مخلوقات من نور، والإنسان مخلوق من طين، والنور مادة شفافة والطين مادة معتمة، ولكن الله سبحانه وتعالى جاء فميز آدم الذى هو من طين بالعلم، وجعله يتفوق على الملائكة الذين هم من نور، وتلك لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، معطيا المثل على أنه يستطيع أن يعطى الأدنى ما يتفوق به على الأعلى ليقضى على الغرور فى أى من خلقه.

واعترف الملائكة بأن علم آدم الذى أعطاه الله له يفوق علمهم، حينئذ أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم، وهنا نقطة عامة يثيرها بعض الناس، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن السجود لغيره، فكيف يأمر الملائكة بالسجود لآدم، والسجود منهى عنه لغير الله، نقول لهم: إنكم لم تفهموا ماذا حدث، إن الملائكة لم يسجدوا لآدم فالسجود هنا ليس لآدم نفسه، ولكنه لأمر الله سبحانه وتعالى، تماماً كما يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتجه إلى الكعبة فى صلاتنا ونسجد، نحن لا نتجه إلى الكعبة لذاتها ولكن طاعة لأمر الله سبحانه وتعالى أن نسجد للقبلة فى هذا الاتجاه، وكل أوامر

الدين من السجود والحج والصوم والصلاة، إنما هى تنفيذ لأوامر الله سبحانه وتعالى، فنحن نصلى خمس مرات فى اليوم، تنفيذا لأوامر الله سبحانه وتعالى بالصلاة، ونصوم رمضان تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى بالصوم، ونزكى من أموالنا تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى بالزكاة ونحج البيت تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى بالحج، كل هذه الأشياء لا نفعلها اختيارا منا بالنسبة للقبلة أو لعدد مرات الصلاة، أو للصوم، أو للحج، ولكنها تنفيذ لأمر الله بأن أفعل ولا تفعل، وهذا السجود والخضوع هو طاعة الله سبحانه وتعالى.

على أننى أختلف مع بعض الذين يحاولون ربط أوامر الله بأنها مظاهر دنيوية.. فيأتى بعض الناس ليقول لك: إن الصلاة هى نوع من الرياضة. وأنا أقول: لا، إنها طاعة لأمر الله، ولو كانت نوعاً من الرياضة للعبنا الرياضة وتركنا الصلاة، وبعض الناس يقول لك: إن الصوم هو للإحساس بشعور الإنسان الجائع. وأنا أقول: لا، إنه طاعة لأمر الله، ولو أنه إحساس بالجوع لما وجب الصيام على الجائع الذى لا يجد قوتا يكفيه، ولأصبح الإنسان الجائع معفى من الصوم، وهكذا كل مناسك الله، فالحج يقال عنه: اجتماع للمسلمين. وأنا أقول: لا، بل هو تنفيذ لأمر الله؛ ولو كان مجرد اجتماع للمسلمين لعقدنا مؤتمراً إسلاميًا يجتمع فيه المسلمون واستغنينا عن الحج.

إذن.. فكل مناسك الدين فى أفعل ولا تفعل، إنما نقوم بها لأنها أوامر لله، دون ما فلسفة دنيوية؛ فأنا أتجه إلى القبلة لأن الله سبحانه وتعالى أمرنى بذلك، بدون أن يكون هناك أى صلة بين ما أفعل أو الرياضة، أو الشعور بالجوع، أو ما يقوله بعض الناس عن مظاهر دنيوية يحاولون بها تبرير فروض الله، والله سبحانه وتعالى حين يقول: أفعل.. فهذا كاف جدًا لأن أفعل بدون أى مبرر آخر، وحين يقول: لا تفعل فهذا كاف جدًا ألا أفعل، بدون أن يكون هناك مبرر آخر، ذلك أنه ما دام الأمر قد صدر من الله، فإن مجرد صدوره من رب العالمين هو سبب اتّباعى له، وليس أى سبب آخر، فتلك هى العبادة الحقة لله سبحانه وتعالى فالله هو الخالق، وهو الذى قال: «اعبدنى بأن تفعل كذا وكذا أو كذا» والله هو الأحق بأن يخبرنا بطريقة عبادته والتقرب إليه، وهذه رحمة منه سبحانه وتعالى أن يسر لنا هذه السبيل، وأظهر لنا ما يجب أن نفعله لعبادته والتقرب إليه، ونحن حين نأخذ ذلك نأخذه شاكرين لله سبحانه وتعالى أن بين لنا الطريق إلى عبادته، وإلى الحياة الطيبة التى وعد بها عباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة.

سجد الملائكة، طاعة لأمر الله أن يسجدوا لآدم، ولم يسجدوا لآدم، لأنه هو آدم، أو هو إنسان، ولكن سجدوا لأن الله أمرهم أن يفعلوا ذلك، تماماً كما نتبع نحن تعاليم الله فى السجود والعبادة كما بينها الله لنا، هنا حدثت معصية إبليس، وإبليس كان من الجن ومن الجن المقربين، ولكن الكبرياء دخلت نفسه، والغرور ملكه فرفض السجود؛ وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

وهنا يدور جدل كبير ؛ فإبليس قد عصى الله، ورفض أن يسجد لآدم فطرد من الجنة ولعن إلى يوم القيامة ووُعِد بعذاب شديد فى الآخرة، وآدم قد عصى ربه وأكل من الشجرة فتاب الله عليه ولم يطرده من رحمته، بل أنزله على الأرض وأرسل له هدى من عنده ليتبعه بعض الناس يقول: لماذا غفر الله لآدم ولم يغفر لإبليس؟ وأنا أقول: إن الفرق بين المعصيتين كبير.

وهنا لنا وقفة، لو لم يكن الله سبحانه وتعالى قد أعلن بوضوح أن إبليس مطرود من رحمته، رجيم ومُبَعد، ربما قلنا إن إبليس مكلف فعصى، وهو عُرضة أن يعود إلى منهج الله فيقبل الله توبته ويغفر له فيصبح معفواً عنه، مغفوراً ذنبه، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقطع أى حسن بالظن بوسوسة الشيطان، ولذلك فقد حكم عليه هذا الحكم المطلق الذى لا رجعة فيه، لماذا؟ لأن معصية إبليس هى معصية كبيرة، لا يمكن أن تُغتفر فإبليس قد رد الأمر على الله سبحانه وتعالى، وعندما طرده الله من رحمته لم يتب، ولكنه قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]، وهنا يجب أن ننظر إلى جلال القسم الذى يدل على ذكاء إبليس، فإنه لم يجد منفذاً لأن يمضى فى معصيته فى الأرض، إلا عزة الله سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى عزيز، وهو فى عزته ليس محتاجاً لأحد من خلقه، بل إن الخلق هم المحتاجون لله سبحانه وتعالى، ولكن الله غنى عن العالمين، ومعنى أنه غنى عن العالمين أى غنى عن كل ما خلقه من إنس وجان، وملائكة، وأرض، وسموات، وكل خلق له، فمن هذه النقطة.. نقطة العزة، استطاع إبليس أن ينفذ بقسمه، ليقول لله سبحانه وتعالى بعدم حاجتك إلى هؤلاء جميعا، وإلى خلقهم وأرزاقهم إلى يوم القيامة سأقوم بإغوائهم.

ما هى الغواية؟ هى إبعاد الناس عن طريق الله، وتزيين الباطل لهم، فالمنهج فى أفعل ولا تفعل إنما يريد الخير للإنسان، ولكن مفهوم الخير يختلف عند البشر، فهناك خير عاجل وخير آجل، ولنقرب هذه النقطة إلى الأذهان.. هب أن هناك طالبين، أحدهما يقوم بالمذاكرة والدرس والتحصيل، والآخر يقضى نهاره فى اللعب ولا يذهب إلى المدرسة كلاهما يريد الخير لنفسه، ولكن النظرة إلى الخير هى التى تختلف، فالأول يرى الخير فى المذاكرة والتحصيل، ليحصل على مستقبل أفضل، فهو يريد الخير الآجل.. والثانى يريد أن يمتعها فى كل يوم تعيشه، ثم بعد ذلك يجد نفسه متشرداً، أو سارقاً، ليحصل على رزقه، هذا هو الفرق بين الاثنين، والفرق فى النظرة إلى الخير، والمؤمن ينظر إلى الخير على أساس الدنيا والآخرة، فهو يُريد أن يحقق خيراً فى الاثنين معاً، ومن هنا فإن أى شىء يأتيه فى الدنيا يمنع عنه خير الآخرة فهو مرفوض، بينما الكافر يريد الخير العاجل، ومن هنا فهو يفعل أى شىء، ليحصل على خير الدنيا بدون أن يعمل حساباً للآخرة، فإذا استطاع أن يحصل على المال من أى طريق حرام، أو على المتعة من غير

حلال، أسرع إليها، ثم يأتى الموت فيجد كلٌ منهما ما قدمه، الأول قدّم الخير للآخرة فيجد خيراً، والثانى لم يقدم شيئاً للآخرة فيجد الجزاء.

إذن.. فمنهج إبليس أن يمنعك أن تفعل شيئاً لآخرتك، ومن هنا فهو يُزيّن لك الحياة الدنيا، بما فيها من متع مادية ويحاول أن ينسيك الآخرة بما فيها من نعيم دائم، وهذه الغاية تتم بقسم إبليس ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾، وهو يدخل من باب استغناء الله عن كل خلقه، فلو أراد الله سبحانه وتعالى خلقه جميعا مهديين إلى الصراط المستقيم، لما استطاع الشيطان أن يتقدم منهم، ولما استطاع أن يغويهم، ولذلك استثنى وقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣]، أى يا رب سأغوى خلقك، إلا الذى تريده أنت وتخصه بالهداية فإننى لا أستطيع أن يبقى لى سلطان عليه، لأن كلمة الله هى العليا، ولا أحد يستطيع أن يقف أمام سلطان الله.

ثم قال إبليس: أنا لن أقعد لهم على طريق الشر؛ لأن طريق الشر غير محتاج إلىّ، أنا لا أذهب إلى الخمارة، أو إلى بيت الدعارة، أو إلى أماكن القمار، وإنما سيكون عملى فى مهابط الطاعة، فى أماكن العبادة، هؤلاء هم الذين أُغويهم أنا، لأن هذا عملى أن أُخرج هؤلاء عن طاعتك، فكل إنسان اتبع الشر، فهو قد اتبع طريقى بدون حاجة إلى غواية ولكن كل إنسان يريد أن يعبد الله، فمهمتى أن أُغويه وأبعده عن هذه العبادة؛ لذلك قال: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، ولم يقل، لأقعدن لهم على الطريق المعوج.

وهكذا تتضح ضخامة معصية إبليس فهو قد تحدى الله بالمعصية ورد الأمر عليه قائلاً: أنا لا أسجد لمن خلقت طينا؛ أى: إن إبليس يرى نفسه أكبر من أن يخضع لأمر من الله سبحانه وتعالى، ووضع نفسه فى موضع مساو للآمر، يرد عليه أمره، فيقول له: اسجد. ويقول: لن أسجد، ثم لم يقل له لن أسجد وكفى، بل قال له: لن أسجد لمن خلقت طينا؛ أى إنه وَضَعَ علمه فى وضع مساو لعلم الله، وقال: هذا خلقته من طين ولن أسجد له لأننى أعلم أننى خير منه، وإن كنت قد أمرتنى بالسجود، فلن أسجد لأن لى علماً مساويا لعلمه وأنت خلقت هذا من طين وخلقتنى من نار، وأنا أفضل منه.

كانت هذه هى المعصية الكبرى التى لا يمكن أن تغتفر، ثم بعد ذلك كان هناك طريق التوبة.. ولكن إبليس بدل أن يسلك طريق التوبة، أمعن فى مكابرته فقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]، أى إننى لن أتركهم يعبدونك ياربى، ولكنى سأحيط بكل مطيع لك، مؤمن بك، لأفسد عليه إيمانه، وأزين له طريق السوء، والبعد عن منهج الله سبحانه وتعالى، إلا الذين اخترت، فهؤلاء لا أستطيع أن أقربهم لأنك تحميهم وتدافع عنهم، وأنا مخلوق، وأنت الخالق، وهكذا حتى فى المضى فى المعصية أحس إبليس أنه لا يستطيع أن يقترب من عباد الله المخلصين الذين هداهم إليه.

ثم ننظر إلى الإمعان فى المعصية، ويمضى إبليس فى إمعانه فيقول: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]، إذن.. فإبليس قال لآتينهم من أمامهم، ومن خلفهم، وعن اليمين.. وعن الشمال، ولكنه لم يقل لآتينهم من فوق أو من تحت أرجلهم، لم يذكر شيئاً عن الجهتين الباقيتين، رغم أنهما من الجهات الست المعروفة؛ ذلك لأنه يعلم جيداً أن ما فوق الإنسان يمثل الفوقية الإلهية، ومكان سجود الإنسان موضع قدميه يمثل مكان العبودية، ولا يتأتى للشيطان أبداً أن يعيش فى مستوى علم إلهى فوقى، ولا فى مستوى تحتى يمثل مكان السجود والعبودية، إذن.. انتهت الجهات الست، ولم يستطع إبليس أن يدعى أنه سيأتى من مكان فوقى، أو من مكان تحتى وهو مكان السجود والعبادة، والعجيب أنك إذا نظرت إلى نظريات الإلحاد الأربع التى يأتى منها إبليس، ولكننا لسنا فى واحدة من هؤلاء، لسنا تقدميين، ندعو إلى التحلل والإلحاد والإباحية، ولسنا رجعيين نسير على ما وجدنا عليه آباءنا، ولسنا يمينيين على عرف العصر ولا نحن يساريون على عرف العصر.. وإنما نحن أمة محمدية فوقية، كل أمورنا تأتى من السماء، ولذلك فإنك إذا خضعت إلى حكم الله سبحانه وتعالى، فاعلم أنك غير خاضع لمساويك، ولا أنت ذليل لخلق مثلك، بل أنت خاضع للذى هو أعلى منك، والذى تخضع له كل المخلوقات طوعاً فى الحياة الدنيا، وكرها فى الآخرة، وأنت فى ذلك مساو لأعلى خلق الله فى الأرض، فهو خاضع لله، وأنت خاضع لله، وهو مطلوب منه أن يطبق منهج الله، وأنت مطلوب منك أن تطبق منهج الله، إذن.. فلا ذلة هنا أبداً، بل أنت مساو لأكبر خلق الله فى الدنيا وربما أنت أفضل منه فى الطاعة، فإذا قال لك أحدهم: إن العبودية ذل. تقول له: أبداً، بل الذل هو اتباع غير منهج الله، فإذا أنت اتبعت غير منهج الله تصبح ذليلاً لبشر مثلك، مهاناً فى حياتك، مقضيًا عليك بالذلة، ولكن إذا خضعت لله وحده فأنت وكل خلق الله فى منزلة متساوية، ترفع رأسك أمام الجميع لأن أى إنسان مهما علا، فهو خاضع لمنهج الله، إما طوعاً فى الحياة الدنيا، وإما قهراً فى الآخرة.

لعل هذا هو الذى جعل الله سبحانه وتعالى يختار رسولاً أميًا ليُحمِّله بآخر رسالة من السماء إلى الأرض، وما هو معنى أمى، معناه أنه كما ولدته أمه، لم يأخذ ثقافة من أحد من خلق الله مساو له، لا تثقف على الشرق ولا على الغرب، ولا قرأ لفيلسوف ولا لصاحب نظرية، إذا كان الإنسان فى هذه الحالة لم يقرأ لمساو له، ولم يأخذ من ثقافات الدنيا شيئاً، يكون كل ما يأتى به معجزاً ومعجباً، لأنه من فوق.. من الله سبحانه وتعالى إذن.. فالأمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم شرف وشهادة، فهى شرف له؛ لأن الذى نزل به القرآن من إعجاز، قد هز الدنيا كلها، وشهادة بأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه جاء بهذا الكلام من فلاسفة الشرق، أو فلاسفة الغرب، بل هذا الكلام موحى به

من الله سبحانه وتعالى، والقرآن الكريم الذى فيه إعجاز متجدد، وعطاء مستمر للبشرية كلها حتى يوم القيامة.. إذا جاء على يد رسول أمى فهو شهادة له بأنه منهج السماء، وما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسرى على البشرمن بعده، فتلك معجزة تختص بالقرآن الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما نحن فقد طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نتعلم ونقرأ.. ونتدبر فى آيات الله فى الأرض، لماذا؟ لأن أحدا منا لن ينزل عليه قرآن أو كتاب من السماء.. فقد انتهت الرسالات بنزول القرآن الكريم، وخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام؛ ولذلك لا يكلفنا الله سبحانه وتعالى بما اختص به رسول الله، بل يطالبنا بأن نقرأ ونتعلم.

ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل إلى ارتفاعات حضارية، وكانت له نظريات عقلية وإصلاحات حدّث بها الناس، ليقودوا حركة حياتهم لكان الكافرون قد قالوا إن القرآن الكريم علم بشرى، ولكن الأمية هنا تأكيد لصلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسماء وأنه ليس للأرض أى دخل فى هذا المنهج، وأن هذا المنهج ليس من معطيات عقول البشر، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل بعلويته واتصاله بالسماء إلى المنهج الذى يعلم البشر جميعا. أما القرآن الكريم فيعلم البشرية كلها، ومن هنا فإن كل ما أوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو من الله.

ما دام الشيطان قد قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾، فإن ذلك يعنى إصراراً على المعصية، وهنا فرق بين معصية ومعصية، وفرق بين الإصرار على المعصية والندم عليها والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى ذلك.

إذن.. فمعصيتا آدم وإبليس الاثنتان من خلق الله، وكلاهما عصى، ولكن المعصية تختلف فمعصية آدم غفرت له، ومعصية إبليس لم تغفر؛ ذلك لأن إبليس رد الأمر على الآمر ودخل فى نفسه الكبر فى أمر من أمور الله، ووضع نفسه ظلما فى وضع مساوٍ لعلم الله سبحانه وتعالى، فاستحق بذلك أن يطرد من الجنة، وأن تنزل عليه اللعنة، ولكن آدم اعترف بمعصيته، وقال: يا رب إن كنت قد عصيت فإنك أنت الحق، وقولك الحق ولكن نفسى ضعفت ولم تستطع الاحتمال، وهذا هو الفرق بين المعصيتين، فالأولى دخل فيها الكبر، والثانية دخل فيها الندم.. وكلتاهما آية، ليفهم الناس المعصية التى تغفر والمعصية التى لا يغفرها الله، فإذا عصى الإنسان، واستكبر وأصر على ما فعل، ووضع نفسه فى وضع مساوٍ لعلم الله، فأخذ يشرع ويحل ما حرم الله، ويحرم ما أحله، واتخذ نفسه إلها، فهو بذلك لا يدخل فى رحمة الله، أما إذا ندم على ما فعل، واعترف بأنه ضعف.. وبأن الله سبحانه وتعالى هو الحق، وقوله الحق، فقد دخل فى الرحمة والغفران.

الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم، عرفه بعدوه وهو الشيطان، ودربه على حياته

القادمة فى الأرض، فقال له: إن هذا الشيطان عدو لك، فلا يغوينك، لماذا؟ لأن إغواءه لك لا يحمل الحياة الطيبة، فأنت إذا اتبعته أصبحت شقيًا، سارقاً، أو قاتلاً، معتدياً على أعراض الناس، مذموماً من الجميع فى الدنيا والآخرة.

ورغم ذلك فإن اللّه سبحانه وتعالى الذى خلق النفس البشرية عالم بضعفها، ولذلك فهو يقول: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، والضعف هنا عدم القدرة على اتباع منهج اللّه، رغم أن فيه الحياة الطيبة؛ ذلك أن الإنسان عجول، يريد كل شيء.. ويريده فى وقت قصير جدًا، ولو أنه صبر لنال ما يريد، ولو أنه اتّبع منهج اللّه لأُوتى أضعاف أضعاف ما سيحصل عليه من المعصية، ولكنه يريد كل شيء فى لحظة، وهو يريد خُلودا فى الأرض، وما هو بخالد، ويريد مالا لا يفنى، والمال صفته الفناء، إما يفارقك هو، أو تفارقه أنت، وكلاهما فناء له لأنك أصبحت عاجزا عن أن تصل إليه، ومن هذه النقطة استطاع الشيطان أن يُغرى آدم فى الجنة، ويجعله يأكل من الشجرة التى حرمها اللّه.

ولقد كانت التجربة كى يعلم الإنسان أن ما يعده الشيطان غير صحيح، بل أحيانا يأتى بعكس ما هو مطلوب منه، فالإنسان قد يزين له الشيطان قتل إنسان آخر، ويقنعه بأنه لن يقع فى قبضة العدالة أبداً، فإذا ارتكب الجريمة كان بعد ساعات فى يد العدالة، لماذا؟ لأن الشيطان يريد المعصية، ويريد إهلاك العاصى فى الوقت نفسه، ذلك أنه يحس بعداوة رهيبة للإنسان، فهو يعتقد أن الإنسان كان سبب طرده من الجنة، وسبب لعنة اللّه له فى الدنيا والآخرة.. كل هذه الأشياء قد خلقت بغضا رهيبا فى الشيطان للإنسان، ولذلك فهو يُغريه ليُهلكه، يُزين له أن يفعل، فإذا فعل يهرب الشيطان بعد أن أوقعه فى المعصية ويتركه لأسوأ الجزاء فى الدنيا والآخرة.

ولقد كان من رحمة اللّه سبحانه وتعالى أن أخبرنا بذلك لنتخذ حذرنا، ونتقى وسوسة الشيطان، وأعطانا التجربة المادية لآدم، لنعلم أن وسوسة الشيطان وَهْم من الغرور، وتَزْيينٌ للباطل، وأن الإنسان لن يحصل على شيء من هذا كله؛ ولذلك فإن معصية الشيطان تختلف عن النفس الأمّارة بالسوء، فالنفس الأمارة بالسوء إذا أرادت معصية، أصّرت عليها وألحّت حتى يقوم صاحبها بارتكابها، وهى هى المعصية نفسها، لاتتغير ولا تتبدل، ولكن إغواء الشيطان مختلف عن ذلك، إنه يريد المعصية لمجرد المعصية، فإذا وجد إنسانا قويًا فى ناحية من النواحى اتجه إلى ناحية ثانية؛ لأنه لا يريد هذا اللون من المعصية فقط، ولكنه يريد المؤمن عاصياً على أى شكل من الأشكال، فإذا عزّ عليه باب، يطرق باباً آخر، وهكذا يظل يحاور النفس المؤمنة، يزين لها هذا فلا تأخذه، فيزين لها ذلك، ويأتى عن طريق فيجده مغلقاً، فيأتى عن طريق آخر، وهكذا يظل يحوم حول النفس المؤمنة إغراء من كل ناحية، حتى تسقط النفس فى معصية من

المعاصى، ولقد كانت رحمة الله بالمؤمن، أن دله على طريق الشيطان من كل ناحية من النواحى، ودله على الطريق التى يقى نفسه بها.

هكذا خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وعرفه عدوه فى الأرض، وعرفه الطريق الذى يعمل به، وبيّن له كيف أن الشيطان لا يقدم إلّا غرورا للنفس، وأن مهمته أن يخلخل منهج الله بصرف النظر عن نوع المعصية، ودلنا على أنه بقراءة القرآن نبعد الشيطان عن أنفسنا، ولكن بعض الناس يقول: إنه يقرأ القرآن، ومع ذلك فإنه لا يحس بالوقاية من وسوسة الشيطان، نقول له: إن هناك شيئاً اسمه الفاعل، وشيئا اسمه القابل، وكلنا يستمع إلى القرآن، ولكن درجة التقبل ليست عندنا واحدة، بل كل بدرجة إيمانه مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦].

أى.. أنهم يسألون عن القرآن لأنه لا يؤثر فيهم، القرآن فاعل صحيح، وإنما المُستقبل غير موجود، وحتى نوضح هذه المسألة فى الأمور المادية نقول لك: إذا أتيت بثلاثة أشخاص كل واحد منهم مختلف فى درجات البصر، فالأول بصره حاد، والثانى متوسط، والثالث ضعيف، ووضعتهم فى مكان خَلَوىٍ وسألتهم ماذا يَرَوْن عند حافة بصرهم؟ فسيروى لك كل واحد منهم شيئاً مختلفاً، ولكن الموجود أمامهم هو شىء واحد لا اختلاف فيه.. والمسألة أن كل واحد منهم قد رأى بقدرة قوة بصره، بل إن الشىء الواحد قد يؤثر تأثيراً مضاداً، إذا كان المستقبل مختلفاً؛ فأنت إذا نفخت فى يدك فى البرد، تريد أن ترفع درجة حرارتها لتسخنها، وإذا نفخت فى الشاى فأنت تريده أن يبرد، الفعل واحد، هو إخراج الهواء من الفم، ولكن المتقبل للفعل مختلف، ومن هنا كان أثر الفعل عكسيا، ففى المرة الأولى كان لرفع الحرارة، وفى المرة الثانية كان لخفضها، مع أن الحادث واحد.

كذلك القلوب؛ بعضها متفتح للإيمان يجهد نفسه فى طاعة الله، ويحمل نفسه على المنهج، والثانى باع كل شىء فى سبيل شهواته، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا أن الفعل قد يكون واحدا، والاستقبال له مختلف، فيجب لكى تستقبل القرآن أن تصفو أداة الاستقبال للقرآن، وتنقى كل خاطر يبعدك عن المنهج، وتبتعد عن كل إغراء يوقعك فى الخطيئة.

إنك وأنت تواجه الشيطان، فإنك خلق الله، وهو خلق الله، وما دمت تواجهه مواجهة منفردة، فإن المعركة هنا تعتمد على قوتك وقوته، ولكنك إذا واجهته وأنت ملتحم بالله فلا يستطيع أن يقدر عليك، ولنوضح هذه النقطة قليلاً، نقول لو أن طفلاً

صغيراً، مشى فى الشارع وحده، وقابله طفلان صغيران، المفروض هنا أن تقع معركة يستخدم كل منهم فيها قوته، ولكن هب أن الطفل نزل مع أبيه، وأبوه هذا شاب قوى، هل يستطيع الطفلان الآخران أن يتعرضا له، أبدا.. إنهما يهربان من وجهه لماذا؟ لأن المعركة لم تعد صراعا بين قوة صبى وقوة صبى آخر، بل دخل فيها من هو أقوى من الصغيرين بمراحل.. وهكذا أنت فى معركتك مع الحياة، فى كل شىء تعمله، إذا دخلت وأنت موصول بربك فمحال أن يهزمك أحد لأن قوة الله معك تجعل الهزيمة محققة لمن يريد أن يؤذيك، ولكن متى تتعرض للهزيمة والمهانة؟ إذا دخلت المعركة بعيداً عن ربك، فإنك فى هذه الحالة تواجه قوة متساوية مع قوة متساوية، والغلبة لمن هو أقوى، أنت هنا أبعدت قوة الله عن جانبك وهى القوة التى تضمن لك النصر، والتى لا يستطيع أن يهزمها أحد، ولا يصل لقدرتها أحد وأنت بذلك تتخلى عن أقوى سلاح فى حياتك، وأقدر من ينصرك فى كل أزمة تتخلى عن القوة الحقيقية فى الكون، عن الفعّال لما يريد، وتدخل مغترا بقوتك وقدرتك وحدك، ثم تتعجب بعد ذلك كيف هزمت، ولو أنك فكرت ثانية واحدة، لعرفت السبب، ولعلمت أنك جردت نفسك من أقوى وأقدر أسلحتك وأنه يجب ألا تتعجب وتسأل نفسك لماذا هزمت؟ لأن السبب معروف.

حين تستقبل القرآن بصفاء، وتستعيذ بالله من الشيطان، يصبح الشيطان لا سلطان له عليك، وذلك أن المؤمنين لا سلطان للشر عليهم ؛ ولذلك فإن الشيطان يأتى فى الآخرة ليقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] ومع ذلك فإن أولى خطوات الشر تبدأ من النفس البشرية.. فالشيطان لا يستطيع أن يجبر أحداً ويقهره على الشر، ولا يستطيع أن يستخدم سلطان القهر لمن لا يريد أن يفعل، ولكنه أولاً يجب أن يجد استمالة وقبولاً من النفس البشرية.. يجب أن يكون هناك إقناع بالشر والإقناع هنا لا يكون بالحقيقة، ولكن بالغرور، ولا يدخل إلى نفس متواضعة وإنما يدخل على نفس يملؤها الكبر، وصوّر لها فكرها أنها تستطيع أن تصنع كَرْها وأن تغتنم الفرصة وأن تصل بالدس والغش والخداع والشر إلى ما تشتهيه، هذه النفس هى التى فيها الاستجابة للشر، والتى تبدأ مسيرتها مع الشيطان من هذه النقطة، وتمضى الأحداث، وربما تمر السنوات، ثم يعرف الإنسان أن كل ما فعله لم يحقق له شيئاً، بل أتى له بعكس ما يريد، فيصبح مكروها من الناس.. مذموما، ليله قلق، لا يرى فيه النوم ونهاره شقاء لا يرى فيه الراحة، وكل ما حوله من نعيم لا يحمل قطرة واحدة من سعادة.

فإذا أردت أن تتخذ الطريق الذى رسمه الله للحياة الطيبة فى الأرض، فأول شىء يجب أن تعلمه أنك غير مقهور على الشر، ولا على معصية الله، بل إنك تفعل بمحض إرادتك وباستجاباتك لهذه الأشياء، علك تحقق منها نفعاً عاجلاً، أما إذا لم تستجب، فإنك تظل معصوما منها، ولذلك لا تصدق من يقول لك إنك مقهور على الشر، بل اعلم أن العيب

فى نفسك، ولا تصدق من يقول لك مثلاً: إنه لو لم تعرض عليه رشوة، أو لم ييسر له اختلاس. . لظل نزيها، فالأصل هو فى النفس، وفى استجابتها أولاً، ولولا أن التمنى كان فى نفسه، والرغبة ملكت قلبه، ما مد يده إلى حرام، وما مشى فى طريق الشر.

ويجب أن نعلم أن اللّه سبحانه وتعالى إذا كان يريدنا بلا مغرٍ وبلا موسوس، فهو قادر على ذلك، وإذا كان يريدنا أن نكون مقهورين على الطاعة، فهو قادر على ذلك. . ولكنه يريدنا أن نأتى إليه باختيارنا، وأن نعبده اختياراً من أنفسنا، وليس قهراً منه، ومن هنا كان لا بد أن يكون هناك الإيمان والمعصية، هذا له حلاوة، وهذا له إغراء عاجل ليتم الاختيار عن حقيقة واقعة، وليكون هذا الاختيار هو الطريق إلى الجنة، وإلى الحياة الطيبة فى الدنيا ولذلك فإن وجود الشيطان وإغراءاته وكل ماهو موجود فى الحياة الدنيا، إنما هو ضرورة لازمة للطاعة، فلو أنها ليست موجودة، لكان الإنسان مقهوراً على الطاعة، ليس له طريق غيرها، ولانتفت بذلك كل الحكمة من الجزاء والعقاب، ولانتفت حكمة خلق الحياة والدنيا والآخرة.

وجود الإغراء الدنيوى، أو الشر، أو وسوسة الشيطان حكمة بالغة للحياة الدنيا، لأن الاختيار يقتضى وجود بديلين يختار الإنسان بينهما، ولولا تزيين الشيطان للمعصية ما عرفنا قدر حب اللّه فى قلوبنا، حين نرى نفعا عاجلا مزينا له بأسلوب تهواه نفسه، ثم نعرض عنه ونقول إنى أريد اللّه، فذلك أقوى مراتب الطاعة، إحساس العبد بحبه لربه، ولأن هذا الإله يجب أن يعبد وأن يترك من أجله كل ما أخبرنا به أن يترك، ذلك مقياس الطاعة فى النفس البشرية.

ولنضرب مثلاً يقرب ذلك إلى الأذهان ؛ هب أن أمًا دعيت إلى حفل كبير فيه من زينة الدنيا ما فيه، وبعد أن ارتدت أفخر ثيابها فُوجئت بطفلها وقد ارتفعت درجة حرارته يشكو من الحمى، حينئذ فهى تُلقى بكل ما ارتدته جانباً وتجلس بجوار طفلها تمرضه، وتستدعى له الطبيب. . مقياسان فى قلب الأم تفاعلا معا ؛ المقياس الأول حبها لأن تذهب إلى هذا الحفل، والمقياس الثانى حبها لأن تؤدى واجب الأمومة نحو طفلها، والذى يتغلب هو المقياس الأقوى، ولكن لو لم يوجد هذا المقياس، أى لو لم تدع الأم إلى الحفل، ويمرض طفلها فى الوقت نفسه، فهل كنا نستطيع أن نعلم أن هذه الأم بارة بطفلها، أو أنها ستلقيه إلى أحد الخدم أو أحد الجيران، وتذهب هى لتستمتع بوقتها، ما كان يمكن أن نعلم لو لم يوجد المقياسان فى وقت واحد، كذلك الخير والشر، والطاعة والمعصية، ووسوسة الشيطان وحب اللّه، كلاهما يجب أن يوجد فى النفس البشرية فى وقت واحد، لكى نعلم مقدار حب العباد لله، أو مقدار إعراضهم عن ذلك الحب.

على أن اللّه سبحانه وتعالى كان رحيما بنا فى التجربة، فهو لم يخلقنا ليلقى بنا إليها بدون أى تدريب سابق، بل خلقنا ودربنا وأفهمنا ماذا سيحدث، فالشيطان عصى اللّه أمام

آدم، ثم توعد آدم، واللّه سبحانه وتعالى نهى آدم عن الأكل من الشجرة، وقال لآدم إنى حرمتها لأنها تُهلكك وتضرك. .وجاء الشيطان بمنطق الكذب، فقال: إن هذه الشجرة تمنحك الخلود، ومَلْكا لا يَبلى، وإن اللّه سبحانه وتعالى منعك من الأكل منها ؛ لأنه لا يريد أن تصبح ملكا، أو خالدا. .كان هناك قول اللّه الحق، وكان هناك قول الشيطان الذى لا يحمل إلا الكذب، وعدم الصدق، ومع ذلك ضعف آدم، ضعف أمام رغباته فى الخلود وضعف أمام رغباته فى الامتلاك، مع أنه كان يعيش فى جنة يأكل فيها بلا تعب ولا إجهاد ورغم أنه كان يعيش فى تلك الجنة يذهب فيها إلى المكان الذى يريده، ويجد رزقه وقتما يريد. . وعندما يشتهى، أى لا يحتاج لشىء أكثر مما وفره اللّه له، إلا أن الطمع البشرى بلا حدود، ومع أن اللّه سبحانه قد وفّر لآدم الاستمتاع البشرى، فقد بقى الطمع فى نفسه واستطاع الشيطان أن يدخل إليه من هذه الناحية.

التجربة كانت فيها معصية من آدم، لأن اللّه سبحانه وتعالى كرمه، ولكن نفس آدم أساءت الظن باللّه، لأن اللّه سبحانه وتعالى وفر له سبل الحياة بلا عناء ولا تعب، ولكنه أراد أن يزداد من ذاتيته، كان هناك من يملك شيئاً، ولأنه حين حرم اللّه عليه الشجرة حرمها لأنه يعلم أنها ضارة به، ولكن آدم لم يفطن لهذا، ولم يفطن أن تحريم اللّه له بالنسبة لهذه الشجرة، لا بد أن يحمل خيرا له، لأن اللّه سبحانه وتعالى حين خلقه من طين، أمر من هم أعلى منه خلقا - الملائكة والجان، وهم مخلوقات من نار، ومن نور - أن يسجدوا له، وفى هذا تكريم كان يجب أن يلتفت إليه من آدم، فيعلم أن ربه الذى كرمه بأن يسجد من هم أعلى منه خلقاً لآدم، لا يمكن أن يريد به السوء، بل لابد أنه يريد به خيراً، وإلا فلماذا كرمه؟ أنت حين تكرم إنسانا، وتعمل كل شىء من أجله، فإن ذلك دليل على حبك له، ورغبتك فى تحقيق الخير، ولو أن اللّه سبحانه وتعالى أراد بآدم شرًا، لفعل. . ولما أخضع ملائكته بأمر السجود لآدم. . هذا التكريم كان يجب أن يلتفت إليه آدم، ونلتفت إليه نحن أيضا، لنعلم أن اللّه سبحانه وتعالى كرمنا، وفضّلنا على خلقه، ولا يمكن أن يكون هذا التكريم، لأن اللّه يكرهنا، بل لأن اللّه يحبنا، ويريد لنا الخير، ونقبل على منهج اللّه من منطق هذه النقطة، فنعلم يقينا أن ما قاله اللّه سبحانه وتعالى عنه أفعل، فهو خير لأن اللّه يريد لنا الخير، وما قال عنه لا تفعل فهو الشر، لأن اللّه لا يريد لنا الشر.

ثم هناك لفتة أخرى يجب أن تؤكد هذا المعنى، هى معاداة الشيطان للإنسان، تلك المعاداة التى جهر بها. . ورفضه أمر اللّه بالسجود، كانت هذه يجب أن تلفتنا إلى أن الشيطان عدو لنا، فإذا وسوس له أن أفعل كذا، فهو يريد بك شرا، وإذا وسوس لك ألا تفعل كذا، فهو يريد أن يمنع عنك الخير، كانت هذه هى التجربة التى مر بها آدم فى الجنة ومع ذلك ضعفت نفسه وعصى، أكل من الشجرة، وهنا ظهرت الحقيقة. . فلو أن آدم لم يأكل من الشجرة لظللنا حتى يومنا هذا نقول: لو أنه أكل منها لأصبح خالدا، وأصبحت

ذريته من الخالدين، وأصبح عنده مال لا يفنى، وربما كان الشيطان مصدقا عندنا، ولكن كون آدم أكل، فظهر أن كل ما قاله الشيطان من إغواء، هو كذب، يريد به أن يطرد آدم من الجنة، فلا هو أصبح من الخالدين بعد أن أكل، ولا هو أصبح صاحب مال لا يفنى ولكن ظهرت عورته أمام كل الخلق، وأسرع إلى الشجرة يقطف من أوراقها ليوارى هذه العورة.

إذن.. فالحقيقة أنه عندما اتبع إغواء الشيطان لم يحصل على شيء إلا الضرر والطرد من الجنة، والشيطان يريد أن يفضح عوراتنا، ويظهر السيئ منها أمام الدنيا كلها، منذ خلق الله آدم حتى هذه الساعة، وإلى آخر الخلق.

هكذا كانت التجربة والواقع، قبل أن ينزل آدم إلى الأرض، والله سبحانه وتعالى أعطاه أمرا، والشيطان أغواه على معصيته، وظهر أن أمر الله هو الخير، وأن وسوسة الشيطان كلها كذب وخداع، وإغراء بلا حقيقة، وكان الله رحيما أن أعطانا هذه التجربة، وذكرنا بها في قرآنه الكريم، علّنا نفيق، ونعرف الحقيقة، ونعلم أن الله سبحانه وتعالى يريد بنا الخير، ولا يريد لنا الشر ولا العذاب أبدا، وأننا إذا أحببنا الله، أحبنا ودافع عنا.

وامتدت رحمة الله إلى الإنسان في الأرض، ثم علمه كلمات يتوب عليه بها، ويمحو له الذنوب، ويغفر الخطايا، بشرط أن يكون في النفس البشرية ندم آدم، ولا يكون فيها استكبار إبليس، وقال إذا ضعفت نفسك فاستعذ بي من الشيطان، وأنا أعيذك منه وقال: قبل أن تقبل على أي عمل.. أقبل عليه بقولك بسم الله، ذلك أنك لا تبدأ باسم الله إلا إذا كان العمل الذي تعمله خيراً، فإنك تستحي أن تبدأ معصية باسم الله، وعلمنا أن نقول: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق لنا الرحمة وأنت حينما تعمل أي عمل، وفي بالك الله سبحانه وتعالى، فإنه سيعطيك العطاء في الدنيا، والثواب في الآخرة، وإياك ان تستحي إن كنت عاصياً لله، أن تستفتح أعمالك باسم الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الحقد ولا يتغير على خلقه، فأنت إذا عصيته لا يتغير ويقول، أنا سأطرد هذا العبد، ولن أتقبل منه شيئاً، بل إنه بمجرد أن تقول: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وتقبل على الله، يقبل الله عليك، فإذا كنت قد عصيت الله في شيء، فتذكر أنه رحمن رحيم، وأنه يقبل على كل عاص، في اللحظة التي يتوب فيها ويعود إلى الله، إن الله سبحانه وتعالى لا يحقد، ولا ينفعل، ولايتغير، وأنت عبد من عباده ترجع إليه تجده الرحمن الرحيم.

والله سبحانه وتعالى حين شرع العقوبة لأي معصية، فمعناه أنه شرع لها الوجود، وإلا فلماذا يضع الله عقوبة لشيء ليس موجوداً، وكما شرع لها الوجود، شرع لها التوبة باباً يخرج العاصي منه، فيغفر له، فإذا كنت قد عصيت الله فلا يجب أن تستحي أن تلوذ برحمة الله، فالله سبحانه وتعالى رحمن رحيم، كلمة رحيم مأخوذة من الرحمة، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: أنا أريد بكم الخير حتى ولو عصيتموني

ولذلك كتبت على نفسى الرحمة، فإذا كنت عاصياً فلا تستح أن تلجأ إلى رحمتى وتوبتى.

وهكذا نرى مدى حب الله سبحانه وتعالى لعباده، يأتى أولا ليخضع الكون لهم ويخضع من هم أعلى منهم كالملائكة، ثم يقول لهم: إننى أحبكم، ولذلك كرمتكم وما سأقوله لكم هو الخير فاتبعوه، وما سأنهاكم عنه هو الشر فانبذوه، ثم تأتى التجربة فى معصية، فتعرف صدق حب الله سبحانه وتعالى لنا، ورحمته بنا، وتعرف أنه قد منع آدم من الأكل من الشجرة، لأنها شر، والشيطان أغراه بها لأنها شر أيضاً، ولكن الذى منع وهو الله يريد لنا الخير، والذى أغرى هو إبليس يريد بنا الشر، وتحدث التجربة واقعاً بعد أن كانت نظرية، ثم ينطلق الإنسان إلى الأرض، يحمل التجربة والتوبة، فيأكل من مائة شجرة، فيقول الله سبحانه وتعالى سأفتح لك باب توبتى مادمت نادماً، ولن آخذ منك رحمتى، فأنا أرزق عبادى جميعا المؤمن والكافر، والعاصى والمطيع، وتلك رحمتى بعبادى، لعل العاصى فى يوم حين يحس بنعمتى ورحمتى يصبح مطيعا عابدا ويعود إلى.

على أن هناك نقطة أحب أن أشرحها فى هذا المجال، ذلك أن الله سبحانه وتعالى رحيم ومعنى رحيم أن هناك مبالغة فى الرحمة، وبعض الناس يعتقد أن صفات الله سبحانه وتعالى تتأرجح بين القوة والضعف، فمرة يكون راحما، ومرة يكون رحمانا، ومرة يكون رحيماً، نقول له: إن هذا خطأ كبير، فصيغ المبالغة تأتى فى صفات بشر، ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده أن الصفة تضعف أو تقوى ؛ بل هى ثابتة بلا تغيير ولكن المتغير هو متعلقات هذه الصفة، ولنشرح هذه النقطة قليلاً: هب أن إنساناً يأكل كمية كبيرة من الطعام، فأنت تقول عنه أكول، وهب أنه يأكل كمية صغيرة ولكن خمس أو ست مرات فى اليوم، فأنت تقول عنه أيضاً أكول، ولو أنه لا يأكل فى كل مرة كمية كبيرة من الطعام ولكنه يأكل خمس أو ست مرات فى اليوم.

إذن.. المبالغة تأتى فى الحدث، وفى تكرار الحدث، وإذا أردت أن تفهم التغيير فى متعلقات صفات الله، فأنت تقول رحمن، لأنه يرحم المؤمن والكافر فى الدنيا، ويجعل الأشياء تنفعل لهم، إذن فعدد الداخلين فى رحمة الله عطاء لله بالنسبة للدنيا، هم كل خلقه، ليعطيهم جميعا عطاء ربوبية.. إذن فهو رحمن، ولكنه فى الآخرة مثلاً رحيم ؛ لأنه يطرد الكافرين من رحمته، ويبقيها للمؤمنين وحدهم، إذن فالصفة لم تتغير، ولكن الذى تغير هو من تشملهم هذه الصفة.. ففى الدنيا كل عبد يأخذ من رحمة الله، عدد هائل فهو رحمن، وفى الآخرة يقل هذا العدد، وتصبح متعلقات الصفة.. أو من تشملهم الصفة أقل عددا ممن كانت تشملهم فى الدنيا، فيصبح رحيما، ومن هنا فإن صفات الله ثابتة ولكن من تتناولهم هذه الصفات هم المتغيرون حسب أحوال خلق الله، وقولك: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، معناها أنك نفيت عن الله صفة المبالغة فى الظلم ولكنك لم تنف عنه الظلم لأنه قد يكون ظلوماً وليس ظلاماً، نقول له إنك لم تفهم

الآية فتكرار الصفة يوجب نفى المبالغة، فعدد خلق الله لا حصر لهم، لو أن الله ظلم كلا منهم ذرة، لأصبح ظلاماً لكثرة عدد الذين ظلمهم، ولو أن كلا منهم لم ينله إلا ذرة من الظلم لذلك نفى الله عن نفسه حتى هذه الذرة، فقال: إنه ليس بظلام، أى حتى ذرة الظلم فى هذا العدد الهائل لا تصدر عن الله سبحانه وتعالى[1].

إذن.. فإن بداية العمل باسم الله، تعطينا العطاء والثواب فى الدنيا والآخرة، وتحفظنا من أشياء كثيرة.

ويأتى الله سبحانه وتعالى إلى العاصى فلا يأخذه مرة واحدة، وإنما يأخذه بعذاب محدود صغير، فيشكو إلى الله سبحانه وتعالى، ويرفع يديه إلى السماء، ويقول يا رب، فينجيه الله، وبمجرد أن يحس الإنسان ببعد الخطر، يعود مرة أخرى إلى الذنب، بل ربما عاد إلى ما هو أكبر منه، ناسياً أو متناسياً، أنه كان يمر بضر أو بشدة أو بضيق، وأنه رفع يديه إلى السماء وقال يا رب، وكان عدلاً ألا تنفتح أبواب السماء لعاص، وألا ينفذ منها الدعاء الذى قيل بلسان لا يذكر الله، كان ذلك عدلاً، ولكن رحمة الله سبقت، فانفتحت أبواب السماء، واستجابت للدعاء وكشف الله الضر، وبمجرد أن أحس الإنسان أنه قد نجا عاد إلى كفره، فيعود الله سبحانه وتعالى ليذكره به.. ويقول له: أفق إنك تهلك نفسك من تبارز وأنت لا قدرة لك، وأنا وحدى القادر، ولكن الغرور يركب الإنسان، فيمهله الله، ثم يذكره بقدرته عليه، فيفتح عليه باباً صغيراً من الشدة، أو الغضب، فيجأر للسماء ويرفع يديه ويصيح يا رب، ويكون عدلاً من الله سبحانه وتعالى ألا يتقبل، ويكون عدلاً ألا تفتح أبواب السماء ولكن رحمة الله تتدخل، وترفع الشدة وتزيل الكرب، فإذا أحس الإنسان أنه نجا، عاد إلى كفره إلى أن يفتح الله عليه باباً من الشدة، أو العذاب لا يغلق أبداً، لأنه صمم على الكفر، رغم أن الله أراه رحمته مرات ومرات، وأزال عنه الكرب المرة تلو المرة.

---

(١) روى مسلم [٢٥٧٧/ ٥٥] عن أبي ذر رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وإذا عدنا إلى قصة موسى عليه السلام نجد أن الله سبحانه وتعالى أخذ فرعون بالقول اللين أولاً ؛ فقال الله لموسى وهارون: ﴿ اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ ﴾ [طه].

فرعون طغى واتخذ نفسه إلهاً فى الأرض يعبد من دون الله، والله سبحانه وتعالى أرسل له رسولاً، ليهديه إلى صراطه المستقيم، ويذكره بالله، لم يقل لهذا الرسول اذهب واقطع رقبة فرعون وخذ ملكه وأنا سأمكنك من ذلك، ولم يقل له سأخسف بفرعون الأرض وأعطيها لك، ولكننا نجد هنا أدب الرحمة فى أن الله سبحانه وتعالى يقول، اذهب لهذا الطاغية الذى نصب نفسه إلهاً يعبد من دونى، وقل له قولاً ليناً، برفق، بدون أن تهينه، أو تنهره أمام قومه، علّ قولك هذا يوقظ فى نفسه الشعور بالذنب، والإيمان بى فيتذكر ويخشانى.

لنر كيف يحب الله سبحانه وتعالى عبده حتى العاصى، ويأخذه باللين والرفق، وهو القادر على أن يبطش به بطشاً، هل هناك رحمة أكثر من هذا؟ إن أرحم الرحماء لا يمكن أن تفيض منه هذه الرحمة على عاص له، إلا الله سبحانه وتعالى، بل إن الله يأمرنا أن نستر على العاصى، لا نفضحه، فإذا وجدنا إنساناً يرتكب معصية، وشاء قدره أن نعلم بها فمن حسن الإيمان أن نسترها عليها، ولا نفضحه، لماذا؟ لأن ستر المعصية قد يفتح أمامه طريق التوبة والندم والرجوع إلى الله، بينما نشر هذه المعصية وإذاعتها قد يجعله يضل عن الطريق؟ ويتمادى فيها، فهو إذا رأى إنه عصى الله، وأن الله ستره، فربما يفيق إلى نفسه، ويعود إلى التوبة مرة أخرى، هذه هى رحمة الله بعباده، حتى العاصى منهم. . والله لا يريد أن يعذب أحداً، ماذا يفعل الله بعذابنا، ولكن الإنسان هو الذى يصر بالمعصية على أن يدخل النار، ويستكبر فى الأرض، وكلما أعطاه الله من النعم، زادته طغياناً وكفراً، وجعلته بدلاً من أن يسجد لله شكرا، ينطلق ليحاربه بنعمه، ذلك كفر الإنسان وتلك رحمة الله.

نعود بعد ذلك إلى قصة فرعون وموسى، قال موسى القول اللين لفرعون، فلم يرتدع. وزاده القول اللين طغياناً، وحاول أن يبارز موسى بالسحرة، فأبطل الله خداع السحر وكان السحرة أول المؤمنين، وكانت هذه معجزة كافية لأن يؤمن فرعون بعد أن سجد السحرة لرب موسى، كان فرعون يجب أن يؤمن بأن موسى ليس ساحراً، ولكنه رسول وبدلاً من ذلك زادته هذه الآية طغياناً، فإذا به يأمر بقتل السحرة، وكلما جاءه موسى بآية أنكرها، ثم أمر بتذبيح أولاد قوم موسى، واستحياء نسائهم، والله سبحانه وتعالى بعد كل الآيات التى أيد بها موسى ورفض فرعون الإذعان لها، هنا ذكر الله تعالى فرعون بقدرته مباشرة، وبدون رسول، فسلط على قوم فرعون الدم، والضفادع، والقمل، وفى كل مرة تحدث فيها آية من هذه الآيات التى تحمل العذاب الأصغر بدلاً من أن يؤمن

فرعون، ويتذكر قدرة الله، ويتوب إليه، ويعرف أن الله فعال لما يريد، يأتى إلى موسى، ويقول له ادع لنا ربك يزل عنا هذا ونحن نؤمن، فيدعو موسى ربه، فيزيل العذاب، فيزداد فرعون كفرا، فتأتى آية أخرى تذكر بالأولى وبقدرة الله، وبأن الله سبحانه وتعالى له ملك السماوات والأرض، أى إنه يملك القوة للفعل، والقدرة على تحقيق ما يريد، وفرق بين القوة والقدرة، فأنت قد تملك القدرة، ولكنك لا تملك القوة لتحقيق ما فى قدرتك، قد تكون تاجرا بارعا، ولكن لا تستطيع أن توفر مكاناً تمارس فيه تجارتك وقد تكون مهندساً ممتازاً ولكنك لا تستطيع أن تأتى بالأشياء اللازمة لتبنى العمارة الضخمة التى تقدر على بنائها، ولكن الله سبحانه وتعالى يملك الاثنتين معاً، أى إنه يملك كل عناصر الفعل، فإذا أخذ فرعون بآية من العذاب أراد الله أن يذكره به وبقدرته، علّه يتذكّر، فإذا ذهبت الآية قال لن يستطيع أحد أن يأتى بآية أخرى، وظن أنه قد نجا تماماً، وصوّر له غروره أن ما يحدث لن يتكرر، فيذكره الله مرة أخرى، فيسرع إلى موسى يطلب منه الدعاء فيكشف الله عنه الضر، فيعود مرة أخرى إلى طغيانه، هذا هو الإصرار على الكفر، والإصرار على المعصية، والإصرار على الكفر والمعصية لا يحبهما الله سبحانه وتعالى.

وقصة فرعون هذه ليست غريبة عن حياتنا، فالله سبحانه وتعالى يأتى لكل عبد من عباده الكافرين ليذكره به، فيتجه بالدعاء إلى الله وقت المحنة، ثم تزول المحنة فينسى، وهكذا حتى يفتح الله عليه باباً ذا عذاب شديد، حينئذ يتذكر الله، ولكن بعد فوات الأوان ففرعون حينما كان يغرق فى البحر أعلن إيمانه، ولكن الوقت كان قد فات ؛ لأن الله فتح عليه من أبواب الرحمة والتوبة، وأراه من الآيات، ما كان يجب أن يجعله مؤمناً شديد الإيمان، ولكنه أصر على الكفر، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يذكرنا بذلك، وبأن الإصرار ليس من صفات المؤمنين، ولكنه من صفات العصاة الكافرين، فيقول: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والاستغفار هنا ندم وتوبة على الإثم، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا ﴾، أى إنه نفى عنهم الإصرار على الإثم.

إذن.. فعمل المؤمن يجب أن يكون باسم الله ؛ لأن الله هو الذى سخّر له الأشياء وباسم الله لأنه يريد أن يستعين بقدرة الله، وما دام كل عمل تعمله وفى بالك الله، فالله يعينك ويكون معك.

وذكر الله سبحانه وتعالى يجعل القلب يخشى، والناس لا تمضى فى المعصية ؛ لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يذكرنا أنه معنا يسمع ويرى، ومن هنا فإننى حين أقوم بعمل يؤذى غيرى يقول الله لى: لا ؛ هذا ليس لك، وهنا تتدخل الشرائع، ولا تتدخل الشرائع إلا لصالح الإنسان، فالإنسان يريد فى حياته أن يحصل على كل شىء، ما يملكه وما يملكه غيره، حينئذ يأتى الله سبحانه وتعالى ليقول له: لا ؛ أنا حميتك بقانونى من أن

يعتدى غيرك على ما تملك، ولقد حميتك من هذا رحمة منى لأنك فرد وغيرك كثيرون، وإذا أبحت الاعتداء على المال فكأنى أبحت للناس كلهم الاعتداء على مالك وإننى قد أكون حرمت اعتداءك على مال فرد أو اثنين ولكننى منعت الملايين من الاعتداء على ما تملك من مال أو عِرْض، أو أى شيء بالنسبة للدنيا، وأنا حين أفعل ذلك، أحميك، وأحفظ لك مالك وعرضك، وأمنك، فإذا اعتدى أحد عليه فأنا أقتص منه وأنا القادر على القصاص الفعال لما أريد.

وهكذا كانت معجزة الخلق من اللّه سبحانه وتعالى، رحمة للإنسان، وفضلاً من اللّه كان يقتضى منا الحمد والشكر والطاعة، وعندما نقول فضلاً من اللّه، فاعلم أن السماوات والأرض، وما فيها من رزق ونعم وآيات وخلق من يوم الخلق إلى يوم القيامة، هى فضل من اللّه، أى زائد عن حاجته، لا يحتاج إليه لأن اللّه غنى عن العالمين، وهكذا حين يعطينا النعم، يعطى، ويعطى، ويعطى ؛ لأنه ليس محتاجاً أن يبقى شيئاً لذاته. . فهو سبحانه وتعالى غنى عن هذا كله.

معجزة الخلق فيها رحمة، وفيها نور، وفيها فضل، وفيها رضا من اللّه، وكل ما نحتاج إليه هو أن نتأمل هذا كله ابتداء من آدم إلى يومنا هذا، وإلى ما سيأتى، لنعرف مدى حب اللّه سبحانه وتعالى لنا، ومدى رحمته بنا، ومدى كفر الإنسان بنعم اللّه، ولو قدرنا اللّه حق قدره لعلمنا أن العمر قصير، حتى لو خصصناه كله لشكر اللّه على رحمته، ولكن الإنسان أحياناً لا يرى وعيناه مفتوحتان، ولا يسمع وأذناه سليمتان.

obeikandl.com

سورة التكوير.. وأهوال يوم القيامة

فى كثير من الأحيان يلفتنا القرآن إلى أشياء قد تغيب عن عقولنا، أحيانا بسبب زحمة الحياة، وأحيانا بسبب التعود والعادة، وأحيانا بسبب العجلة التى يريد بها الإنسان أن يقضى أموره، وقصر النظر الذى يجعله بعيدا عن الصبر، قليل التفكير فى الحكمة فى كثير من الأمور.

ذلك أن اللّه سبحانه وتعالى وضع فى كل شىء حكمة، وسواء غابت عنا أم عرفناها فهى موجودة، واللّه المبدع قد خلق فى الكون أسرارا تتكشف كل يوم لتذهلنا بعظمة الخالق وحكمته.

إن سورة التكوير تبدأ بشرح الأهوال التى تتعلق بقيام الساعة، أو بيوم القيامة، وفى كل آية من الآيات الاثنتى عشرة الأولى، كلمة: ﴿ إذا ﴾، فتبدأ السورة: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ ﴾ [التكوير].

اثنتا عشرة آية تبدأ بحرف: ﴿ إذا ﴾. وهو حرف شرط، ثم بعد ذلك يأتى الجواب المراد وهو: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١٤].

وفى سورة الانفطار أيضا، إذ يقول تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الإنفطار: ٥].

أى: إن هذه كلها مقدمات عندما تحدث تعلم كل نفس ما قدمته وما أخرته. وهكذا نجد أن هذه الآيات المتعددة كلها علامة على شىء واحد وهو الآخرة وعلم الإنسان بما قدم وأخر.

على أننا نلاحظ أن هذه الآيات تصور انقلابا هائلا فى الوجود، انقلابا لم تعتده النفس البشرية، فالنفس اعتادت أن ترى الشمس تؤدى دورها كل يوم باستكانة، واعتادت على النجوم فى نظامها الرتيب، واعتادت على الجبال راسية فى مكانها، فإذا تغير كل هذا وهو من نظام الكون الأساسى ولم تعد الشمس تؤدى مهمتها، ولا النجوم تؤدى مهمتها ولا البحار تؤدى مهمتها، ولا الجبال تؤدى مهمتها إلى آخر الآيات، فكأننا خرجنا تماما عن صورة الكون المألوف إلى صورة أخرى مغايرة تماما.

والإنسان لا يتنبه للخطر، ولا يحس بالنعمة إلا ساعة تخرج حياته عن المألوف فيه، فأنت ما دمت تتمتع بالصحة لا تشعر أنك تتمتع بشىء بل تأخذ هذه النعمة على

أساس اعتيادى وأن هذا هو المألوف والذى يجب أن يحدث، فإذا اعتلت صحتك عرفت معنى النعمة، وقدرت ما حباك الله به، وما أعطاه الله لك بدون أن تتنبه أو تشعر. فأنت ترى بعينيك ولكنك لا تحس بنعمة البصر إلا إذا حدث شيء، أو مرض أخرج هذا البصر عن مألوف عمله، وأنت تسمع بأذنيك ولكنك لا تحس بنعمة السمع إلا إذا اختل هذا الجزء من الحواس، وهكذا كل شيء فى حياتك كونه يمشى منسجما مع وظيفته التى خُلق لها يفقدك الشعور به. فإذا اختل، بدأت تتنبه إلى هذه النعمة، وتحس بما حباك الله.

كم من إنسان يأكل بأسنانه عشرات المرات كل يوم وهو لا يشكر الله، فإذا ما أصيب ضرس واحد من هذه الأسنان بدأ يشعر بآلام هذا الضرس وبأهميته، وكم من إنسان يتخم نفسه بالطعام بدون أن يحس بنعمة الله عليه فى أنه وقاه شر ما أفرط فيه، فإذا ما أصيبت معدته شعر بأن له معدة وأنها نعمة كبيرة وأنه يجب أن يحافظ عليها إلى آخر ما نعرفه فى كل أعضاء الجسم، الذى هو سليم منها يجب أن نشكر الله سبحانه وتعالى على أنه عافاه لنا وجعله يؤدى عمله المخلوق له أداء كاملاً، فى هذه الحالة فإننا لا نحس بالنعمة ولا نقدم الشكر. فإذا خرج عضو من أعضاء الجسد عن مهمته المألوفة وأصابه عطب ذكرنا نعمة الله فيه.

الإنسان فى حياته يكون أقرب إلى الله حين يمرض ؛ ذلك أنه يحس بنعمة الله، وكلمة «آه» التى يقولها الإنسان وهو يتألم كلمة فطرية، يفزع بها الإنسان إلى خالقه لأنه هو الذى وهب، وهو الذى يستطيع أن يشفى، فإذا ما استرد الإنسان صحته، استرد معها افتراءه، ونسى النعمة، لأن الإنسان يفقد الأثر بالنعمة، ما دامت هى موجودة، وهى ممنوحة له من الله من دون أن يتعب هو أو يجهد ؛ ولذلك لا يشعر بقيمة المطر إلا من تنعدم عندهم الأمطار، ولا يشعر بقيمة الرزق، إلا عندما يمر بأزمة يحتاج فيها إلى المال، وفى كل الأزمات وخلال كل الفترات التى تخرج فيها الحياة عن رتابتها، ويصبح ما اعتقده الإنسان أنه حق مطلق له قد أخذه هو لنفسه ؛ يصبح هناك ما يذكرنا جميعا بالمنعم، وحينئذ ترتفع الأيدى إلى السماء، ويتجه الإنسان إلى الله، ذلك أن خروج النعمة عن مألوف عطائها يذكرنا بفضل الله علينا ؛ ذلك الفضل الذى ننساه دائما حين يعطينا الله من نعمه، ويغدق علينا من فضله.

إذن.. فقيمة الأحداث التى تصيب الإنسان فى نفسه، أو فيما تحيط به من نعم، إنما هى تذكرنا بالخالق، بالله سبحانه وتعالى الذى أعطانا هذه النعمة، ولولا تلك الأحداث والأزمات لمضينا فى حياتنا أو لمضى الكثير منا فى حياته وهو لا يحس بنعم الله عليه.

ولكن بعض الناس يحاول أن يأخذ على نظام الكون هذه الأشياء المذكُرة بالنعمة ؛ فمثلا نأتى إلى قرية تعدادها عشرة آلاف شخص، نجد خمسة من المكفوفين، وإنسانا فقد

إحدى عينيه، وآخر فقد قدمه، أو لا يستطيع أن يحركها إلى آخر هذا، شواذ فى الوجود وفى الخلق، ولكن هم قلة القليل ؛ لتذكرنا بأن اللّه سبحانه وتعالى قد خلق لنا هذا الوجود، وأن هذا الوجود ليس وجودا آليا، أو ميكانيكيا، وأننى لم أحصل على حق هذا الجسد السليم ولم أحققه لنفسى، بل هو نعمة من اللّه سبحانه وتعالى، فالمكونات الفردية تؤكد لنا أن الخالق مهيمن على كل شىء، وأنه إذا كان واحد منا لم يشذ فى صورته، فتلك نعمة من اللّه سبحانه وتعالى. وبعض الناس يقول فى محاولة لتبرير دقة صنع الإنسان إن العقل الإلكترونى فى حساباته مثلا لا يخطئ، بينما العقل البشرى يخطئ ؛ ونحن نقول لهم: إن كل الآلات بما فى تلك العقول الإلكترونية لا تخطئ ؛ لأنه ليس لها اختيار، فهى تفعل ما تؤمر به، ولكن العقل الإنسانى يخطئ ؛ لأن اللّه أعطاه ميزة الاختيار، وهى ميزة أعطته بدائل يستطيع أن يلجأ إليها، فإذا سألته سؤالاً يستطيع أن يتجنب الحقيقة، ويكذب، كما يستطيع أن يقول الصدق.

وكون العقل البشرى عنده البدائل التى يختار منها، دليل على قدرته ؛ لأنه لو لم تكن هذه البدائل ما كان يمكن أن يخطئ، بل كان لا بد أن يمضى فى حياته آليا، ولكن ميزة الخطأ أو الصواب هى التى وضعت أمامه القدرات الهائلة للتقدم، أو هى ميزة الحياة، ذلك أن العقل استطاع بتحركه وقدراته غير الآلية، أن يصل إلى ما كشفه اللّه له فى الأرض من علم وتقدم، ولو لم يكن يملك هذه القدرات غير الآلية، لما أمكنه أن يصل إلى ذلك ؛ فالعقل الإلكترونى مثلاً الذى لا يخطئ، لا يستطيع أن يخترع عقلا إلكترونيا أكثر تقدما وتطورا منه، ولكن العقل البشرى الذى يملك الاختيار، وهو بالتالى يملك ميزة الفكر فى أن يقبل أو لا يقبل، وميزة الابتكار فى أن يميز بين البدائل، كل هذه المميزات التى منحها اللّه سبحانه وتعالى للعقل البشرى قائمة على قدرة هذا العقل، بتحرك غير آلى، أى إنه قد لا يكون فى دقة الآلة التى يخترعها والتى قد تبهر الإنسان، ولكن خروج هذا العقل عن آلية التفكير قد أعطاه ميزة الحضارة كلها والتقدم.

اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى هذا كله، وإلى أنه وراء كل شىء فى هذا الكون إله قائم عليه، وأن هذا الإله خلق للإنسان عقلاً ربما يقل فى قدرته الميكانيكية عن كثير من الآلات الصماء التى لا تخطئ، ولكنه كونه قد خلق بحرية فكر، وقدرات تحمل الصواب و الخطأ، قد استطاع بما كشفه اللّه له أن يصل إلى هذه المدنية. فالعقل الإلكترونى الذى لا يخطئ، هو أدنى مرتبة من العقل البشرى، لماذا؟ لنحس بعظمة اللّه فى مقاييس الكون ؛ وحكمته فى خلق العقل البشرى، لفتة من اللّه سبحانه وتعالى بأن ميكانيكية العمل، مع عدم حرية الاختيار هى أدنى مرتبةً من عقلٍ حر مفكرٍ، وأن العقل الآدمى الذى يصيب ويخطئ، قد منحه اللّه من المميزات والقدرة أكثر من ذلك العقل الإلكترونى الذى لا يخطئ، فالعقل البشرى لا تقيده قيود، تجعله قاصرا عن أن يقوم بشىء

واحد، بينما كل الآلات التى قد تذهلك طريقة تقدمها العلمى لا تملك أهم شىء فى الدنيا وهو الفكر، وكما أننا إذا درسنا العقول الإلكترونية مثلاً، لأدركنا ما أنعم الله به علينا من نعمة العقل الإنسانى، والفكر الإنسانى، فالإنسان حين يرى إنسانا أعمى يتذكر فضل الله عليه فى أنه أعطاه النظر، وإذا رأى إنسانا أعرج أحس بنعمة رجليه.

إذن.. فالأشياء الموجودة فى الكون وسائل لنعم الله سبحانه وتعالى، فيها خروج عن المألوف بمثل يهز الإنسان من داخله.

ولكن قد يسأل سائل: ما ذنب هؤلاء فى أن يكونوا وسيلة إيضاح لغيرهم؟ ونحن نقول إن الله سبحانه وتعالى رغم أنه جعل ذلك فى قلة من البشر لا تكاد تذكر بالنسبة لعدد البشرية الهائل، إلا أنه عوض هؤلاء عما فقدوه، ولابد أن لكل واحد فيهم ميزة عن غيره من الخلق تعوضه عما فقد.

الميزة الأولى التى يشتركون فيها جميعا؛ هى أنهم ينالون من عطف الناس ومعاونتهم بما لا يناله غيرهم، أما الميزة الثانية؛ فإن لكل واحد منهم نبوغا لا يتوافر لغيره، وناحية يتميز بها فى عبقرية من نوع آخر، ولعلنا نرى أمثلة كثيرة لذلك، فأكثر الناس قدرة على حفظ ما يسمعون هم الذين فقدوا أبصارهم، وفى كثير من الأحيان وصل أولئك المصابون بعاهات مثل شلل الأطفال وغيره إلى مناصب رؤساء دول، وشيخ الاقتصاد الذى أنقذ ألمانيا بعد الحرب كانت رجلاه قصيرتين بشكل يلفت النظر.

إذن.. فالله سبحانه وتعالى عندما وضع مثل هذا الشذوذ فى الكون، وضعه بنسبة ضئيلة جدا؛ لتلفت البشرية كلها إلى نعم الله، ثم بعد ذلك يأتى عون الله فيعوضه من الخير والنبوغ، والعطف الإنسانى ما ييسر له كثيرا من أمور حياته، ويمنحه فرصا متميزة.

وإذا ناقشنا ما يقوله بعض الذين لا يؤمنون بالدين، من أن الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بالفكر، ثم سلب الفكر من بعض الناس، فأصبحوا مجانين؛ نقول إن لهذا حكمة، كما أن لكل شىء فى هذا الكون حكمة فى الخروج عن المألوف.

إننا قبل أن ننتقل لنناقش حالة أولئك الذين سلبوا نعمة الفكر، أو نعمة العقل التى أعطاها الله للبشر، فإننا نحب أن نتوقف وقفة أخرى، عند مسألة قدرات العقل البشرى والعقول الإلكترونية، ذلك أن هناك نقطة لا بد من مناقشتها؛ وهى أن العلم كشف من الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى، وليس ذاتية يحققها العقل البشرى من نفسه، فالله سبحانه وتعالى يكشف للعقل البشرى جيلا بعد جيل ما هو فوق هذا العقل؛ لنعرف جميعا أن العلم هو من عند الله، وأنه لا علم لنا إلا ما علمنا الله سبحانه وتعالى.

فإذا قال إنسان: كيف يخترع العقل الإنسانى الذى يخطئ ويصيب ما هو أكثر منه دقة؟ وهو العقل الألكترونى فى عدد من العمليات الحسابية، بل كيف يمكن أن يخترع

العقل الإنسانى ما هو أقوى من قدراته فى مجالات كثيرة من العلم؟ الحقيقة أن هذه آية من آيات اللّه سبحانه وتعالى ؛ لتدلنا على أن هذا الكشف هو من اللّه ؛ وأنه هو الذى يسره للعقل البشرى وجعله فى طاقته، كما يسر أشياء كثيرة لم تكن فى قدرة العقل البشرى وأدخلها فى قدراته ؛ كالطيران، والتليفزيون، واللاسلكى، والكهرباء، كل هذه الأشياء كانت موجودة فى الكون منذ بدء الخلق، ثم أدخلها اللّه سبحانه وتعالى فى قدرة العقل البشرى، فأصبحت من استخدامات الإنسان فى الحياة اليومية، ولكن اللّه لم يدخل هذه القوة فى قدرة العقل البشرى منذ بداية الخلق ؛ حتى لا يقول الناس إنها من القدرات الذاتية التى يستطيع العقل البشرى التحكم فيها، بل أدخلها بعد فترة من الوقت لتكون آية على أن الكشف من اللّه للعقل.

على أن بعض الناس يتساءل ؛ إذا كانت كبرى نعم اللّه على الإنسان هى العقل، يرث الحضارة، ويعطيه اللّه العلم والمعرفة، فما ذنب هؤلاء الناس الذين ولدوا فاقدى العقول؟ ونعود إلى ما تحدثنا عنه، من أن اللّه سبحانه وتعالى وضع فى الكون نماذج قليلة جدا ؛ لتذكر البشر بنعمه، ولكنه فى الوقت نفسه أعطاهم من الميزات ما يعوضهم عما فقدوه، فإذا كان عدد قليل من الناس قد فقد عقله، فقد رفع اللّه سبحانه وتعالى عنه التكليف فى الدنيا والآخرة ؛ بحيث لا يحاسب، فهو يقول ما يشاء فى الدنيا ولا يحاسبه المجتمع، وهو فى الآخرة لا يحاسبه اللّه سبحانه وتعالى، وفى هذا تعويض كبير عن العقل، فى الوقت الذى جعل فيه هؤلاء الناس تذكرة دائمة للإنسان بنعمة العقل، وبأنه ليس هو الذى خلق عقله، ولا هو الذى أورثه الحضارة البشرية، ولكن اللّه هو الذى خلق وهو الذى أورث.

إذن، فعدل السماء مطلق فيما أعطاه اللّه للإنسان، ولكل واحد فينا - رغم كل ما يمد به - نقطة يتميز بها عن غيره من البشر تعوضه عما يعتقد أنه فقد، فالذى لا يملك المال يملك البركة، فيبارك اللّه له فى القليل، والذى لا يملك المنصب، يملك الصحة التى تعوضه عن هذا كله، أو يملك البركة فى أولاده، فييسر اللّه له سبل العلم والحياة والرزق لهم، والذى لا يملك هذا كله يملك الستر، ونعمة القناعة [١]، إلى آخر نعم اللّه التى لا تعد ولا تحصى.

والإنسان لو نظر إلى نعم اللّه التى أعطاها له ؛ لعرف أن ما أعطاه أكبر كثيرا مما منع، وفى بعض الأحيان تأتى لحظات من الحياة يكتشف فيها الإنسان أن نعم الدنيا كلها التى اعتقد أن اللّه سبحانه وتعالى قد حرمه منها، لا تساوى نعمة واحدة مما وهبه اللّه،

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط [٧/ ٨٤/ ٦٩٢٢] عن جابر رضى اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «عليكم بالقناعة فإن القناعة مال لا ينفد».

فكم من مريض يتمنى أن يأخذ الله كل نعم الدنيا ويعطيه صحته، أو يعطيه راحة البال، أو يزيل عنه الشقاء (١).

إذن.. فالأحداث إذا خرجت عن طبيعتها حول الإنسان، فهى تذكره بالخالق الذى أعطاه هذه النعم، وقد يغره الوجود فى نظامه العام، فيعتقد أنه ليس وراء هذا الوجود خالق ومدبر، فيأتى الله سبحانه وتعالى بأولئك الذين يخرجون عن النظام العام؛ ليذكر الناس بأن هذا الكون هو من خلق الله، وأن كل شىء فيه يمضى بأمر الله، وكل شىء يمكن أن يخرج عن مهمته؛ ومن رحمة الله أنه يخرج بنسبة تافهة لا تذكر، وأنما هو تذكير للقدرة، وبأن هذا الكون ليس موجودا وجودا تلقائيا، وليس خاضعا لأحد أبداً إلا لخالقه، وتأتى الأشياء لتلفتنا إلى الحق سبحانه وتعالى.

فالشمس الرتيبة التى تراها كل يوم تؤدى مهمتها فى استقرار ودوام؛ حتى تجعلك تحس أنها دائمة وخالدة، سيجىء يوم: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] فترى انقلابا هائلا فى الكون يؤكد أن هذا الكون كله متغير، وأن بقاءه على هذه الحال هو تنفيذ لمشيئة الله، وعندما تأتى المشيئة لتغيير الكون يذهب الاستمرار والاستقرار فى كل شىء، ومن هنا فإنك يجب ألا تتعلق بعظمة الخلق مهما بلغت ومهما بدا لك أنها مستقرة، و إنما تتعلق بعظمة الخالق سبحانه الذى هو وحده الباقى، فكل هذا المعتاد والمألوف الذى حولك فى الكون من شمس، ونجوم، وبحار، وجبال سيتغير، لماذا؟ لأنه لا يستمر بذاته ولكنه يستمر بقدرة الله سبحانه وتعالى؛ فإذا قدر الله تعالى له النهاية.. ينتهى.

وحينئذ تبرز قضيتان هامتان يرى بعض الناس أنهما متعارضتان، وفى الواقع أنهما متفقتان تماما.

القضية الأولى: أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وله مشيئة فى أن يختار أو لا يختار؛ أى: إنه أعطاه وميزه بالقدرة على الاختيار، وهو ما لم يعطه لغيره من خلقه.

والقضية الثانية: هى مشيئة الله التى يخضع لها كل شىء فى الكون فى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٣٠].

والجواب على ذلك سهل، فالإنسان حر فى أن يختار هذا أو يختار ذاك، من منا يستطيع أن يحقق ما يريده بالضبط؟ أنت تريد أن تؤذى إنسانا، وتفعل كل ما فى استطاعتك لتصل إلى ذلك، ولكنك لا تصل إلى ما تريد، ربما قدمت شكوى فيه فتنقلب الشكوى عليك، وبدل أن يصاب هو بالأذى تصاب أنت، وربما حاولت أن تقتله مثلا،

---

(١) روى البخارى [٦٣٤٧]، ومسلم [٢٧٢٧/ ٥٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

وفى آخر لحظة ارتجفت يدك، أو ظهر شىء أزعجك فطاشت الرصاصة ولم يتم شىء، وفى أحيان أخرى تنجح فى مسعاك سواء كان خيرا أو شرا، فإذا التقى ما تريده مع المشيئة تم، وإذا لم يلتق مع المشيئة لا يتم.

ولذلك فالدين يأمرنا أن نسعى، وأن نعمر فى الأرض، وأن نقوم بما ينفع الناس، هذا كله عبادة لله سبحانه وتعالى، ثم تأتى بعد ذلك النتيجة، فيجزى الإنسان على ما نواه وسعى فيه فعلا، ولعل الحديث الشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[1]، يفسر لنا ذلك تماماً؛ فمناسبة الحديث لشخصين خرجا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما مهاجر إلى الله، والثانى كما قيل إلى امرأة يريدها ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، ولو كنت واقفا فى هذه اللحظة لرأيت الرجلين يخرجان مع رسول الله، الظاهر واحد، والطريق واحد، وربما الكلمات التى ينطق بها اللسان واحدة، ولكن هذا له جزاء وهذا له جزاء آخر، رغم أن العمل فى ظاهره واحد، إنما فى حقيقته مختلف، كذلك مشيئة البشر، قد يسعى شخصان لهدف واحد، أحدهما يحققه، والثانى لا يصل إليه سواء اختارا طريق الخير أو الشر، الاختيار لهما ولكن التوفيق أو الإتمام يأتى من المشيئة، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يأتى يوم القيامة فيصفه بأنه يوم تبلى السرائر، يقف اثنان أمام رجل فقير محتاج، أحدهما يضع فى يده المال سرا ويختفى من دون أن يراه أحد، والثانى يقف حتى يأتى الناس ويقول بأعلى صوته: «جنيه كامل أهوه» ليسمعه الجميع، وتكتب للأول حسنة، ولا تكتب للثانى، مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يصل إلى الرجل جنيهان ولو عن طريق غير طريق إرضاء الله بالإحسان على الفقير، فيأتيه جنيه بالإحسان، ويأتيه جنيه آخر بالتباهى والتفاخر، ورغم أن الوسيلتين مختلفتان. إلا أن المشيئة تمت، ووصل إلى هذا الرجل رزقه الذى قدره الله له، فالإنسان يختار بين البدائل نعم، ويسعى فى الخير أو الشر نعم، ويأتى الشيطان ليغرى، وطاعة الله لتذكر الإنسان، ثم يتم العمل إذا التقت المشيئة به، أما إذا لم تلتق، فقد يأتى شىء يوقف هذا كله.

والأمثلة فى الحياة كثيرة، قد تذهب إلى طبيب مشهور فيعجز عن أن يشخص لك الداء، ويعالجك خطأ، ثم يأتى طبيب صغير - ربما بما نسميه نحن الصدفة - ليكشف عليك؛ فيهديه الله إلى المرض الذى تشكو منه، وتتعجب أنت كيف يتفوق تلميذ على أستاذه، مع أن الأول أكثر علما وخبرة، و الثانى لا يزال مبتدئا، ولكن الله يريد أن يلفتك إلى أن ما فى الكون هو الذى يعطيه، وأنه إذا كانت القاعدة أن الطبيب المشهور الذى درس ونجح، وأمضى سنوات طويلة من الخبرة هو الذى يستطيع أن يكشف الداء، فإن

---

(١) رواه البخارى [١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه واللفظ له، ومسلم [١٩٠٧/ ١٥٥]. بلفظ: «بالنية» بدلاً من «بالنيات».

هذه القاعدة لابد أن تسرى ؛ لأن الحياة فى الأرض تمضى بالأسباب، ولكن فى الوقت نفسه يلفتك إلى أن اللّه سبحانه وتعالى هو الذى أعطى لهذا الطبيب ثمرة بحثه من العلم، وأنه حين يسلبها منه فى حالة من الحالات، إنما ليذكرنا أننا يجب أن نعترف بفضل اللّه على كل واحد فينا وهبه إياه، فعلم الطبيب الكبير هو فضل من اللّه، أعطاه له بالأسباب، وهى الاجتهاد والاطلاع والبحث، وحالة الطبيب المبتدئ الذى اكتشف الداء، هو إلهام من اللّه أعطاه له ليلفت الناس إلى أنه إذا كان قد وضع فى الكون قوانين، فهناك فوق القانون مشيئة اللّه، وأن هذه القوانين تعمل بإذن اللّه وقدرته ؛ ولذلك فهى نعمة يجب أن نشكر اللّه عليها.

وفى حياة كل منا أمثلة كثيرة، لأشياء أرادها وعمل من أجلها وييسرها اللّه له، حياتنا كل يوم فيها هذه النماذج التى نعيشها كل يوم، على أننا سنناقش هذا الموضوع بالتفصيل عندما نصل إليه.

نعود إلى قول اللّه تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١]، الصورة الموجودة أن الشمس تبدو لنا على صورة كرة، فما معنى قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾، بينما هى فى واقعنا تبدو لنا مكورة فعلا؟

وقبل أن نتناول هذه النقطة، نقول إن تكوير الشمس الذى يبدو لنا، هو مالا يتصل بفاعليتها، فالشمس سواء بدت لنا مكورة أو غير ذلك ؛ الذى نستفيده منها هو الأشعة التى تصل إلينا من الشمس، وأشعة الشمس منبسطة فى الوجود كله، فى الكون كله، فإذا كانت الشمس على هيئة كرة، أو غير ذلك، بدون أن تصل أشعتها إلى الأرض، انعدمت الفائدة منها بالنسبة للبشر، وتكوير الشىء فى اللغة، معناه طىّ الشىء، أى إيذان بانتهاء مهمته، فأنت إذا طويت الكتاب، معناه أنك انتهيت من قراءته، أو قراءة الفقرة التى تريد الانتهاء منها، وهناك فى الكون أشياء تؤدى مهمتها بأن تطوى، وأشياء أخرى تؤدى مهمتها بالبسط، فالثوب مثلا إذا انتهيت منه طويته، ومقبض الباب لابد أن تقبض عليه حتى يؤدى مهمته بالفتح أو الإغلاق، إذن فما معنى إذا الشمس كورت؟إنها لفتة من اللّه سبحانه وتعالى.

والقرآن كما قلت يخاطب كل العقول، ومن هنا فإنه لا يخاطب هؤلاء الذين يعملون فى علم الفلك فقط ويشتغلون فى اكتشافاته، ولكنه يخاطب هؤلاء، ويخاطب معهم عقول كل البشر، ولذلك فإن شكل الشمس كما يبدو لنا من بعيد أو شكلها عندما نقترب منها، حيث نرى ألسنة اللهب تمتد إلى مسافات بعيدة، كل هذا لا يأتى فى الحسبان، لماذا؟ لأنه تنطبق عليه القاعدة جهل لا يضر، بمعنى أنه سواء علمت أسرار الشمس أو لم أعلمها، وسواء قضيت السنوات الطويلة أدرس فى طبيعة تكوين الشمس أو لا أدرسه، فإن هذا كله لا يؤثر فى انتفاعى بالشمس فى حياتى اليومية، فأنا أستفيد بالشمس، كرة كانت أو ألسنة لهب، أو أى شكل آخر، ذلك أن استفادتى منها هى من

الأشعة التى تصل إلى الأرض من الشمس، تلك التى تبعث الدفء فى الأرض، وتنمى الزرع ولها دور كبير فى حياة الكون كله، فإذا كانت الشمس على هيئة كرة، أو غير ذلك، فهو ما لا يتصل بفاعليتها، إذ إنها لو كانت على أى شكل من الأشكال، ومنعت أشعتها من أن تصل إلى الأرض، انعدمت فائدة الشمس للبشر، وأصبح وجودها كعدمه، ما دامت لا تؤدى مهمتها فى حياة الإنسان.

ولكن ما معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾؟

إنها لفتة من الله سبحانه وتعالى تعنى أنه إذا الشمس قد انتهت مهمتها فى الكون، والأشعة المنبسطة التى ترسلها كل يوم إلى الأرض كخيوط دقيقة تنزل منها، هذه الأشعة كورت، وأصبحت ملفوفة، أى إنها أصبحت تحيط بالشمس وحدها، من دون أن تصل إلى الأرض، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ معناه: أنه لم يعد لها مهمة فى الوجود، وهذه من علامات انتهاء الحياة فى الكون وقيام الساعة.

لكن لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى فى الآية: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ؛ ذلك ليعطينا الفرق بين الدنيا والآخرة، فهذه علامة لنهاية وبداية ؛ نهاية عالم نعيش فيه بالأسباب، وبداية عالم تنتهى فيه الأسباب، ففى الدنيا الحياة تسير طبقا لقوانين معينة وضعها الله سبحانه وتعالى، وهذه القوانين نستمد منها الحياة، فمهمة الشمس فى إرسال أشعتها إلى الكون، هى استمرار الحياة الأرضية، ولكننا فى الآخرة لسنا محتاجين إلى هذه الأسباب، ولذلك فإن الشمس تنتهى مهمتها وتصبح الحياة، أو الوجود، بطريقة مخالفة، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [ابراهيم: ٤٨].

لماذا؟ لأن الأرض هذه خلقها الله وفيها عناصر الحياة بالسبب، فوضع فيها العناصر التى تمد النبات بالغذاء، والتى تمد الأرض بالماء، إلى آخر ما هو موجود من خلق الله مما يتناسب مع الحياة على الأرض، و الإنسان عليه أن يزرع ويجتهد ويعمل حتى يستطيع الحياة على الأرض ؛وحتى تمضى هذه الحياة التى وضع الله لها القوانين، ولكن فى الآخرة لن يعمل الإنسان ولن يزرع، ولكن الله سيعطيه بلا أسباب، يخطر ببالك الشىء، فيجىء لك، إذن فالأرض بحالتها الراهنة، والسماء بما تؤدى من مهام، كلها لخدمة حياة الإنسان على الأرض ؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى قد سخر كل ما فى السماوات والأرض من قوى لخدمة الإنسان، ولكن الأمر يختلف فى الآخرة، لأن هذا التسخير ينتهى، وتصبح الحياة مختلفة تماما.

فالتكوير: معناه التف ضوؤها وإشعاعها ولم يعد يصل إلى الكون، وانتهت مهمة الشمس وطويت أشعتها وأصبح الوجود غير الوجود.

وتمضى السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ٢].

ومعنى الانكدار فى اللغة: هو الانصباب، أو الانقضاض، ومهمة النجوم تأتى فى

وجودها فى أماكنها فى الفضاء، فإذا ما هوت النجوم كما سيحدث عند قيام الساعة ؛ فمعنى ذلك أيضا أن مهمتها قد انتهت هى الأخرى ولم يعد لوجودها بشكلها الحالى معنى.

وتمضى السورة الكريمة: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

وهذه الجبال الشاهقة التى نراها أمامنا راسية شامخة، هى الرواسى التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى الأرض ؛ لتجعل حركة الأرض رتيبة ليس فيها أى اضطراب، وطبعا ما ينطبق على الشمس والنجوم، ينطبق على الجبال، فمهمتها هى فى الحياة الدنيا وحدها، لتحفظ التوازن فى الكرة الأرضية، وتمد البشر بما يحتاجون من معادن، وتتكون على قممها الثلوج التى تمد عددا من الأنهار، والعيون بالماء، إلى آخر ما نعرفه، وما لا نعرفه عن مهمة الجبال فى الأرض، ولكن هذا كله لا لزوم له فى الآخرة، حيث تتبدل الحياة تماما، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

وتمضى السورة الكريمة: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤].

واللفظ يأتى فى القرآن، يحاول العلماء أن يجيئوا بكل الاستعمالات اللغوية له وينظروا أنسب معنى لغوى يؤديه، فالعشار تطلق على النياق ومفردها ناقة، ويكون مرت على حملها عشرة شهور، وذلك إيذانا بأن الواحد سيصبح اثنين، ثم يأتى مع المولود الجديد اللبن الذى يكون منه غذاؤه وغذاء الإنسان، ومعنى ذلك أن التكاثر هنا غير مطلوب بأسبابه ؛ أى إنه إذا العشار عطلت لم يصبح هناك أية حاجة إلى الازدياد البشرى بالطريقة التى وضع الله قوانينها فى الأرض، فتلك الطريقة ؛ طريقة الميلاد وضعت حتى لا ينقرض كل من يعيش على الأرض بعد فترة من الزمن، ذلك أن الحياة ما هى إلا رحلة قصيرة فى عمر الزمن، وإذا كان الموت مكتوبا على كل حى، فإن الميلاد هو الذى يضمن للحياة استمرارها وحركتها، وإلا إذا كان الموت بلا ميلاد، يكون هناك انقراض للبشرية، وكل من فى الكون، والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا فى هذه النقطة، إلى أنه لا حاجة وقت أن تأتى الآخرة لهذا التزايد والميلاد، لأن الآخرة خلود، فهى إما جنة أبدا، أو نار أبدا، أى إنه فى هذه الحالة لسنا محتاجين للتكاثر العددى، للإبقاء على النوع، لأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد ألغى الموت فى الآخرة ؛ ووضع بدلا منه الخلود، فإنه لا حاجة للتكاثر والتزايد بالأسباب البشرية، فالله سبحانه وتعالى سيلغى الأسباب فى الآخرة، وستصبح كل النعم بلا أسباب، بكلمة: ﴿كُن﴾، وبمجرد التفكير فيها، والله سبحانه وتعالى وضع التكاثر بالأسباب فى الدنيا، ولكن فى الآخرة ما دامت قد ألغيت الأسباب، يكون التكاثر أو الزيادة إذا أرادهما الله سبحانه وتعالى، أو بالخلق المباشر، يكون بلا أسباب سوى كلمة: ﴿كُن﴾.

والله يريد أن يقول لنا إنه فى يوم القيامة ستتوقف كل الأسباب التى وضعتها الحياة فى الأرض، ويتبدد كل شىء، هنا تفسير آخر بأن هذا المعنى يشمل أيضا السحب، تحمل

الأمطار إلى الأرض، لينمو الزرع ويزدهر، ولا حاجة لذلك ولا مهمة فى الآخرة، ولذلك فإن السحب ستتعطل مهمتها، وتتوقف.

ثم تمضى السورة الكريمة: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥].

ومعنى: ﴿ ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾، أى: جمعت، وهل الوحوش غير مجموعة؟ طبعا لا؛ لأن كلمة الوحوش معناها الأنعام غير المستأنسة، فلا يمكن أن نستأنس الوحوش المفترسة ونرعاها مثلاً ونهيئ لها أسباب التكاثر كما نفعل مع الأنعام المستأنسة التى خلقها الله للإنسان لتكون سبباً مساعدا فى حياته بإمداده بالألبان واللحوم وغير ذلك مما تؤديه من مهام فى الأرض، وبعض الناس يقول إنك يمكن أن تستأنس الوحوش، فهناك مدربو الحيوانات المفترسة، وهؤلاء يستطيعون أن يسيطروا عليها بشكل ما حتى يفعل الأسد ما يريده المدرب منه ويطيعه ويصبح بلا خطر عليه، وهذا يصح فى بعض الأحيان، ولكن الشىء الذى لم يتنبه إليه البشر؛ أن هذه أشياء فردية لا تمثل قاعدة عامة فى الكون، ولذلك فنحن لا يمكن أن نرى مدرباً مهما كانت مهارته أو قدرته يستطيع أن يستأنس أسدا بحيث يصبح هذا الاستئناس وراثيا، أى بأن ينتقل إلى ابن هذا الأسد، ومن ابنه إلى ابنه، أى إن الاستئناس هنا هو عمل فردى لا يخرج النوع عن طبيعته الوحشية، وإن أخرج فردا واحدا منه، يزيد على ذلك أن الاستئناس بهذه الطريقة لا يتم بالكمال الإلهى، ولكن بالقدرة البشرية المحدودة، فقد يفترس الأسد مدربه فى لحظة غفلة منه، ولكنك لا ترى، ولا يمكن أن ترى كبشا، أو جملاً، أوبقرة تفترس إنسانا، بل إنك ترى الطفل الصغير الذى لا حول له ولا قوة يقود ذلك الجمل الهائل فيطيعه ويفعل ما يريد، رغم أن قوة الجمل تساوى قوة الطفل مائة مرة، ولكن الذى أخضع الجمل للطفل ليس قدرة الطفل، ولكنها قدرة الله التى جعلت هذا الجمل بضخامته يخضع خضوعاً تاما للطفل الصغير على ضآلته؛ لأنه مسخر من الله له.

فالإنسان لا يستطيع أن ينقل الاستئناس إلى وحش من الوحوش، ويجعله مسخرا لخدمته ولذلك فإن ما يحدث بالنسبة للوحوش هو استئناس من ذات واحدة، أو من وحش واحد لإنسان واحد لايتكرر ولا يتبدل إذا تغير أحدهما، ولكن الأنعام الأخرى مستأنسة بتسخير الله لها لخدمة الإنسان.

السؤال هنا هو لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾؟ خلق الوحوش أساسا فى الكون له حكمة لابد أن ننتبه إليها، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يُظهر فى الكون آيات تلفتنا إلى قدرته، ونحن حين نرى الحيوانات المستأنسة فى خدمتنا نسخرها حيث نشاء، نعتقد أن هذا نابع من قدرتنا، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هذا تسخير منه - وليس قدرة منا - ولذلك فقد خلق الوحوش لترد على أى إنسان يريد أن يدعى أنه قد أخضع ما خلق الله له من أنعام فى الكون بقدراته هو، فيقول

له: إذا كنت قد فعلت ذلك بقدراتك، فهذه وحوش لم أسخرها لخدمتك، فاستخدم قدراتك وأرنى إذا كنت ستستطيع أن تسخرها أنت أيها الإنسان لخدمتك، ولذلك فإننا حينما نرى هذه الحيوانات المفترسة، القليلة العدد فى العالم، نتذكر ذلك الكم الهائل من الأنعام التى خلقها اللّه لنا، وسخرها لنا بقدرته، فنحس أن الكون يسير بقدرة اللّه، ونشكر اللّه سبحانه وتعالى على نعمه.

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ معناه أن طبيعة تكوينها أنها غير مجموعة بل نافرة وغير خاضعة لنا، ونحن لا نجتمع معها فى مكان واحد، بل هى تنفر منا ونحن ننفر منها، ومعناه أيضا أنها نافرة طوال فترة حياتها تبحث عن فرائسها، ومعناه أيضا أنها نافرة من بعضها البعض؛ لأنها تعتدى على بعضها البعض، ويفترس الواحد منها الآخر من النوع نفسه أحيانا دفاعاً عن نفسه، و القوى منها يفترس الضعيف، وقد يستطيع الضعيف أن يتغلب على القوى إذا أخذه على غرة، هذه الوحوش يوم القيامة تجدها قد جمعت وظهرت كلها، تقف أمام الناس هادئة خاشعة من هول الموقف، أى إنها تخرج عن طبيعتها.

وتمضى السورة الكريمة: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦].

ما هو معنى التسجير، إذا أردنا أن نصل إلى المعنى الذى يمكن أن يدخل إلى أذهاننا بسهولة ويسر، فلنتذكر تفجير ذرة، وما يحدثه من طاقة هائلة، من النيران و الدمار، فإذا طبقنا المعنى نفسه على البحار، نجد أن المعنى قد اقترب منا فى قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾.

أى: إذا امتلأت نارا، والمعنى الآخر، وهو أنها تضطرب وتهيج، وارد أيضا بمعنى أن جزءا من هذه البحار قد ينفجر قاعه ليصبح نارا ملتهبة، وجزءا آخر قد يضطرب ويغرق الأرض، والمهم فى هذا كله هو الخروج عن المألوف، أو الذى تعودناه، إلى شىء لم نتعوده ولم نألفه بتاتا، أى تغيير شامل فى حياة الكون.

نأتى بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨].

تنطق الموءودة فى يوم الحق لأنه يوم الملك الحق، لمن الملك اليوم للّه الواحد القهار.

والناس هنا تتعجب من هذه الصياغة: ﴿ ٱلْمَوْءُۥدَةُ ﴾ هى التى وضعت فى التراب حية بعد ولادتها، وكانت عادة وأد البنات منتشرة عند العرب فى الجاهلية، ولكن الآية تقول: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝ ﴾ [التكوير].

وهل الموءودة تُسأل؟ وهل تعرف بما تجيب وهى التى اعتدى عليها بغير ذنب جنته؟ إن هذه العادة السيئة التى كانت سارية فى الجاهلية كانت عملية فظيعة جدًّا ضد المرأة، فالطفلة التى حدث عليها مثل هذا العدوان الرهيب أنت سبب فى إيجادها، أى هى

بعض منك، ومن مثلها وجدت، وهذا دليل على قساوة القلب، وقساوة العواطف، ذلك أنك عندما تقوم بهذا العمل تتجرد من إنسانيتك تماماً لأنك تعاقب طفلة على ذنب أنت سببه، وتعاقب نوعاً على ذنب منه وجدت، وتعتدى على من لا حول له ولا قوة، ومن لم يقم بأى أذى، أو أى عمل ضدك.

والله سبحانه وتعالى حين يأتى بهذا، إنما يريد تقريع الأب الذى أقدم على هذه العملية التى تخالف كل قيم الإنسانية، ويريد أن يعرفه أنه سيسأل عن ذلك يوم القيامة فيوجه السؤال للطفلة: ما السبب الذى دعا أباك إلى أن يقوم بهذا العمل الوحشى؟ ماذا فعلت حتى يقوم أبوك بمعاقبتك بهذه الطريقة؟ وطبعا سيكون الرد: أنها لم تفعل شيئا، ويتم حساب الأب ما دامت هذه الطفلة لم تكن قد ارتكبت ذنبا، فلماذا فعلت بها هذا؟ وهو فى حقيقته باستخدام هذه الألفاظ إنما أراد الله أن يستحضر أمام الأب الصورة الكريهة لعمله ضد طفلته، فيأتى بالطفلة البريئة ويسألها لماذا قتلك هذا الأب بلا ذنب؟ والأب حاضر يستحضر كل هذا المنظر الذى حدث فى الحياة الدنيا فيعرف هول ما ارتكبه، ولو أن السؤال كان للأب فربما حاول اختلاق الأسباب أو تعليل فعلته، ولكن سؤال الابنة أمام الأب يجعله يحس بعظم ذنبه ولا يجد ردا.

ثم تمضى الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧].

وكلمة النفس حار فيها الفلاسفة على مر العصور، مرة يقولون إنها الروح، ومرة يقولون إنها القلب، ومرة يقولون إنها المادة، ولكن الحقيقة أن كلمة نفس تطلق على امتزاج الروح بالمادة، فإذا كانت الروح وحدها دون أن تدخل أو تمتزج بأى مادة سميت الروح، وإذا كانت المادة وحدها بدون أن تمتزج بأى روح، سميت المادة، فإذا تم الامتزاج سميت النفس، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

ما معنى يتوفاها؟ معناها أنه يفصل الروح عن الجسد، هذا هو معنى «يتوفى الأنفس»، فإذا عادت الروح إلى الجسد عادت النفس من جديد، وما دام هذا هو مدلول النفس، أى امتزاج الروح بالجسد فكيف يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة؟ ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾.

معنى ذلك أن الأرواح التى خرجت من الأجساد عادت إليها مرة أخرى، فالموت هو انفصال الروح عن الجسد، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾، أى إن المادة ستعود إلى الروح، وتعود النفس مرة أخرى بعد أن ذهبت بالموت، ولكن المعنى هنا يتجاوز هذا بحيث يمتد إلى الحياة الدنيا كلها، فإذا النفوس زوجت، ليس معناه فقط أن المادة والروح عادتا مرة أخرى فالتحمتا، ولكن معناه أنهما عادتا معا أيضا، كل عمل قام به الإنسان فى الدنيا وافترق عنه، سواء كان خيرا أو شرا؛ فالعمل الذى يقوم به الإنسان فى حياته الدنيا فيه أشياء لا تفارقه إلا بالموت، وهناك أشياء اقترفها أو قام بها لفترة من

الفترات ثم نسيها، وأشياء أخرى اعتقد أن أحداً لم يره، مع أن الله يسمع ويرى، المهم أن كل هذه الأشياء سواء التى اقترفت وأنا فى الحياة، أو التى واصلت معى الرحلة إلى نهاية الحياة كلها ستأتى فى هذه اللحظة مع عودة الروح والمادة إلى امتزاجهما تعود معهما أعمال الدنيا التى ظن الإنسان أنها انتهت، ولكن بعض الناس يظن أن عمل الشر الذى قام به ما دام قد فارقه قد انتهى، وبعض الناس يظن أن عمل الخير الذى قام به ما دام فارقه قد انتهى، ونقول لهؤلاء: لا، فكل شىء محسوب ومكتوب، وذلك الذى يظن أنه فعل ذنبا وهرب من العقاب، أو لم يره أحد، والذى يفرح ويسمى نفسه بالعبقرى، أو الفهلوى لأنه استطاع أن يخدع الناس ويحصل على مال حرام، أو يسرق جهد غيره، إنما هو فى الحقيقة يتمتع بقسط كبير من الغباء، لماذا؟ لأنه خاف من قدرة الإنسان المحدود القدرة، ونسى الله بقدرته المطلقة التى ليس لها حدود ولا قيود، هو خدع بشرا، أو مجموعة من البشر، تلك مسألة تافهة، ولكن الله يسمع ويرى، وهو يراه وهذا هو المهم، لأن قدرة الله تفوق قدرة البشر جميعاً ملايين المرات، ولا أدرى كيف يفرح إنسان بالهرب من مجموعة لها قدرات محدودة، وينسى أن قدرة الله سبحانه وتعالى تراقبه، وأن الله عزيز مقتدر، ولو فكر الإنسان بذرة من العقل، لعرف الحقيقة إنه لم يخدع إلا نفسه وإنه لم يكسب بل خسر كثيرا، لماذا؟ لأنه فى انشغاله ولهفته على أمور الدنيا خاف من عين بشر تراه، أو علم بشر يصل إليه، ونسى عين الله التى لا تنام، وعلمه الذى لا يغفل عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، تلك حقيقة لا بد أن نتذكرها جميعاً لأنها أساس الإيمان، فحين ننسى الله ونخاف البشر نكون قد خرجنا من دائرة الإيمان الحقيقى.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ ؛ ما معنى ﴿ نُشِرَتْ ﴾؟ معناها أن هذه الصحف كانت مطوية، مخفية عن البشر فى الدنيا فبعض الناس كان يفعل أشياء فى الخفاء لا يعلمها أحد، والبعض الآخر كان يحرص على إخفاء حقيقته ويظهر بعكس هذه الحقيقة، وبعض الناس كان يقول شيئاً وفى قلبه شىء آخر يكذب وينافق ويفعل ما يغضب الله، وطوى هذا كله وانتهى برحيل الإنسان عن الحياة ونسى ولم يعد شيئا مذكورا، هذا هو المألوف فى الدنيا، ولكن وكما قلت فإن الآخرة هى خروج عن كل مألوف فى الحياة الدنيا، ولذلك فإن ذلك الذى طوى - وأصبح نسيا منسيا واعتقد الناس أنه انتهى ومات ولم يعد له وجود دنيوى - سينشر يوم القيامة ويعرف ويراه صاحبه أمامه.

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

فالذى يعتقد أنه حصل على مغانم فى الدنيا بطريقة أو بأخرى مما حرمه الله، سيواجه يوم القيامة بأن كل هذا قد حضر أمامه، وجاءت لحظة الحساب، إنه لا يواجه هذا فى الدنيا بل يواجهه فى الآخرة، وبينما هو يحسب، وكل من فى الأرض يحسب أن ما فات طوى فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا، أنه إذا كان هذا هو المألوف فى الدنيا، فمقاييس الآخرة تختلف، وكل شىء سيكون حاضرا، ذلك الذى ظنه الجميع نسيا منسيا.

إذن.. فالعمل الدنيوى يكون له وجود فى الآخرة ساعة يتم الحساب، والذى يعتقد أنه حصل من مغانم فى الدنيا بطريقة أو بأخرى مما حرمه الله، سيواجه يوم القيامة بأن كل هذا قد حضر أمامه.. وجاءت لحظة الحساب التى قد لا يواجهها فى الدنيا، بينما يواجهها فى الآخرة.

إن الذى يعاقب على ما فعله فى الحياة الدنيا، خلال فترة وجوده وحياته، هو من رحمة الله عليه، ذلك أن عقاب الدنيا مهما كان قاسيا، لا يمكن أن يقارن بيوم القيامة.

ثم تمضى السورة الكريمة: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١].

وعلم الإنسان عن السماء علم محدود جدًا، رغم كل الاكتشافات التى تمت حتى الآن، فالسماء لا تزال بنيانا مغلقا أمام البشر، وستظل كذلك إلى يوم القيامة، وكل الاكتشافات التى تتم، والتى ستتم فى المستقبل ستبقى معها أسرار السماء مغلقة على العلم البشرى، فاتساع السماء يمتد ملايين السنوات الضوئية التى لا يمكن أن يصل إليها علم البشر، والله سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾، معناها: كشف أسرارها للبشر، ويرى ويعرف ما لم يكن يراه ويعرفه فيما مضى، أو فى حياته الدنيا، فأسرار السماء مغلقة أمام البشر تماما، وبعدها لا نهائى، والله سبحانه وتعالى قد جعلها مليئة بالأسرار، ولا نهاية فى اتساعها، حتى لا يصل إليها علم البشر، فالإنسان محتاج إلى ملايين السنين ليصل إلى بعض الكواكب التى نراها، فكيف ما لا نراه؟

رؤية النار.. والجنة ؛ وعلم اليقين

﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ ﴾ [التكوير].

هذه هى عملية الهول الأكبر، يوم يرى الإنسان الجحيم، ويرى الجنة، يراهما عيانا بيانا.

والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة التكاثر: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝ ﴾ [التكاثر].

ومعنى ذلك أن أنواع العلم عند الله متعددة، والله سبحانه وتعالى يعطينا العلم أولاً خبرا من عنده، يصدقه المؤمن وينكره الكافر، ويبقى هذا الخبر موضع جدل عند غير المؤمن، ثم بعد ذلك عندما تصدق الخبر الذى قاله الله سبحانه وتعالى، يكون ذلك عندك علم اليقين، أى: إنك تؤمن يقينا بأنه ما دام الله سبحانه وتعالى هو القائل، فهو علم يقينى لا شك فيه، وكأننى أراه، ولو أننى لم أره عين اليقين، ثم ينتقل بعد ذلك إلى صورة حسية يوم القيامة، أو عندما يشاء الله، بمعنى أنه بعد أن كان معنى أو صورة فى عقلك يصبح صورة تراها عيناك، وهذه الصورة هى حق اليقين، لا جدال فيه، وذلك فى يوم القيامة، يوم ترى كل شىء بعين اليقين.

والإنسان فى حياته الدنيا، يغيب عنه أشياء كثيرة، فالله سبحانه وتعالى وضع سنة الحياة متكاملة ورسم طريقها كاملا، ولكن بعض الناس يطبق القوانين فيما يتعلق بأمور الدنيا وينساها، أو ينكرها فى دين الله، فأنت إذا بدأت حياتك، ذهبت إلى المدرسة لتدرس وتحصل، وأنفقت الأموال، وأمضيت السنوات، فى عمل مضن، فإذا سألك أحد لماذا تفعل هذا، ولماذا لا تلعب وتلهو كما تريد، بدلا من السهر والمذاكرة والإرهاق، قلت له، إننى أبنى مستقبلى، واقتنع هو بذلك، بل ولى الأمر يغضب ويثور، عندما يرى إهمالا من ابنه فى بناء مستقبله، ثم تأتى الثمرات بعد ذلك، وأنت حين تمرض مثلا، يقول لك الطبيب، لا تقرب هذا الطعام، وخذ هذا الدواء، والطعام الذى يحرمك منه الطبيب، قد يكون لذيذا محببا إلى نفسك، والدواء الذى يعطيه لك يكون مرا كريها إلى نفسك، ولكنك رغم ذلك كله تمتثل لأوامر الطبيب حتى تشفى من مرضك، وتعود إليك صحتك وأنت فى شبابك تحاول أن تعمل وتكسب بقدر ما يمكن، وأحيانا ترهق نفسك، لماذا؟ حتى تجد حاجتك عند الشيخوخة، أو عندما تضعف صحتك، ولا تقوى على العمل.

العجيب أنك تطبق هذا كله فى حياتك الدنيا على أساس أنه أمر مسلم به، وتتهم من لا يفعل ذلك أنه فاقد العقل، يجنى على نفسه، وسيحصد الفشل والألم فى حياته، فالطفل الذى لا يذهب إلى المدرسة، تقول إن أباه ناقص العقل ؛ لأنه لا يعده للمستقبل، والمريض الذى لا يتناول الدواء ولا يمتنع عما يضره من الطعام، تتهمه بضعف الإرادة، وتقول إنه يجنى على نفسه، والإنسان الذى لا يعمل وهو شاب ويلهو تقول إنه سيحصد الندم فى شيخوخته، ولكن ذلك الذى يمضى فى الحياة الدنيا ناسيا الله، وناسيا الآخرة، وناسيا الحساب، وناسيا كل ما ينتظره، نقول عنه إنه إنسان فهلوى أو شاطر، بينما القوانين نفسها تنطبق عليه، بل أقسى، فهو يهدر حياته الدنيوية، وعندما يصل إلى الآخرة، يكون رصيده صفرا، فى موقف الهول الأعظم، نقول إن التلميذ الذى لا يذهب إلى المدرسة عندنا فاشل، والمريض الذى لا يتبع أوامر الطبيب ناقص العقل، والإنسان الذى لا يعمل فى شبابه قصير النظر، وذلك الذى يعصى الله فى الدنيا ولا يطيع أوامره، ويضيع دنياه وآخرته لا ننظر إليه النظرة نفسها، مع أن قانون الله واحد فى جميع الأحوال، والدراسة، أو الدواء، أو العمل الشاق، ليست أشياء محببة إلى النفس، وهناك مما حرمه الله، ما هو محبب إلى النفس، ولكنك للأسف الشديد تجد بعض الناس يحرم نفسه من أشياء كثيرة، ليحصل على الشهادة أو المال، أو ليبرأ من مرض، ولا يبذل الجهد نفسه ليرضى الله ويمتنع عما حرمه، وإذا كان رصيده صفرا فمأواه جهنم وإذا وحد الله أصبح الصفر بالواحد قيمة وقيم التوحيد اتباع المنهج وبه الفوز.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ ﴾ [التكوير].

هنا يأتى وقت الحساب، تماما كما تأتى السن التى يندم فيها الشاب، على أنه لم يتعلم، والمريض على أنه لم يتناول الدواء، والشاب على أنه لم يعمل، يأتى ذلك الوقت الذى يندم فيه الإنسان على أنه عصى الله، رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أمهله مرات ومرات، وأراه العذاب الأصغر، وذكره بما يفعل، ولكن النفس البشرية تريد أن تسعى إلى نفع عاجل، وتعتقد أن الدنيا بلا نهاية، والحياة - مهما بلغ العمر - ممتدة، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لم أر يقينا أشبه بالشك من يقين الإنسان بالموت»[1]، ذلك أن الإنسان مهما بلغ عمره وهو يعرف يقينا أنه ميت ؛ يظن أن ذلك لن يأتى إلا بعد سنوات وسنوات، ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع حدوداً للاستمتاع البشرى، ولكن الطمع البشرى ظل بلا حدود، فالإنسان إذا أسرف فى الطعام مرض، وإذا أسرف فى الرفاهية أصابت جسده العلل التى أصبحت تعرف الآن عند الطب بأمراض الرفاهية، أو أمراض المدنية، ولهذا حكمة، إن ما يمكن أن تتمتع به وقتا أو كمية محدود حتى تحس أن ذلك الزائد عن الحد قد أُعطى لك لتعين به غيرك على حركة الحياة، وإنك

(١) سبق توثيقه.

إن لم تفعل ذلك فلا فائدة له عندك، ولكننا مع هذا كله وفى مشوار الحياة القصير ننسى أن اللّه يسمع ويرى، وننسى أن الحساب الذى أخبرنا اللّه عنه هو علم يقين فعلا، ولو تذكرنا هذا لعرفنا تفاهة ما نحصل عليه مقابل ما نفارقه، ولو تذكرنا هذا ونظرنا إلى قوانين الكون لعرفنا أن فى كل قانون من هذه القوانين حكمة تقديم العمل أولا للحصول على الثمار، وهذه الحكمة لا تمضى بدونها الحياة.. ونحن حريصون عليها فى الأعمال الدنيا، ننساها بالنسبة للآخرة، ولذلك يذكرنا اللّه سبحانه وتعالى بها.

ثم تمضى السورة الكريمة: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١٤].

أى: إنه إذا حدث هذا كله، وخرج كل ما فى هذا العالم عن المألوف، فالشمس والجبال، والنجوم، وكل آيات الكون الكبرى التى أخضعها اللّه سبحانه وتعالى للإنسان وسخرها له ووضع لها نظاما رتيبا تمشى به خرجت عن هذا النظام، وعن هذا المألوف وعن مهمتها؛ لأن الحياة الدنيا قد انتهت فى هذه اللحظة تعلم كل نفس ما أحضرت.

بعض الناس يتساءل هنا، لماذا استخدم اللّه سبحانه وتعالى ﴿ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾، ولم يستخدم ما أحضر لها، وهل النفس هى التى قامت بإحضار هذه الأشياء إلى الآخرة، أم أن قدرة اللّه سبحانه وتعالى هى التى أحضرتها له، ولكن كما قلت وأقول دائما لكل لفظ فى القرآن حكمة ودقة فى الاختيار، فلا يوجد شىء فى كتاب اللّه اسمه الصدفة، بل كل شىء بميزان دقيق.

اللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾، لماذا؟ لأن اللّه خلق الإنسان فى هذه الحياة وبين له طريق الحق، ثم بعد ذلك ترك حرية الاختيار فيما يفعل ولا يفعل، الذى آمن باللّه سبحانه وتعالى وصدق الرسالات دخل فى تعاقد إيمانى مع اللّه، فقال يارب لقد آمنت، وآمنت بمحض اختيارى، وبهدايتك لى، ومن هنا فإننى بإيمانى التزمت بما تقول فى أفعل ولا تفعل، فكأن الإنسان المؤمن ألزم نفسه أولا بالإيمان باللّه، ولذلك تجد اللّه سبحانه وتعالى حين يذكر الأوامر التكليفية فى القرآن، يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾.

فى كل أمر تكليفى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أى: يأيها الذين ارتضيتم الإيمان طريقا باختياركم الحر، وصدقتم فهذا هو المطلوب منكم.

إذن.. فالإنسان شريك هنا فى كل ما يتم من أفعال يحاسبه عليها اللّه سبحانه وتعالى بالثواب أو العقاب، ومن هذا يقول تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١٤].

لأنه لم يحضر لها شيئا لا علاقة لها به، وإنما أحضر لها كل شىء لها به علاقة، والنفس هى التى آمنت، وارتضت، وصدقت، ودخلت فى عقد إيمانى مع اللّه سبحانه وتعالى، ولذلك هى التى أحضرت، أى فعلت أعمالها.

وأولئك الذين لم يؤمنوا، هم الذين رفضوا الدخول فى الإيمان باللّه، وبرفضهم

هذا اختاروا طريقا آخر وفعلوا ما فعلوه باختيارهم هذا الطريق، ولذلك أحضر لهم ما فعلوه، لأنهم شركاء فى الفعل أيضا ليس بالإيمان، ولكن بالعمل، بإنكار رسالة الله، وبالعمل على عكس ما رسمه الله سبحانه وتعالى منها للحياة فى أفعل ولا تفعل، فالنفس البشرية شريكة فى كل ما تقوم به، وهذه النفس تعلم ما أحضرت فى يوم القيامة.

ولكن كيف تعلم؟ إذا كانت نفسا مؤمنة، فقد علمت بما آمنت به، نقول نعم، ولكنها علمت به علم يقين.

أى: أيقنت أن هذه الساعة ستتم، وأن الحساب سيكون، ولكنها فى هذه اللحظة ترى كل شىء عين اليقين، والنفس التى لم تؤمن أنكرت كل هذا، وحاولت أن تستره ومضت فى الدنيا تحاول بعقلها المحدود أن تشق طريقا آخر بمنطق الهوى، وليس بمنطق الحق، فى هذه اللحظة لم تكن عند هذه النفس صورة ما يحدث يوم القيامة، ولم تقبل على صورة ما أنزل لها من الله سبحانه وتعالى، فى هذه اللحظة تعلم علم اليقين، وترى عين اليقين، لا علم الصورة، وبعد أن كان الأمر مبهما، أو كان الأمر مستورا عنها، وأصبح واضحا مرئيا رأى العين، بحيث لا يستطيع أى واحد أن ينكر أى شىء، لا يستطيع من لم يؤمن أن ينكر فى هذه اللحظة وهو يرى عين اليقين.

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: لا تغتروا بثبات الوجود، لا تغتروا بأن الشمس تشرق كل يوم والأرض ثابتة، والجبال راسية، والدنيا تبدو وكأنها دائمة، لا تغتروا بكل هذا وينسيكم ما هو قادم، ذلك أنه فى اللحظة التى تنتهى فيها الحياة سيذهب كل هذا فى غمضة عين، كل ما تألفه وألفته سيضيع وينتهى، وكل ما تعودت عليه سيختفى وستجد عالما آخر مختلفاً تماماً عن ذلك الذى ألفته، بل لا يمت إليه بصلة، ستكشف لك أشياء لم تكن تعرفها، وستظهر لك أسرار كانت خافية عنك، إن هذا سيحدث ويجب أن توقن أنه سيحدث.

ويقول الله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٥]. ذلك أن الله عندما يحب أن يقسم، لا يجىء بمادة القسم أبدا، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ ﴾ [الطور].

ولا يقول: «أقسم بالطور» فإذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يقسم لا يأتى بمادة القسم، وإنما حين ينفى القسم فهذا تأكيد له، لماذا؟ لأن القسم على الشىء معناه اعتراف من المتكلم لشبهة المخاطب فى الإنكار، فأنت حين تتحدث مع شخص عن شىء ما، وتجد فيه الشك تقسم له، ولكن الله سبحانه وتعالى فوق هذا كله، ذلك أن علمه وقوله لا يصل إليهما الشك أبدا، فإذا قال شيئا سبحانه وتعالى، فيكفى أنه قال؛ لأنه هو الله، هو الخالق والعالم، هو الله.

ونحن إذا أردنا أن نقسم بشىء، أقسمنا بالله، لأنه عليم بكل شىء، شهيد على كل

ما يحدث، ولكن اللّه سبحانه وتعالى - وذاته مصونة - حين يخاطبنا فإنه ليس محتاجا لقسم لأنه لا يوجد من هو أعظم ولا أعلم منه ليقسم به، ومن هنا فإن قول اللّه وكلامه هما فى مرتبة القسم، بل أعلى من مرتبة القسم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

أى إنه كان يكفيهم أن هذا القول من اللّه ليتم التصديق.

ولكن اللّه سبحانه وتعالى لا يريد لأحد يوم القيامة أن يكون له حجة عليه، ومن هنا فهو يأتى بالبينات فى كتابه، ويضع من المعجزات فى القرآن ما يجعله كتاب هداية وصدق لكل من يعقل.

ثم بعد ذلك يقول اللّه سبحانه وتعالى لهؤلاء المنكرين، لو كنت مقسما، لأقسمت بكذا وكذا ولكننى لا أقسم؛ والقسم هنا لا ينصب على الحقائق التى يذكرها اللّه سبحانه وتعالى، ولكنه ينصب على صدق التبليغ عن اللّه، فيما جاء فى القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى حين يقول لا أقسم، فى هذه السورة، يأتى بعد ذلك بجواب وهو أنه لقول رسول كريم.

أى: إن القسم لا ينصب على كلام اللّه، ولكنه شهادة من اللّه سبحانه وتعالى على صدق البلاغ، وصدق الرسالة، إذن فنفى القسم هنا معناه أن اللّه سبحانه وتعالى لا يقسم؛ لأن كلامه أعلى من أى قسم فى هذه الدنيا.. ولإزالة الشبهة عما يثيره وسيثيره بعض المبطلين عن هذا القرآن، يقول اللّه سبحانه وتعالى: لو كنت مقسما لأقسمت بكذا وكذا، ولكننى لا أقسم، وهذا معنى النفى هنا، ويأتى هذا ليس عن الحقائق الموجودة فى القرآن، ولكن عن أمانة التبليغ، وهو ما سنتناوله بالتفصيل عندما نصل إلى الآيات التى تشرح ذلك.

يقول اللّه سبحانه وتعالى، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾.

والخنس معناها: الكواكب والنجوم، تطلع من أماكنها فى أبراجها ثم تعود إلى أبراجها، لماذا اختار اللّه النجوم فى هذا القسم؟ وفى قسم آخر: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝﴾ [الواقعة].

ذلك أنه فى خلق هذه النجوم من المعجزات والآيات الكونية، ما يعجز البشر جميعا، والبشر عاجز علميا وعقليا عن معرفة العظمة الموجودة فى خلق السماء؟ ولكن تكفى ومضة من الومضات لترينا هذه العظمة، كأن يكون بيننا وبين كوكب مئات الملايين من السنين الضوئية، لنرى البعد الشائع واللانهائى الموجود فى الفضاء لواقع هذه النجوم، ونعرف أن اللّه سبحانه وتعالى حينما صنع هذا الكون الهائل صنع فيه أشياء تصل أبعادها إلى مسافات يتوه فيها العقل، وجعلنا نراها لنحس بهذه العظمة، على أنه فى خلق النجوم وحركتها والنظام البديع فى هذا الكون آيات على دقة متناهية يعرفها كل من يدرس علم

الفلك، أو يعمل به ، فإن الحركة التى تتم فى السماء بهذه الدقة المذهلة، ومنذ ملايين السنين هى من صنع خالق عظيم.

والسبب الثانى للقسم ؛ هو أن هذه النجوم تمثل لنا حقيقة هامة فى الكون، فنحن نراها بالليل ولا نراها بالنهار مثلاً مع أنها موجودة، وهى تبدو لنا ثابتة بالعين المجردة ولكنها تتحرك، ولها مجالات مغناطيسية، إلى آخر ذلك، ومعنى هذا أننا عاجزون عن أن ندرك حقائق كثيرة من الكون إدراك الرؤية النظرية، ذلك أننا نعتقد أن ما نراه فقط هو موجود، أما ما هو غائب عنا فلا وجود له، ولكن الحقيقة غير ذلك تماما، فهذه النجوم سواء رأيناها إذا جاء الليل، أو لم نرها إذا طلع النهار موجودة فى أماكنها، لا تغيب بمجرد طلوع الشمس، ثم تعود عندما يأتى الليل فعدم رؤيتها بالنهار ليس اختفاء لها، ولكنه عدم إدراك منا لهذا الوجود، وهذه النجوم سواء لاحظنا حركتها أولم نلحظ، فلها حركتها فى الكون وعدم ملاحظتنا لهذه الحركة ليس معناه أنها توقفت، بل هى موجودة. ومن هنا فإن الله يريد أن ينبهنا إلى أن هناك أشياء نراها وأشياء تختفى عنا، ولكن اختفاءها عنا ليس انعداما لوجودها، ولكنه خروج بها من علمنا، أو بصرنا، ولذلك فإن ما سيحدث يوم القيامة بالنسبة للشمس والجبال، وكل ما ألفناه فى حياتنا اليومية، هو مخفى عنا، لا نستطيع أن نراه أو نرصده، ولكن هذا الاختفاء لا يعنى عدم الوجود، ولكنه يعنى عدم العلم منا بهذا الوجود، فإذا أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأن هذا سيحدث، فيجب فى هذه الحالة ألّا نحكم عقولنا أو علمنا، بل أن نصدقه، لأنه يأتى ممن هو أعلم منا، وممن خلق هذا الكون ووضع له نظامه، وإذا كنا نريد أن نعتمد على علمنا فقط، فالله يأتى لنا بأشياء ظاهرة، لا تحتاج إلى أبحاث، وإنما يراها كل الناس، ويقول لنا: إنكم لا ترون هذه النجوم وقت طلوع الشمس، ولكنها موجودة، فالانكدار هنا مردود عليه بأن علمكم قاصر، وحواسكم قاصرة.

والله سبحانه وتعالى قد ضرب على ذلك أمثلة كثيرة فى الإحساس بالوجود مع عدم فهم الشىء، أو قصورنا عن فهمه. لعل أبرز الأمثلة التى ضربها الله سبحانه وتعالى هو الروح ؛ ذلك أنه جعلها ظاهرة وخافية، وتلك هى المعجزة. ففى الوقت الذى هى فيه أوضح من الوضوح، هى من أدق الأسرار التى لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

فأين مكان الروح فى الإنسان؟ نفسر هذه النقطة قليلا، الإنسان أو أى كائن حى، نقول: الإنسان يمشى ويتحرك، ويرى، ويسمع، ويحس إذا كان حيا، فإذا خرجت الروح ذهب كل هذا وأصبح جثة بلا حراك، إذن نحن جميعا نرى الروح، ليس فى ذاتيتها، ولكن فى آثارها، نراها فى أنفسنا ونراها فى غيرنا من البشر جميعا، بل وفى كل الكائنات الحية، والدليل على الروح هو القدرة على الحركة، والكلام، والرؤية، والطعام والشراب، وكل ما يفعله الإنسان فى حياته، فلو خرجت هذه الروح لحملنا الجسد وواريناه التراب ؛ لأنه بدون الروح لا شىء.

هذه حقيقة ليست محتاجة إلى مناقشة، لأننا نراها رأى العين، ولا أحد يستطيع أن يجادل فيها، لأنه لا أحد يستطيع أن يجعل الميت الذى غادرت الروح جسده، يقوم بوظائف الحى، الذى مازالت فى جسده الروح، ومع ذلك فما هى الروح، لا أحد يعرف وأين مكانها، هل هى فى القلب الذى ينبض، أو فى العقل الذى يفكر، أو فى العين التى ترى، أو فى الأذن التى تسمع، أو فى اليد التى تفعل، أو فى القدم التى تمشى، إنها فى كل هؤلاء جميعا، ولكننا لانستطيع أن نحدد مكانها بالضبط، قد يقول بعض الناس إن الروح فى كل خلية حية، وهذا صحيح نظريا، ولكن إذا أصيب إنسان فى حادث، وبترت قدماه مثلا، فهل انفصل جزء من روحه، أم أن الروح باقية فى جميع أجزاء الجسم تؤدى وظيفتها كاملة، الذى انفصل وتم بتره هو الأداة التى تقوم بالعمل، أما الروح نفسها فما زالت تعطى وتهب الحياة للجسم، والدليل على ذلك أنها عندما تخرج يموت الإنسان فيتوقف كلية عن كل وظائف الحياة.

إذن.. فتحديد مكان الروح بالضبط، لا يمكن أن يصل إليه أدق العلماء، لأن آثارها والدليل عليها موجود فى كل أجزاء الجسم، ولكن وجودها لا يعطينا علما عنها وهذه هى المعجزة فها هى الروح، ظاهرة أمامنا فى كل جسد، ولكن إنسانا لن يستطيع أن يخرج روحا من جسد، ويقول هذه الروح، انظروا، هى التى كانت تحرك هذا الجسد كله، أو يعيد إدخال الروح إلى جسد تكون قد خرجت منه، وهنا رغم ظهور آثار الروح تماما، فإن السر مخفى عنا.

نصل بذلك إلى أن الروح هى التى تدير الجسم، وتعطيه الحركة والحياة، والحس، ظاهرة آثارها، ولكن بالله عليك ما شكلها، هل رأيتها، هل سمعتها، هل لمستها، إنها فى كل وسيلة من وسائل الحس، ولكنك مع وسائل الحس عاجز عن إدراكها، فإذا تحدث الله سبحانه وتعالى عن الكون، وحركته، وما لا تراه فيه، فلا تنظر إلى هذا القول، بالتعجب، لأن عنصرا خلقه الله سبحانه وتعالى، وأدخله فى جسدك، ثم جعله لا يدخل فى علمك، أو نظام حسك، أو قدرة رؤيتك، فإذا كان مخلوق من مخلوقات الله، وهو الروح، لا يدخل فى نطاق رؤيتك، فكيف يكون الخالق سبحانه وتعالى.

إذن.. فقسم الله سبحانه وتعالى بالخنس الكواكب التى تطلع من أماكنها، ﴿ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٦]. أى مكان الذى يأوى إليه الظبى، أو الحيوان والذى قد تمر عليه وهناك ظبى فيه وأنت لا تدرى ولا تعلم، ولكن لأن هذا أخفى عليك ليس معناه أنه غير موجود، بل معناه أن علمك لا يصل إليه.

ثم يجىء بعدها: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ ﴾ [التكوير].

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ معناها أنه اشتد ظلامه، ومعنى ذلك أن أولئك الذين ينكرون هذا إنما يعيشون فى جهل له ظلام دامس مثل الليل تماما، فهم لا يرون شيئا لأن الظلام الذى

وضعوه حول أنفسهم يقصر كل حياتهم على الماديات التى يرونها، هذا الظلام قد حجب عن أنفسهم نور الإيمان الذى كان يقودهم إلى الحقائق، ولف الشىء بالظلمة والظلمة الشديدة، هو إخفاء له عن النظر بدون اختفائه من الوجود، فالعلاقة هنا بين النجوم وظلمة الليل، والبيت الذى يختفى فيه الظبى أو الحيوان، تأتى فى معنى واحد، وهو وجود الشىء رغم عدم علمك به.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾. وهذه معجزة الحياة فى الكون، ولقد ثبت أن الكون كله يتنفس مع الصبح، تأتى ملايين الأشجار فى الكون، فتأخذ الهواء الفاسد، وتعطى الأوكسجين اللازم لحياة البشر، الحياة الصحيحة، ولذلك فكلما ابتعد الإنسان عن المدينة، والتلوث الذى يحدثه الكون، وذهب إلى مكان فيه حدائق وأشجار، كان ذلك أجدى لصحته وأحسن؛ لأنه سيعيش فى جو من الأوكسجين النقى، الذى يخرج من هذه الأشجار كل صباح فكأنه سيعيش حياة تملؤها الصحة، والناس حريصون على أن يحيطوا منازلهم والأماكن التى يعيشون فيها بالأشجار والحدائق لهذا السبب.

والصبح عندما يتنفس يكون نقيا، الأوكسجين قد أُطلق إلى الدنيا، ثم تبدأ الحياة، ووسائل المواصلات والمصانع، وكل ما فعله الإنسان لتفسد جمال ما خلقه الله من حياة للبشر.

﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾، أى إن له حياة، فكأن الصبح من وطأة ظلمة الليل الشديدة، التى تخرج فيها يدك ولا تكاد تراها من الظلمة، مع علمك بوجود هذه اليد، فإنك لا ترى مكانها، يأتى الصبح، وإشراق الضوء، ليعطينا الهواء النقى للتنفس، وتخرج الأشجار والنباتات الأوكسجين صالحا نقيا لأن يتنفس به الإنسان، فالكون فى الصباح فى ذلك الوقت يبدأ التنفس.

وإذا أردنا أن نضع المعنى متكاملا، فالله سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن أشياء ستحدث يوم القيامة، ثم قال لنا إن عدم علمكم بها لا ينفى وجودها، وأنها ستحدث، وأضاف أن علم الإنسان قاصر، كظلمة الليل تختفى بعض الأشياء فيها فلا تتبينها العين رغم وجودها، وأن هذا القرآن هو الصبح الذى يريك كل شىء بوضوح، وهو كعملية التنفس التى تتم على الأرض لأنه يدلك على طريق الحياة الطيبة الآمنة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، الدنيا كلها بجميع قدراتها، وعلومها وتقدمها، لا تصل إلى ذرة فى علم الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فإن ما يقوله الله سبحانه وتعالى ليس محتاجا إلى تأكيد، لأن قول الحق أكبر من أى تأكيد، وغير المؤمن يحاول دائما أن يدخل الشك إلى القلب المؤمن بكلمة كيف، ذلك أنه فيما تتناوله الآية الكريمة من علامات القيامة يحاول الإنسان أن يثير الجدل حولها بكلمة كيف، كيف سيحدث هذا؟

العلم البشرى يكشف لنا عن أشياء، ولكنه لا يستطيع أن يفسر لنا أشياء كثيرة تحدث فى الكون، والقانون الذى يربط الإنسان وهو نائم بالكون، غير القانون الذى يربطه وهو مستيقظ إنه عندما يكون منتبها متيقظا، تحكمه قوانين معينة، فيرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويمشى بقدميه، ويعيش حياته العادية، فإذا نام، رأى وعيناه مغمضتان، ومشى وقدماه لا تتحركان وحدثت له أشياء لا يمكن أن تحدث له فى الدنيا، ولا تخضع لمنطق العقل، وذلك يتم من دون أن يستطيع العلم أن يحدد لنا كيف، أو يكشف لنا كيف تتغير علاقة الإنسان بالكون، وتتغير كل القوانين التى تربطه به، وقد سألت صديقى العالم إذا كان الإنسان يرى بعينيه، فكيف يرى وهو نائم مغمض العينين؟ وإذا كان الإنسان يمشى بقدميه فكيف يمشى ويجرى فى الحلم وقدماه راقدتان فوق السرير؟ سألته لأنه دائما يريد أن يعرف كيف.

وقلت إن الأحاسيس التى تربط الإنسان بالكون وهو مستيقظ، تربطه وهو نائم ومع الأحاسيس بالشعور، فإذا رأى حلما يحزنه، قام والدموع فى عينيه، وإذا رأى حلما يبهجه، قام والبسمة على شفتيه، وإذا رأى حلما يفزعه قام فزعاً.

إذن.. فهناك قانونان مختلفان يتحكمان فى الإنسان؛ أحدهما يخضع له وهو مستيقظ، وهذا يدرسه العلم ويقترب منه ومن بعض حقائقه، والقانون الثانى يخضع له الإنسان نفسه وهو نائم وهو ما يحاول العلم أن يصل إليه ولكنه لا يستطيع، وهناك قانون ثالث يحكم علاقة الإنسان بالكون بعد أن يموت، ثم هناك قوانين ليوم القيامة، كل قانون من هذه القوانين يحدد علاقة مختلفة تماما بين الإنسان وقوى الكون، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يقرب إلى أذهاننا هذا، فأرانا اختلاف علاقة الإنسان بالكون فى حالة النوم واليقظة، فذلك رحمة من الله بعقولنا، ذلك أن الله عندما ينبئنا عن قضية غيبية هى فوق قدرة العقل الإنسانى، ولا يريد أن يكشفها له، يعطينا بجانبها ما يبسطها لنا ويقربها من أذهاننا.

على أن كلمة: «كيف» تأتى دائما لتحاول تشكيك الإنسان المؤمن أو إحراجه وسط الذين يدعون العلم وينكرون الإيمان، فهو يريد أن يعرف كيف خلق الله الكون، وكيف يبعث الله الناس يوم القيامة، إلى آخر هذا الكلام الذى يقال.

والحقيقة أن استخدام كلمة كيف هنا ضد العلم البشرى، وضد القوانين البشرية، وكل قوانين الدنيا، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يكشف للإنسان عن أشياء فى الكون ويخفى عنه أشياء أخرى، هذه مشيئة الله، وتلك حكمة أرادها الله ليمتحن من يؤمن بالغيب ومن يكفر، ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء، ومن هنا فإنك حينما تقول: «كيف»، فى أشياء غيبية، لا تستطيع أن تصل إليها بالعلم البشرى، أى فى داخل المعمل وبتجارب معملية، وحينما تكون كيف هذه عن قدرة الله سبحانه وتعالى، وقوة الله سبحانه وتعالى، فإنك هنا تنكر كلمة لا إله إلا الله، لماذا؟

لأنك تقول: «كيف» حينما يكون الإنسان متساويا مع من يناقشه، بمعنى أننى وأنا

لم أدرس الطب، لا أستطيع أن أناقش الطبيب، وإذا لم أدرس الفلك مثلاً، لا أستطيع أن أناقش عالم الفلك فى حركة النجوم والكواكب، تلك حقيقة كونية لا يستطيع أحد أن ينكرها، عندما أقول كلمة «كيف»، لابد أن يكون العلم متساويا، والعقل متساويا، أو قريبا على الأقل، فكلمة كيف لا تقال فى حياتنا البشرية إلا بين عقلين متساويين فى العلم، ومن منا نحن البشر يستطيع أن يتساوى فى علمه مع اللّه سبحانه وتعالى، لا يمكن أن أنزل إلى الشارع وآتى بإنسان لم يقرأ كلمة فى حياته، بل لا يعرف القراءة والكتابة، ثم أتناقش معه فى كيف أعالج مريضا، أو كيف أبنى عقلا إلكترونيا، أو كيف أصل إلى الكواكب، أو فى نسبية الزمن، كل هذا خارج عن نطاق علمه، وبالتالى فإنه يجهله، وأى نقاش فيه هو نوع من الجنون، وإلغاء للعقل، وسيقول عنى العلماء، ومنهم من كنت أتناقش معهم، إننى رجل مجنون، كيف تشعر إذا قرأت إعلانا فى مناقشة تجرى بين أينشتين مثلاً، وأحد سكان الغابات عن كيفية التفجير الذرى أو النووى، أو غزو الفضاء، هل يسمح العقل البشرى بهذه المناقشة؟ وهل يمكن أن تحدث؟ وهل يجتمع علماء الأرض ليروا أو يستفيدوا من النقاش الذى يجرى بين رجل الغابة، وبين أينشتين حول غزو الفضاء؟ وما سيضيفه هذا النقاش من علم للبشر وللبشرية؟

أظن أن هذا مستحيل، وأن مناقشة مثل ذلك ستثير سخرية العالم، ولكن للأسف الشديد فإن ما ينكره العلماء على غيرهم من البشر بالنسبة للعلم يستبيحونه بالنسبة للّه سبحانه وتعالى، هم يريدون أن يناقشوا كيف خلق اللّه، وهم يريدون أن يناقشوا الموت والبعث، والجنة والنار، وتلك غيبيات إيمانية أبقاها اللّه فى علم الغيب عنده، ولم يطلع عليها أحدا من خلقه، ومن هنا فإنه لا يمكن النقاش فيها، لأن هذا النقاش لن يوصلنا إلى علم، وإذا كان الفارق بين رجل تربى فى الغابة وبين أينشتين هو مائة درجة، فالفارق بين علم أكبر علماء الأرض، وبين علم اللّه هو بلايين البلايين من الدرجات التى لاتعد ولا تحصى، فاللّه ليس كمثله شىء، واللّه سبحانه وتعالى لا يصل لذرة من علمه أحد، ولذلك قال اللّه فى قرآنه الكريم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

إننى أستطيع أن أناقش، أن أدرس ظواهر الكون، تلك التى أستطيع أن أدخلها فى المعمل وأجرى عليها تجارب بعيدة عن نظريات الهوى أو الكلام الذى يقال بلا دليل، ولكن كل شىء غيبى عنا هو علم اللّه، وهو يدخل فى قضية الإيمان، ولا يدخل فى قضية العلم، فإذا كان اللّه أرانا آياته فى الأرض، وبين لنا فى كتابه العزيز قوانين الكون قبل أن تكتشف بمئات السنين، بل وبألوف السنين؛ ليدلنا على أنه الخالق، فإن ذلك يكون كافيا جدا لقضية الإيمان، أما من يريدون أن يضعوا قدراتهم، مثل قدرة اللّه سبحانه وتعالى، فيقولوا كيف، هم بذلك يحاولون أن يضعوا قدرة عقولهم فى كفة متساوية مع قدرة اللّه سبحانه وتعالى وعلم اللّه سبحانه وتعالى وهذا مرفوض تماما.

ولكن صديقى العالم لم يكتف بهذا الكلام، بل قال: كيف يكلم اللّه الناس فى يوم القيامة؟ هذه الألوف من اللهجات، وهذه الألوف من اللغات كيف يكلمها اللّه فى فترة واحدة ودفعة واحدة؟ ونسى الآيه الكريمة التى تقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢].

أى إن اختلاف اللغات واللهجات هو آيه من آيات اللّه سبحانه وتعالى، واللّه هو الذى منح الإنسان نعمة الكلام، وعلم اللغة تصديقا لقوله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

واللّه حين أرسل الرسل ؛ أرسلهم بلغة أقوامهم، وكان لابد لكى ينتقل العلم من إنسان إلى إنسان، ومن جيل إلى جيل، وأن ترث البشرية الحضارة، أن تكون هناك لغة ؛ بل إن اللّه سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧].

أى إن الكلام لآدم علمه اللّه سبحانه وتعالى، ثم علم آدم حواء، ثم بدأت اللغة فى البشرية كلها، ومن هنا فإن هذه آيه من آيات اللّه، خص بها الإنسان، وميزه بها، ووهبها له، وإذا كانت اللغة هبة من هبات اللّه للإنسان، فإن كل فرد منا يفهم اللغة التى أراد اللّه أن يتحدث بها.

ولقد أراد اللّه أن ينبئنا أن اللغة هبة من عنده، وليست وراثة، وليست خاضعة لأقوام دون أقوام، ولا هى حسب الجنس، فإذا أتينا بطفل صغير من أوربا ووضعناه فى بلد تتكلم اللغة العربية، فإنه ينشأ وهو يتحدث اللغة العربية، رغم أنها ليست لغة آبائه وأجداده، والعكس صحيح بالنسبة لطفل عربى يوضع فى مجتمع أجنبى، هذه الحقيقة وضعها اللّه ليؤكد لنا أن اللغة ليست وراثة، وهو لم يختص بها قوما معينين، بحيث إذا أتيت بطفل إنجليزى فإنه يتحدث باللغة الإنجليزية مهما كانت البيئة التى ينشأ فيها، وإذا أتيت بطفل عربى، فإنه يتحدث اللغة العربية مهما كانت البيئة التى ينشأ فيها، ولكن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان، واللغة تعلمنا أنه لا جدوى أبدا من النطق بألفاظ لها مدلول ومعنى إلا إذا كانت قد سمعت أولا، فلو أنك أتيت بشخص أجنبى لم يسمع اللغة العربية، ونطقت أمامه ألفاظا عربية، فإنه لا يفهم شيئا، وكذلك بالنسبة للعربى الذى تنطق أمامه ألفاظا غير عربية فإنه لا يفهم أيضا.

نعود بعد ذلك إلى بداية العالم، إذا كان العالم قد ابتدأ من ذكر وأنثى، كما دللنا على ذلك، كيف تفاهما، لابد أنهما سمعا شيئا اعتادت عليه آذانهما، فنطق به لسانهما، وتكلما به، ولكن كيف سمعا وهما الأول والبداية؟ وممن سمعا؟ إذن.. لابد أن يكون هناك سمع ليس من جنسيهما، لأن الأصل فى الجنس البشرى أنه مَنْ لا يسمع لا ينطق، كما نعرف جميعا، إذن لابد أن يكون قد علمهما معلم آخر.

إذن . . فالإيمان بوجود الله ضرورة لغوية، لأنه لابد أن الله تعالى قد كلم آدم فسمع، وكلم آدم حواء فسمعت، وبدأت اللغة، لغة التخاطب والتفاهم نقلا عما علمهما الله.

هذا واقع ما دامت هذه الإنسانية كلها قد بدأت من ذكر وأنثى ؛ وكان بين هذا الذكر وهذه الأنثى تفاهم، فلابد أنهما سمعا الكلام، وهنا يأتى قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] ؛ ليشرح لنا ما حدث، فالله سبحانه علم آدم الأسماء أى اللغة التى يتحدث بها ويتفاهم بها، ويتكلم بها، ومن معجزات القرآن أن ذلك لا يزال هو المتبع حتى الآن رغم مرور هذا الوقت الطويل، وهذا التقدم العلمى الضخم فى العالم فنحن الآن حين نريد أن نعلم طفلا أن يتكلم فإننا نبدأ بأن نعلمه الأسماء، ولا نبدأ بأن نعلمه الأحداث، أو أى شىء آخر، إنما نعلمه الأسماء أولا، أول شىء نقول له: هذا قلم وهذه كراسة، وهذا أسد، وهذا كوب، وهذا طعام، وهذا طريق، وهذا نور، وهذا ظلام، نعلمه الأسماء أولا، وبعد أن يتعلم الأسماء تصبح الاشتقاقات من الأسماء، وأخذ الأحداث منها عملية سهلة، إذن عندما يقول تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾. فيجب أن نعرف أن الله قد علم آدم لغة الكلام أولا، وأن لغة الكلام حتى عصرنا هذا تبدأ بتعليم الأسماء كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى علم الإنسان اللغة التى يتكلمها، ألا يستطيع أن يخاطبه بكل لغة علمها له، أو عرفها له، ألا يمكن أن يتم هذا الخطاب فى وقت واحد؟ العقل والمنطق والمدلول يقول: نعم، لماذا؟ لأننا عرفنا بالدليل أن القوانين التى يخضع لها الإنسان متغيرة.

قوانين النوم غير قوانين اليقظة، وقوانين الجسد غير قوانين الروح، وهناك قوانين نعرفها وهى قوانين الإنسان فى اليقظة لأننا نتعامل معها فى الحياة، ولكن هناك قوانين لا نعرفها ونجهلها تماما رغم أننا نعيشها، وهى القوانين التى يخضع لها الإنسان وهو نائم، فلا يستطيع أحد أن يفسر لنا هذه القوانين، على سبيل الجزم، إنما هناك نظريات بلا دليل، فالعلم فى المادة التى تدخل المعمل، قد يصل إلى علم يقينى، ولكن فيما وراء المادة، فإنها نظريات بلا دليل، وعلى أية حال، إذا كان العلم عاجزا عن أن يفسر لنا قانون الإنسان وهو نائم، فكيف يريد أن يفسرلنا قانون الإنسان فى الآخرة.

والله سبحانه وتعالى حين كشف لنا من علم، كشف لنا أن قانون قدراتنا موجود فى الكون، فالبصر له حدود معينة يقف عندها.

فأنت لا تستطيع مثلاً إذا نظرت بعينيك أن ترى ماذا يحدث فى قرية بعيدة، أو فوق القمر، ولكنك بواسطة عدسات تليفزيونية خاصة يدخل ذلك فى قدرتك البشرية، أو فى قدرة عينيك على الأصح، لأنك إذا كنت لا تبصر، فلا أحد يستطيع أن يدخل شيئا فى قدرة إبصارك، فالإنسان الأعمى لا يستطيع أن يستفيد من الإمكانيات البشرية التى قد يعطيها العلم

للبصر كتكبير الأشياء مثلاً ملايين المرات، ورؤية ماذا يحدث فوق القمر بواسطة عدسات تليفزيونية، كل هذا هو للمبصر وحده، وكما يقال عن التليفزيون، يقال عن الإذاعة، فأنت تستطيع أن تسمع إنسانا يتحدث فى أمريكا، أو فى أى مكان فى العالم بواسطة استخدام الأثير، ولكن فاقد السمع مهما قدمت له، لا يستطيع أن يستفيد من ذلك.

إذن.. فهناك قوانين يخضع لها البشر، فى اليقظة والحياة العادية، وهذه القوانين هى خليط مما كشفه الله للإنسان من علم، وما خلقه الله له من حواس يستقبل بها هذا العلم.

عندما ينام الإنسان، يخضع لقوانين أخرى بعيدة تماما عن قوانين الحياة، فهو يرى أشياء وأماكن لم يرها فى حياته، وربما ليس لها وجود فى الدنيا، وهو يفعل أشياء لا تنطبق عليها قوانين الأرض، كأن يقفز من جبل عال، وينزل إلى الأرض سليما، بل إنه أكثر من ذلك أحيانا يرى أولئك الذين رحلوا عن هذه الدنيا من أسرته، ويتحدث إليهم ويكلمهم، وهو أحيانا فى أحلامه يبكى، وأحيانا يضحك، وأحيانا يقوم منزعجا، وأحيانا يقوم مسرورا، فكيف يمكن أن يحدث هذا كله للإنسان، مع أنه نائم، كيف يمكن أن يرى وعيناه مغمضتان، مع أننا لو وضعنا عصابة على عينيه فى اليقظة، لا يستطيع أن يبصر، كيف يمكن أن يحس ويشعر، ويتعذب ويتألم؟ ومن أين تأتى هذه الأماكن العجيبة التى يراها، والتى لا وجود لها فى الدنيا؟ والعلم عاجز حتى الآن عن أن يعرف كيف يرى الإنسان وهو نائم وعيناه مغمضتان، وكيف يمشى ويجرى وهو على السرير قدماه لا تتحركان، إذن فقوانين الكون التى يخضع لها البشر خلال اليقظة، تختلف تماما عن تلك التى يخضع لها خلال النوم، مع أن الفرق بينهما دقائق، فإذا أخذنا نحن قوانين اليقظة وحدها، على أنها القوانين التى تحكم البشر، وتركنا قوانين الكون التى نعيشها جميعا، فإننا نجد أنفسنا قد تركنا جزءا هاما من حياة الإنسان، وإذا نحن أخذناها بكلمة «كيف»، فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن أن نقدم تفسيرا علميا واضحا لما يحدث، والجواب هنا أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يرينا يقينا أن علمنا قاصر حتى نتخلى - فى قضايا الغيب التى هى أكبر من قدرتنا - عن كلمة «كيف»، ونعرف أننا فى حياتنا نخضع لقوانين لا نستطيع تفسيرها، مع أننا نراها يقينا، ومن هذا المنطق، فإن الإيمان ليس رأى العين، ذلك أن رأى العين لا يدخل فى العقل الإيمانى، فأنا حينما أراك وأتحدث إليك، لا أقول إننى أومن بأننى أراك، لأننى أراك فعلا، ولكنى حينما أومن، فإننى أناقش القضية حتى يقتنع بها عقلى، وحينئذ يصبح الإيمان بما هو غيب عن هذا العقل قياسا على ما هو واقع، وبعد فكر ودراسة ومناقشة، لكل ما أعطاه الله سبحانه وتعالى لنا من شواهد تقودنا إلى الإيمان، ولذلك يبدأ القرآن الكريم فى سورة البقرة بقوله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة].

أى: إن الإيمان بالغيب أساس من أسس العقيدة ؛ وحيث إنك لا ترى الغيب، فإن الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا ما يقربه إلى عقولنا بحيث يدخل الإيمان إلى القلب، ولا يصبح الغيب محل المناقشة، فحين يقول الله سبحانه وتعالى أن كل شيء يوم القيامة سيتغير ويتبدل، فإن هذا الكلام ما دام صادرا عن الله سبحانه وتعالى، فيكفى مصدره وصدوره عن الله، ليصبح يقينا دونما أية إضافات أخرى. فى حياتنا أشياء نستطيع أن نحسها ونراها، ولكن هناك أشياء لا نراها ولكن نحسها، فالاحساس بالجوع والحب والكره، أشياء لا تنطبق عليها الرؤية، ولكنها مع ذلك فهى غرائز وضعت فينا، وموجودة داخل النفس البشرية، والحقيقة أن الإلهام والشعور داخل النفس البشرية، يوجد قبل إحساس هذه النفس بما حولها من العالم، تلك سنة الخلق، فالطفل الصغير قبل أن يتصل بالعالم الخارجى، أو بعد ولادته بساعات، أو أيام، يحس بالجوع والعطش، والألم، ويعبر عنها بالبكاء، ويحس بالحنان والدفء، والحب والكره، والقسوة والرحمة، وكل هذه الأشياء توجد فى داخل النفس البشرية، مع دقات الحياة الأولى، بينما الحواس قد تنتظر أسابيع أو شهورا، قبل أن تستطيع أن تؤدى مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه الطفل.

وإذا درسنا النفس البشرية، وإحساساتها الداخلية، نجد أن أقواها هى إحساس الإنسان بوجود الله، هذا الإحساس الذى يفتقر فى بداية حياتنا إلى شيء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته، والكون ووجوده، ولكنه يؤكد ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى.

وأحب أن أوضح هذه النقطة قليلاً، إن النفس البشرية التى فيها أحاسيس لم يستطع أحد أن يحللها بدقة، ولا نستطيع نحن أن نصل إليها، هذه النفس تحس يقينا بوجود الله سبحانه وتعالى، فاسم الله مثلاً، هو شيء لا تدركه الحواس الخمس، ولا يدركه العقل البشرى، لأنه أكبر من كل هذه القدرات، ولكن تدركه حاسة داخل النفس، حاسة غير مرئية، ومن هنا فإننا إذا ذكرنا كلمة الله سبحانه وتعالى، نجد أن الأذن تفهمها، وأن النفس تجد بينها وبين الله ألفة، ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئا لا يوجد أصلاً داخل النفس البشرية، ذلك أنه لابد من وجود التصور أولا داخل النفس ؛ حتى تألف الشيء، ويستطيع أن يصل إلى العقل، ومن هنا فإنك إذا حدثت إنسانا عن شيء لم يره، ولم يسمع به فى حياته، تجده لا يفهم، خصوصا إذا ذكرت اللفظ بدون شرح، فأنت إذا قلت: ناطحة سحاب مثلا، أو مركبة فضاء، أو حتى الأشياء البسيطة مثل كلمة بحيرة، بدون أن يكون الإنسان قد رأى فعلا هذا الشيء سواء رؤية مباشرة، أو عن طريق التعلم، فإنه لا يفهم، ويسأل ما معنى هذا، وتستطيع أن تجرب مع أطفالك بأن تخبرهم عن أشياء لم يروها، ولم يعرفوا عنها شيئا، وتذكر أمامهم الاسم، حينئذ سترتسم على وجوههم علامة استفهام ضخمة، إن من أمامك لا يفهم ؛ ولكن عندما تذكر اسم الله تجد كل نفس تدركه رغم أن أحدا لم يره ولم يستطع أن يصل بقدرة عقله إليه، ما معنى هذا؟ معناه أن الله فينا بالفطرة

أننا نحس بوجود اللّه فى داخلنا، وأن هذا اللفظ ليس غريبا علينا، كيف يكون الاسم مألوفا وهو خارج نطاق الحواس وخارج نطاق العقل، بعض الناس يسميها الفطرة، والبعض يسميها الإلهام أو الشعور، ومهما كانت التسمية فإن الحقيقة تبقى فى أن النفس البشرية تألف وتفهم اسم اللّه سبحانه وتعالى لمجرد ذكره، وأنها تجد تآلفا مع هذا الاسم، وشعورا داخليا يؤكد قدرة اللّه سبحانه وتعالى ووجوده.

ولكن العالم المادى الذى نعيش فيه، لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور، وذلك يخبرنا به اللّه سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فمسألة الربوبية لا يختلف عليها أحد، بل إن الإنسان منذ فجر التاريخ وهو يبحث عما وراء المادة بطرقه المختلفة، ولقد حاول بعض البشر أن يعبروا عن هذه القوة بأشياء استندوا فيها إلى عقولهم، والتزم البعض الآخر بالرسالات السماوية التى أرسلها اللّه للبشر، ليخبرهم عما يريدهم أن يعلموه بالنسبة للكون، ومنهج الحياة، وطريقة عبادة اللّه، ولكن هؤلاء، يحسون أن هناك قوة وراء هذا العالم، وهى قوة عظيمة خارقة، وهناك شعور داخلى فى كل نفس بشرية، يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادى الذى تراه لا يمكن إلا أن يكون وراءه قوة خارقة، قادرة منظمة قوية.

على أن هناك مرحلة أخرى أحب أن أسجلها، هى أن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير فى وجود اللّه باستخدام العقل البشرى؛ لا بد أن تكون قد مرت فترة من عمره حتى ينضج ويكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين، ولكننا نجد الطفل الصغير يعبد اللّه، والعقل البسيط الذى لم يقرأ كتابا واحدا يعرف أن اللّه موجود، والإنسان الدارس والفليسوف يعرف بوجود اللّه، كل العقول تتفاوت فى الفهم، وربما تتفاوت فى المنطق، وفى أشياء كثيرة، ولكنها بكل ثقافاتها وفهمها وسواء كان بسيطا أو عميقا تعبد اللّه، من دون أن تحس أن هناك تناقضا بين وجود الخالق سبحانه وتعالى، والكون الذى يعيش فيه، بل إن أكثرهم يحسون بانسجام فطرى غريب، بأن اللّه سبحانه وتعالى ووجود الكون حقيقيان داخل النفس، ليس بينهما أى تناقض، وإذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود اللّه سبحانه وتعالى، وإذا كان كل من يحاول أن يحجب وجود اللّه، يفهم هو معنى هذه الكلمة التى يناقشها، والتى يحاول أن ينكرها ليكون الهوى البشرى هو أساس المجتمع كله فإن وجود اللّه فيها بالفطرة، وفهمنا جميعا لاسم اللّه الذى فوق قدرة العقل والإحساس، والمناقشات التى تتم إنما هى كلها تأكد بأن اللّه سبحانه وتعالى موجود، وأنه قادر على أن يغير هذا العالم عندما يريد ويأتى كل إنسان إلى الآخرة ليواجه حسابه.

نأتى بعد ذلك إلى قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير].

هذا هو الذى أقسم به الله سبحانه وتعالى فى بداية السورة، فما معنى هذا القسم؟

الله سبحانه وتعالى يبين لنا فى السورة أشياء هى غيبيات عنا، لا يستطيع أن يدركها العقل البشرى إلا بالإيمان، وفوق أن هذه الأشياء غيبيات، أى نحن لا نراها الآن، ولكنها ستحدث فى المستقبل، فهى فوق ذلك كله، أكبر من القدرة البشرية، بمعنى أنه ليس فى قدرة إنسان أن يفجر البحار، أو يوقف أشعة الشمس، أو يزيل الجبال، ويبدل الأرض، ويغير النجوم إلى آخر ما أنبأنا به الله سبحانه وتعالى من علامات الساعة، هذه الأشياء إذا نسبت إلى القوة البشرية، فإن من الصعب تصديقها، ولكنها إذا نسبت إلى قوة الله سبحانه وتعالى أصبح من الممكن أن تحدث، ولذلك فنحن لسنا أمام أمر محجوب عنا فقط ولكننا أمام أمر لابد أن ينسب إلى قدرة الله لأنه لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله.

والصورة تعطى انقلاباً عاماً فى الكون، وثورة فى الوجود تقضى على كل الأشياء التى اعتادها الناس، وأصبحت نظاما رتيباً فى الكون، وقانونا ثابتا محكما، ثم تأتى فترة ينقلب فيها هذا كله، ويتغير كل موجود، إلا الله سبحانه وتعالى، فالإنسان إذا أراد أن ينصرف إلى شىء فى هذا الوجود كله، فلابد أن يرتبط بالوجود المطلق الذى لا يتغير، وهو الله، أما كل مخلوق سوى الله، فإنه سيتعرض للفناء مهما بدا ساكنا مستقرا أبديا.

ولذلك فإن الله حين أقسم يأتى القسم بالله سبحانه وتعالى، وهو الوحيد الباقى، لا يأتى من أى شىء سيلحقه الفناء، هذا أول أهداف القسم، أما الهدف الثانى، فهو بيان الوسيلة التى يتحقق بها للإنسان المؤمن النجاة من كل هذا، والوصول إلى الحياة الخالدة الباقية، وهذه الوسيلة هى اتباع منهج الله، ومنهج الله لا يمكن للعقل أن يبتكره، لأن كل عقل، وكل نفس لها هوى، وهذا الهوى، أو الغرض يدخل فى كل ما تقوم به هذه النفس من إعداد أو تصور لمنهج الحياة، وأنت إذا أردت أن تعرف هل هذا المنهج من الله سبحانه وتعالى، أو من صنع البشر فما عليك إلا أن تنظر إلى أولئك الذين يدعون إليه، فالمنهج البشرى، يصنعه إنسان، سواء كان مفكرا، أو فيلسوفا، أو سياسيا، أو من رجال القانون المهم فى هذا كله أنه يضع هذا المنهج، وتكون حوله مجموعة من الناس، أيا كانوا، وبأى شكل يدعون لتطبيق هذا المنهج، انظر إلى هؤلاء الناس، إذا وجدت أنهم يستفيدون فائدة شخصية من تطبيق هذا المنهج بأن يزدادوا ثراء أو غنى، أو نفوذا، أو يمتلكوا شيئا، فاعرف أن هذا منهج بشرى، وضعه إنسان، أو عدد من الناس لهم هوى أو غرض فى نفوسهم يريدون تحقيقه.

فإذا أخذنا الشيوعية مثلا، وأردنا أن نطبق عليها هذه النظرية، نجد أن أولئك الذين يدعون لهذا المنهج، أو يقودونه سواء كانوا أعضاء للجنة المركزية، أو أعضاء للمؤتمر العام للحزب نجد أنهم مميزون عن باقى الناس، يحصلون على ميزات، لا يحصل عليها أحد غيرهم، وهم يعيشون عيشة الترف والبذخ، بينما شعوبهم تقاسى وتعانى أشد

المعاناة ؛ ولذلك حين نجد فائدة شخصية لمن يدعون لتطبيق هذا المنهج نقول: إنه منهج وضع لتحقيق غرض معين أو منفعة خاصة لعدد محدود من الناس، وإذا أخذنا النظام الديكتاتورى مثلا فى أى من بلاد الدنيا نجد أن أولئك الذين يحيطون بالحاكم مستفيدون، أو هم أكثر الناس استفادة من هذا النظام، حينئذ نحس ونعرف أن هذا النظام من وضع بشر.

ولكن حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[(١)]، وحين يقف أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وهو يحكم بتعاليم الله ليقول: «القوى منكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف منكم قوى عندى حتى آخذ الحق له». وحين يقول أيضا: «وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى»[(٢)]، نعرف أن ذلك هو منهج الله، لماذا؟ لأنه لا يعطى ميزة لأى فرد من أولئك الذين يدعون إليه، فإذا سرق أى إنسان أقيم عليه الحد، وقطعت يده، وإذا سرقت فاطمة بنت محمد رضى الله عنها، يقام عليها الحد، والذى يقيمه هو النبى والداعى، فأى ميزة تلك التى حصل عليها، بحيث تجعله يستفيد فوق سائر الذين يتبعونه، وإذا جاء خليفة وحاكم، وقال إن القوى ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف قوى حتى آخذ الحق له، أصبح مركز القوة الوحيد هو الحق وحده، ولا توجد أية مراكز أخرى تستطيع أن تقف أمام الحق، بل كل قوى يصبح ضعيفا حتى يؤخذ الحق منه، وإذا كان الحق هو مركز القوة الوحيد فى الحكم الإسلامى انتهى الهوى تماما، ولا يستطيع أى إنسان أن يحصل على ميزة، بل إن المهاجرين فى أول الإسلام تركوا أموالهم، وكل ما يملكونه من وسائل الترف والزينة والجاه والمال فى مكة، وهاجروا الى المدينة، فكأنهم باتباعهم الدين الجديد لم يستفيدوا شيئا دنيويا، بل تركوا أعز ما يملكون فى الدنيا فى سبيل المنهج والدعوة إليه، وحيث تحس أن الإنسان يترك ما يملك، فى سبيل منهج يتبعه ويدعو إليه، ولا يستفيد شيئا، فإنك تعرف أن هذا المنهج هو منهج الحق، الذى لا يوجد فيه هوى، ولا غرض دنيوى.

إذن.. لكل إنسان مهما كان، فى حياته هوىً شخصى، حتى ولو كان طفيفا، فتلك هى الطبيعة البشرية، ولكن الذى لا هوى له هو الله سبحانه وتعالى، فهو غير محتاج لك، ولا يريد منك شيئا، وهو يعطيك ولا يأخذ، ولا يطمع فيما تملك ولا تستطيع أنت أن تنال من ملكه شيئا، حتى يخافك أو يخشاك، إذن فالتشريع هنا لا يتم عن هوى، وإنما يتم عن حق وعدل، فإذا زاد على ذلك، مع أن علم الله لا يصل إليه بشر، وحكمته فوق عقول الناس، أصبح التشريع كاملا متكاملا، والإيمان هنا هو إيمان بقدرة الخالق، فمتى آمنت

---

(١) رواه البخارى [٣٤٧٥]، ومسلم [١٦٨٩/ ١١]، وأبو داود [٤٣٧٣]، والترمذى [١٤٣٠]، والنسائى فى المجتبى [٤٨٩٨]، وابن ماجه [٢٥٤٧] عن عائشة رضى الله تعالى عنها.

(٢) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال [١٤٠٦٤] عن أنس رضى الله تعالى عنه.

أصبح كل ما يصدر عن اللّه، ولا تراه، لأنه مخفى عنك ؛ أو لأنه سيحدث بعد فترة من الزمان، أصبح كل هذا يقينا، والذى يجب أن تتأكد منه فقط هو أنه صادر عن اللّه، وما دام صادرا عن تلك القدرة الهائلة التى لا تحدها حدود، ولا قيود، فهى تستطيع أن تفعل ما تشاء، وإيماننا يجعلنا نحس يقينا أن ما يقوله اللّه سبحانه وتعالى هو الحق، ولذلك جاء القسم ؛ جاء ليقول إن كل هذه الأشياء التى أنبأتكم عنها مما سيحدث، عندما تنتهى الحياة، أو تأتى الساعة، هى من قول اللّه، وإن الذى أخبركم بها رسول كريم ؛ رسول لأن اللّه لا يخاطب البشر بالخطاب المباشر إلا فى الآخرة، ومن هنا فلابد من رسول يختاره اللّه سبحانه وتعالى ليبلغ الرسالة أو المنهج، وقد أتت الرسل على مرّ التاريخ تحمل تعاليم السماء إلى البشر، وتصحح ما فسد من أن يصبح هوى النفس والغرض هو الحق، وكريم بمعنى أنه معروف عندكم بكرم الخلق، وقد كنتم تأتمنونه على كل غال ونفيس، وحتى بعد أن أعلن الرسالة، وبدأ الدعوة إلى الدين الجديد، فأنتم مازلتم تعرفونه بكرم خلقه وتأتمنونه على كل غال ونفيس، والدليل على ذلك أنه عندما هاجر رسول اللّه إلى المدينة، كانت عنده ودائع من عدد من أهل مكة غير المسلمين، تركوها عنده لكرم خلقه وأمانته، وأنه كلّف من يعيد إليهم هذه الودائع، إذن فهو كريم وأمين بشهادة قومه قبل الرسالة، وبعد الرسالة، واللّه يقسم أنه كريم وأمين أيضا فى رسالته، وأمين فى تبليغ هذه الرسالة كما أنزلها اللّه سبحانه وتعالى، فالقسم هنا جاء عن أشياء تدخل فى قدرة اللّه وحده، ولذلك لابد من تأكيد من اللّه، بأنها ستحدث، لأنه لا قدرة لغير اللّه بأن يقوم بها، والقسم يأتى بأن البلاغ صحيح وأن الرسول الذى يقوم بالبلاغ معروف بكرم الخلق، قبل أن يعهد إليه بالرسالة، بشهادتكم جميعا، وأنه بعد أن أوحيت إليه الرسالة كريم أيضا، بمعنى أنه سخى فى العطاء، لا يؤدى ما طلب منه فقط، ولكنه يزيد على ذلك حبا فى اللّه، وعشقا لمنهج اللّه، فالرسول وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يقوم الليل كله ويصلى حتى تتورم قدماه، ويقوم فوق ما طلب منه، ويلزم نفسه بأشياء لم يلزمه اللّه بها، ولكنه يقوم بها تطوعا، مع ما فيها من مشقة على النفس، إذن.. فهو ليس فقط مبلغا ورسولا، بل هو محب للمنهج، كريم فى أداء ما طلبه اللّه منه. إلى درجة إرهاق النفس لإرضاء اللّه.

ثم يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٠].

واللّه سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿ قُوَّةٍ ﴾ لا يعنى القوة البدنية، ولكنه يعنى قوة النفس فقوة البدن هذه مسألة سهلة يستطيع كل إنسان أن يصل إليها، ولكن قوة النفس هى الاختبار الحقيقى للرجال، وقد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «ليس القوى بالصرعة، ولكن القوى من يملك نفسه عند الغضب»(١).

---

(١) روى البخارى [٦١١٤]، ومسلم [٢٦٠٩/١٠٧] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه بلفظ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب».

obeikandl.com

فاللّه سبحانه وتعالى حين يصف نبيه بالقوة، ليس معنى هذا أنه مصارع قوى، أو معناه الغلبة البدنية، ولكنه قوى يقف وحده أمام الدنيا كلها، ويرفض أن يلين، فإذا عرضوا عليه المال والذهب والحكم، وكلها مغريات هائلة للنفس، استطاعت قوة نفسه أن تتغلب على هذا كله، فيقول صلى اللّه عليه وسلم: «واللّه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر، أو أهلك دونه، ما قبلت»[(١)]. هذه هى القوة الحقيقية للنفس، قوى وهو يواجه مع قلة ضعيفة ذليلة جبروت قريش وإيذاءها من دون أن يتراجع، أو يصيبه الضعف أو الوهن، قوى وهو يخرج مع أبى بكر، ويرى كفار قريش على باب الغار سيوفهم مشرعة فيقول لأبى بكر رضى اللّه تعالى عنه: «ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما»[(٢)]، ولا يخشى، ولا يخاف شيئا، قوى وهو يأخذ بدعوته إلى المدينة، ويواجه المعركة تلو المعركة، حتى إذا جمعت له قبائل العرب كلها، واليهود فى المدينة ليقضوا على دينه، ووجد نفسه يواجه قوى هائلة، لم يدخل الخوف إلى قلبه، بل ظل ثابتا صامدا، قويا فى الحق، فعندما أتى على بن أبى طالب مع رجل يهودى ليقضى بينهما، وجلس علىّ إلى جوار الرسول، قال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «قم حتى أقضى بينكما»، قوى لأن الدنيا كلها لم تستطع أن تجرفه، أو تشده إليها، فيركن إلى الترف، وإلى المسكن الفاخر، هذه كلها وغيرها هى علامة قوة النفس الحقيقية، ولذلك عندما كان أى إنسان له حق، كان يرحب بأن يقضى الرسول بينه وبين خصمه، وعندما يكون الإنسان عليه الحق، كان يهرب من هذا القضاء، لماذا؟ لأنه يعرف أن قوة الرسول نفسه ستجعل الحق وحده ينتصر بدون أى شىء آخر مهما بلغ.

هذه هى القوة فى أمور الدنيا، ولكن الآية الكريمة تقول: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

فما هى القوة عند اللّه سبحانه وتعالى؟

بعض المفسرين يقول إن هذه الآيات فى وصف جبريل عليه السلام، وإن اللّه سبحانه وتعالى، أراد أن يعطينا ما هو غائب عنا، وهو الرسول الذى اصطفاه اللّه سبحانه وتعالى من الملائكة ليبلغ الرسالة إلى محمد صلى اللّه عليه وسلم، وإن اللّه سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد لنا أن كلا الرسولين، سواء ذلك الذى نزل بالقرآن إلى الأرض وهو جبريل، أو ذلك الذى أبلغه إلى بشر وهو محمد عليه الصلاة والسلام، كلاهما أمين فى بلاغه، وبعض المفسرين يقولون إن اللّه سبحانه وتعالى لا يحتاج لوصف جبريل بالأمانة؛ لأن جبريل مسير لا اختيار له، فالملائكة يفعلون ما أمرهم اللّه، وليس لهم اختيار فى أن يفعلوا شيئا أو لا يفعلوه، إنما الذى له اختيار فى ذلك هم البشر، الذين حملهم اللّه الأمانة

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية [٢/ ٩٧-١٠٤].

(٢) رواه البخارى [٤٦٦٣]، ومسلم [٢٣٨١/ ١]، والترمذى [٣٠٩٦]، وأحمد فى المسند [١/ ٤].

Obeikandl.com

فقبلوها، وأصبح لهم اختيارات، فهم يستطيعون قول الحق، ويستطيعون إنكار الحق، إلى آخر ما نعرفه من خيارات متاحة للبشر، فإن أمانة التبليغ هنا تأتى ردا على الكفار الذين يريدون أن يشككوا فى هذا الدين، وتشكيكهم ينصب على أنه قول بشر، أو قول شاعر، أى إنه ليس منهج الله، ومن هنا جاءت الآية لترد عليهم، فإذا كان الله تعالى قد اصطفى رسولاً من البشر، ورسولاً من الملائكة، فلا تعارض فى أن تنطبق أوصاف القوة والأمانة والكرم عليهما.

والله تعالى يقول: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾. أى: إنه ليس قويا فى الدنيا فقط ولكن مكين عند ذى العرش، له مكانة عليا عند الله سبحانه وتعالى، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١].

قد يقول بعض الناس إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد يتصف بالقوة والمكانة عند الله، ولكن الناس الذين اتبعوه لا يطيعونه، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهم: إن أولئك الذين يتبعون هذا الدين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، أى إن الذين يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيعونه ويفعلون ما أمرهم الله به، ولكن لماذا التنويه هنا بالطاعة؟

إذا أردنا أن نفسر ذلك، فيجب أولا أن نفرق بين الطاعة وعدم الطاعة، ولا نأخذ اللفظ على إطلاقه، فالطاعة إما أن تكون فى أمور محببة إلى النفس، كأن يدعوك إنسان إلى أن تقضى فترة فى مكان جميل، أو تؤدى عملاً يعطيك مالاً وفيرا بجهد قليل، أو تسافر إلى بلد أنت تحب أن تسافر إليه، أو قد يدعوك إلى طعام محبب إلى نفسك، إلى آخر ما هو محبب إلى النفس البشرية، حينئذ تكون الطاعة سهلة ومحببة إلى النفس، ولكن عندما يدعوك الإنسان إلى مشقة تتحملها نفسك، حينئذ تكون الطاعة اختبارا للإيمان، ولذلك حين يصف الله رسوله بأنه مطاع؛ معناها أن الرسول سيطلب من الناس ما يضع قيودا على هوى النفس، ولكنه يصلحها، ولقد تحدثنا من قبل فيما حرمه الله، وقلنا إن التحريم هو لصالح كل فرد فينا، فالإنسان الذى يمد يده إلى مال حرام، لو أن هذا أبيح لمدت الدنيا كلها يدها إلى ماله، فإذا كان هو فردا واحدا، منع من عمل فقد تم هذا المنع لحمايته هو من أن يمد أفراد كثيرون أيديهم لما عنده، وفى هذا فوضى تقتلع المجتمع من أساسه، فمجتمع فيه السرقة مباحة، ينتهى إلى فوضى تهزه بعنف وتقضى عليه، ومجتمع فيه القتل مباح، أو العرض مباح أو أى شىء مما حرمه الله مباح، هو مجتمع بلا شك مقضى عليه خلال سنوات قليلة، لا يستطيع إنسان أن يحيا فيه الحياة المطمئنة التى وعدنا الله سبحانه وتعالى بها.

ولعل من الغريب حين نتأمل أن نجد مبادئ الدين الإسلامى مطبقة كقيم اجتماعية فى المجتمعات المتقدمة، ففى أى مجتمع متقدم تراه يحافظ على حق كل إنسان، يعاقب

أشد العقوبة على الكذب، باعتباره من الرذائل التى تقود إلى عدم الثقة، وإلى إخفاء الحقائق، وإلى أشياء كثيرة. . يكافئ الأمين، ويعترف بالفضل لصاحبه، ويفتح الآفاق أمام الجميع، كل هذه الأشياء هى من قيم الإسلام، ولكن هؤلاء الناس أخذوها وجعلوها قيما اجتماعية لماذا؟! لأن التقدم لا يتم إلا بتطبيقها، بل إن الأعجب من ذلك أننا نجد أشياء هى مباحة فى هذه المجتمعات، ولكن هذه المجتمعات تقاومها، وتشن الحملات لمنعها، كالخمر مثلا، محاضرات عن مضار الخمر، وجمعيات لإنقاذ المدمنين على الخمر من الهلاك الذى يقودهم إليه هذا الإدمان، وأبحاث طبية إلى غير ذلك، إن هذا كله لا يتم إيمانا بالإسلام، أو لأن الإسلام حرم الخمر وإنما يتم عن قيم، ونتائج فرضت نفسها على المجتمع، إذا أريد له أن يزدهر، وفى هذه يقول الله سبحانه وتعالى عن الإسلام: ﴿هُوَ الَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

والذى لا شك فيه أنه لا يوجد تفسير أصدق لهذه الآية من التفسير الحادث الآن، فالذين يحاربون شرب الخمر ويحاولون اقتلاع هذا الداء من مجتمعاتهم، والذين يبيحون الطلاق لأنه ضرورة اجتماعية، والذين يصنعون القيم للمجتمع مستمدة من تعاليم الله، ولكن بلا إيمان وإنما كضرورة اجتماعية يعلنون للعالم أجمع أنهم يظهرون مبادئ هذا الدين وإن كرهوا أن يزدهر الدين نفسه، فهم كارهون لظهور الدين وفى الوقت نفسه يظهرون مبادئه ويجعلونها قيما اجتماعية، ولقد قال الشيخ محمد عبده حينما زار أوربا: «رأيت قوما لا يقولون لا إله إلا الله ويعملون بها، ونحن قوم نقول لا إله إلا الله، وفى أحيان كثيرة لا نعمل بها».

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير: ٢٢].

وهو بذلك يرد على الاتهام الذى حاول بعض المشركين أن يلصقوه ظلماً وعدوانا برسول الله، وانظر إلى قول الله سبحانه وتعالى وإلى دقة القرآن الكريم وبراعته فى التعبير، ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾، أى إن هذا الرسول الكريم قد صاحبكم فترة كبيرة، أربعين سنة، وعرفتموه وعرفتم خلقه جيدا، فإذا كان اليوم قد جاء بدين يحقق العدالة، ويسلب الظالم قوته، ويعطى الضعيف حقه، فلا تحاولوا أن تصرفوا الناس عن هذا الدين بادعاءاتكم الكاذبة، ذلك أن رسول الله صاحبكم قبل أن يقوم بتبليغ الرسالة أربعين سنة، كان فيها مثالا للأمانة والصدق، ورزانة العقل، وكان مفخرة لقومه، ومن هنا فإن ادعاءكم عليه بأى شىء كاذب، هذا الادعاء يمكن أن يصحح بكلمة واحدة، وهى ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾؛ أى يمكن أن يصحح أو يرد عليه، بأن رسول الله لم يأت من بلد بعيد، ولم يكن محجوبا عنكم قبل الرسالة، بل كان يصاحبكم، وكنتم تشهدون له، فإذا انقلبت هذه الشهادة الآن إلى ضدها، فذلك لغرض وهوى فى النفس، وليس عن حقيقة، ولذلك فإن الحكم على رسول الله، قد صدر منكم أنتم قبل أن أبلغكم باختيارى له رسولاً كريماً، ومن هنا فإن

هذا الحكم هو حجة عليكم بأنكم كاذبون فيما تدعون، وإن قلتم مجنون فمردود عليكم ؛ أولاً بشهادتكم له بالخلق الكريم، وثانياً بأنكم كنتم عرضتم عليه أن تملكوه عليكم ويترك الدعوة، فرفض، فهل كنتم ستملكون عليكم إنسانا مختل العقل !!

ولقد حاول المشركون أن ينالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هذا الدين بأكثر من طريقة، ولكن الله سبحانه وتعالى ناقشهم بالحجة وجردهم من كل ما قالوا، أو من كل ما حاولوا أن يسموا به هذا الدين، قالوا: إن رسول الله افترى هذا الكلام ونسبه إلى الله، فتحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بسورة من القرآن، وإذا كان ادعاؤهم بأن الكلام افتراء فليفتروا وليأتوا بمثله، ولكنهم عجزوا أمام هذه الحجة فقالوا: شاعر، ورد الله سبحانه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١]. لماذا؟

إن هذا القرآن قد أرسل فى أمة شهرتها البلاغة والفصاحة، والقرآن فى إعجازه البلاغى، يخاطب كل العقول، وكل النفوس على اختلافها فى كل وقت من الأوقات، على اختلاف أحوالها.

ولنشرح هذه النقطة قليلا، البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولا يوجد بشر فى هذه الدنيا يستطيع أن يأتى بكلام يقال فى كل مناسبة، فيكون مطابقا لمقتضى الحال، فأنت حين تتحدث لإنسان غاضب، تتحدث بلهجة، وحين تتحدث لإنسان سعيد فرح، تتحدث بلهجة أخرى، وحين تتحدث إلى حاكم أو أمير، فهناك لهجة ثالثة، وحين تتحدث إلى إنسان عادى فهناك لهجة رابعة، ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر، وقلنا له انظم قصيدة، أو أعد كلاما لتلقيه أمام الناس، بحيث يمكن أن تقوله أمام مجموعة من المتبحرين فى العلم، وتخاطب به فى الوقت نفسه مجموعة من الجهلاء، وتقوله أمام أمير أو حاكم، وتقول الكلام نفسه أمام خادم هذا الأمير، ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال، فإنه يعجز ولكن القرآن فى هذه الناحية قد تخطى كل شروط البلاغة، فى أنه مطابق لكل أحوال البشر، يهز نفوس الكفار، ويهز نفوس المؤمنين، ويحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعا، الغنى منهم والفقير، التعيس منهم والسعيد، الخادم منهم والسيد، وهو يخاطبهم فى حالاتهم النفسية كلها، فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه، وزادت سعادته، فالقرآن يحيط بعلم حالات كل الأفراد من أمم مختلفة، وشعوب مختلفة، وثقافات مختلفة، وتراث مختلف، فإذا سألت كل واحد منهم ما هو شعوره، وهو يسمع القرآن، ربما أعطاك كل واحد جواباً مختلفا، لذلك لأن القرآن يخاطب فى النفس البشرية أحاسيس وملكات، لا يعلمها إلا خالقها، ولذلك فإن هذه الملكات تتأثر بكلام الله، وتهتز له، دونما فارق من فوارق الدنيا، ولذلك كان أخشى ما يخشاه الكفار، أن يستمع الناس إلى القرآن، ولو كانوا غير مؤمنين، حتى أن الوليد بن المغيرة وهو كافر، قال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله

لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وهكذا تأثر به بدون إيمان. وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حين دخل بيت صهره بعد أن علم بإسلام أخته وزوجها، كان ينوى الشر، وما أن استمع إلى آيات القرآن حتى هدأت نفسه، وانشرح صدره للإسلام، لماذا؟.. لأن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى، وقد خاطب نفسا فى غاية الضيق. وهى نفس عمر بن الخطاب. وقت دخوله للبيت بالألفاظ نفسها التى خاطب بها المؤمنين الذين يقرأون، وهم فى حالة انسجام وسعادة لقربهم من الله، وإذا بالآيات نفسها التى أدخلت الهدوء والانسجام على نفوس قد آمنت، أدخلت الهدوء نفسه على نفس ثائرة لم تكن آمنت بعد، ولهذا فإن القول بأنه شاعر مردود عليه، بأن بلاغة القرآن لا تعطى ولم تعط لبشر.

ثم انتقلوا إلى نقطة أخرى، قالوا مفترى، نقول لهم: ما دُمتم قد فهمتم أنه مفترى، افتروا أنتم، إن كنتم تستطيعون، بل إن الكفار كانوا أقدر على الافتراء فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له دراية بفن الكلام والخطب والشعر والأدب. بل إنه لا يقرأ ولا يكتب. فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وأنتم تقولون هذا الكلام، فأنتم تملكون وسائل الافتراء وعندكم الشعراء والأدباء افتروا مثله، وكان العجز هو جوابهم.

لقد أراد القرآن أن يرد على هذا، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة].

حتى الرد فيه إعجاز، فالشعر مفهوم أنه كلام موزون مقفى يعرفه الناس جميعا، ومن هنا فإن القول بأن هذا شعر، دليل على أنكم لا تؤمنون، لماذا؟ لأنكم تعرفون الشعر معرفة جيدة، وهذا ليس شعرا بأوزانه وقوافيه، ولذلك فإنكم عندما تقولون إنه قول شاعر؛ ليس هذا عن جهل ولكنه عن عدم إيمان، ومحاربة لهذا الدين لأنكم تعرفون الشعر جيدا ولا يمكن أن يغيب عليكم، إن ما تقولونه هو افتراء لعلمكم بقواعد اللغة، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقول الكاهن لا يمكن أن يخاطب كل الملكات، ولا أن يكون فيه هذا الإعجاز، كما أن الكاهن يفضحه طول الوقت والزمن، ومن هنا فإنه كبشر ينسى ويأتى بعكس ما قاله نتيجة لمرور الوقت والزمن، ولذلك عندما رد الله سبحانه وتعالى على قولهم بأنه كاهن، كان الرد بكلمة تتذكرون، لأن طول الزمن الذى يجعل الكاهن ينسى ما قاله، خصوصا عندما يكذب، فتكون كلمة تذكرون هى الفيصل، ولم يستخدم هنا عدم الإيمان التى استخدمها سبحانه وتعالى فى قولهم شاعر، لأن الشعر له قواعد معروفة ويكون الكلام على أنه قول الشاعر قصد الافتراء فيه واضح، ويلاحظ هنا أن الله يقرع الحجة بالحجة، والتحدى بالتحدى.

وتمضى الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣].

ما معنى هذه الآية؟ محمد صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صور متعددة: رآه فى صورة بشر. ورآه فى صورة ملك، ثم رآه فى صورته الحقيقية. عند سدرة المنتهى فى الإسراء والمعراج. هناك رأى رسول الله جبريل فى صورته الحقيقية فى السماء ولقد كان أول لقاء بين جبريل وبين رسول الله فى الغار، وكان هذا اللقاء أول امتزاج لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالملك الذى جاء بوحى السماء. وكان امتزاجا فيه معان كبيرة، أولها أمر من الله تعالى يوضح لنا، أن هذا المنهج يأتى بأمر وقدرة الله، دون ما تدخل بشرى.

فقال له الملك: ﴿ اقْرَأْ ﴾، ورد محمد صلى الله عليه وسلم: «ما أنا بقارئ»[1]، وكلا القولين يتم بالأسباب التى يملكها كل منهما، فالملك يقول: ﴿ اقْرَأْ ﴾، أمر من الله سبحانه وتعالى، ومحمد يرد: «ما أنا بقارئ»، الأسباب البشرية، فهو لم يتعلم القراءة والكتابة، حتى يستطيع أن يقرأ، ويضمه الملك ضمة شديدة، ضمة تجهده وترهقه، لماذا؟ لأن فيها امتزاجا بين الملك والبشرية، هذا الامتزاج وهو الوحى كان صعبا شديداً على محمد صلى الله عليه وسلم، حتى أنه كان يتصبب عرقا.

وذهب إلى خديجة وهو يرتجف، امتزاج رهيب بين بشر وملك، لا يمكن أن يتم إلا بأمر الله سبحانه وتعالى، واختلاف الطبيعة والقوانين، ولا أن يتحمل إلا بقدرة الله ورحمته، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل جنس خلقه قانونا، فالبشر لهم قانون يتمشى مع خلقهم من طين، والجن لهم قانون يتمشى مع خلقهم من نار، والملائكة لهم قانون يتمشى مع خلقهم من نور، وكل واحد من هؤلاء بقانونه الخاص لا يستطيع أن يمتزج بالآخر، وإذا كان هناك امتزاج بين إنس وجن فهذا لا يتم بقانون عام، ولكنه يتم بقوانين خاصة قد يصل إليها بعض الناس من دون بعضهم، والذى يحصل على هذه الميزة ويستخدمها فى غير ما يرضى الله يصيبه عذاب أليم، ولكن الامتزاج بين الملائكة والبشر لا يتم إلا للرسل، أو لمن يختاره سبحانه وتعالى برسالة أو مهمة فى الأرض ساعة نزول القرآن، قال جبريل ناقلا كلام الله سبحانه وتعالى إلى محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ اقْرَأْ ﴾، فرد النبى، ما أنا بقارئ، ولقد كان الاثنان يتحدثان بوحى من قانونهما، فجبريل يقول: ﴿ اقْرَأْ ﴾؛ لأن الله سبحانه وتعالى قرر أن يعلم محمداً ما لم يعلّمه لأهل الأرض

---

(١) روى البخارى [٤]، ومسلم [١٦٠/ ٢٥٢] عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: «أول ما بدئ الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله - ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ ﴾ [العلق]، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها فقال: زملونى زملونى. فزملوه حتى ذهب عنه الروع..

كلهم، ورد الرسول: «ما أنا بقارئ»، كان من واقع السبب البشرى، والصدق مع النفس، إذ كيف يقرأ وهو لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، ولقد جاء هذا بحكمة، ليقول الله سبحانه وتعالى، إننى أعلم أنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة، ولكننى سأعلمك ما لم أعلمه لأحد من العالمين، وبذلك يكون العلم من الله سبحانه وتعالى، لا دخل لبشر فيه ولا لإنسان، وتكون الأسباب هنا غير متمشية، فعندما يأمر الله لا توجد أسباب، ولكن توجد طلاقة القدرة التى توجب الأسباب كلها، فالأسباب وضعت للحياة الدنيا وحدها، وحتى تسير نظم الحياة ولكنها لم توضع للآخرة مثلا، حتى تتم الأشياء بلا أسباب، بمجرد ورودها فى الخاطر أو الذهن تتم.

وكان هذا اللقاء بين الملك الكليم، والرسول الكريم معجزة لتعلن للناس أن المعلم هنا ليس الإنسان، ولكنه الله سبحانه، ولذلك قال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١].

أى إن الله هو المعلم، إنك لم تقرأ يا محمد بالأسباب، ولن تقرأ بأن نرسلك إلى معلم يعلمك القراءة والكتابة، ولكنك ستقرأ باسم الله، أو بقدرته. ستتعلم ما لم يتعلمه بشر، وكان هذا الإعجاز كافيا ليؤمن الجميع بأن المنهج من الله سبحانه وتعالى، ولكن الكبر والكفر والعناد من البشر، وقف حائلا دون ذلك.

وهكذا كان الإعجاز فى القرآن الكريم من أول لحظة، ولقد رأى محمد عليه الصلاة والسلام جبريل فى أكثر من صورة، ولكنه عندما صعد إلى السماء رآه فى صورته الحقيقية كتطمين من الله تعالى لمحمد، وإعجاز بأن أطلعه على ما لم يطلع عليه أحدا من خلقه.

إذن.. فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣].

دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنهج، ويعرف المبلغ عن الله وهو جبريل عليه السلام، ومن هنا فلا يقال ولا يقبل قول فيه أى اهتزاز عن الوحى، ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل رأى اليقين بحيث لا يختلط عليه أى شىء، بينما يعرف جبريل معرفة تامة، وهو ينقل عن يقين بأن الوحى من الله تعالى يقين حق.

وتمضى السورة الكريمة: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٤].

أى إن الله سبحانه وتعالى يشهد الرسول أنه يقوم بالتبليغ الكامل لكل شىء، ولا يحجب شيئا عن المؤمنين، بل إنه فى أمانة المبلغ حريص عليها كل الحرص، وفى تعليم المسلمين لدينهم وإفهامهم بكل أحكام هذا الدين لا يضن بشىء مما يوحى إليه غيبا عن الناس جميعا أى إنهم ليسوا شهودا على الرسول؛ والوحى وقت الإبلاغ، ولكن الله سبحانه وتعالى يشهد أن الرسول يقوم بتبليغ كل شىء.

لقد كانت هناك أحكام جاء القرآن وصححها، وأحكام أخرى جاء القرآن وأقرها، وهناك عتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى إفراطه فى الرحمة بمن لا يؤمنون، ذلك أن الرسول قد بعث رحمة للعالمين، يعرف ويرى تماما ما ينتظر غير المؤمنين من عقاب

عظيم، ومن هنا فهو مشفق على الناس جميعا لأنه مرسل إليهم جميعا، يحاول أن يبذل كل ما يستطيع وفوق ما يستطيع ليدخلهم إلى رحمة الله، لأن الله أرسله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وفى هذا يحمل نفسه فوق ما يطيق، والآيات التى فيها عتاب لرسول الله تحمل هذا المعنى، شىء حمل رسول الله نفسه عليه، وهو غير محمول عليه بحكم التشريع، شىء مباح ورسول الله قيد نفسه حتى فى المباح، وخرج من السهل إلى الصعب قول الله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ ﴾ [عبس].

أيهما أسهل على رسول الله، أن يدعو إلى الهدى رجلا أعمى، جاء وفى قلبه إيمان أم أن يتعب نفسه مع صناديد قريش الذين ملأ الكفر قلوبهم؟ الأسهل طبعا أن يجلس مع ذلك الذى جاء يطلب الإيمان فيهديه إلى طريق الإيمان، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار الطريق الأصعب، إنه يريد أن يعز الإسلام بصناديد قريش وزعمائها، وهنا تتدخل الإرادة الإلهية، الرسول يترك أمرا سهلا ميسورا، ويكلف نفسه بالجانب الشاق وهنا يقول الله، لماذا تترك السهل وتحمل نفسك كل هذه المشقة، لا تضيق على نفسك لأن الله غنى عن هؤلاء جميعا، والآية هنا من مقام العبادة، وزيادة القرب من الله سبحانه وتعالى، ولذلك كان رسول الله يحمل نفسه المشقة زيادة فى مقام العبادة، فيقول الله سبحانه وتعالى لنبيه، إننى لا أريد منك أن تحمل نفسك فوق ما تطيق، إنه حب من الله لنبيه، وحب وعبادة من الرسول لله.

ولعل هذه الآيات على قلتها تلفتنا إلى شىء، هو: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لم يبلغ كل ما أوحى إليه عن الله لكانت هذه الآيات هى ما يحجب عن المؤمنين، ولكنها دليل على صدق البلاغ عن الله سبحانه وتعالى، وأن رسول الله كما وصفه الله:

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٤].

أى إنه لا يخفى شيئا أبدا مما يوحيه الله إليه، ثم تمضى السورة الكريمة:

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير: ٢٥].

والشياطين فى الماضى كانت تسترق السمع فى السماء، وكانت فى استراقها هذا تعلم ببعض أشياء قبل أن تنزل إلى الأرض، ولكن هذا مُنِع تماما وقت نزول القرآن، وقد أخبرنا الله تعالى عن ذلك: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ ﴾ [الجن].

وهكذا وقت نزول القرآن مُنعت الجن والشياطين من استراق السمع لِما ينزل من السماء؛ ولذلك فإن هذا ليس بقول شيطان قد استرق السمع من السماء ووصل إلى شىء ما، بل إنهم معزولون تماما عن السمع لا يستطيعون الوصول إلى القرآن، ومنهج الشيطان مخالف تماما لمنهج الله سبحانه وتعالى فى كل شىء، وهو منهج يدعو إلى الإفساد فى الأرض، وإلى القتل والمذابح وبيح الحرمات.

ثم بعد ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التكوير: ٢٦].

وفى هذا تذكير لنا بأن الله خلقنا وأننا إليه نعود، فأين تذهبون؟ أى تختفون من الله فلا يوجد مكان فى الأرض يخرج عن علم الله، ولا يوجد عمل تعمله يخفى على الله سبحانه وتعالى، ولا يوجد مكان تذهب إليه ولا يستطيع الله أن يعيدك منه، كل المنافذ التى تعتقد أنها تستطيع أن تنجيك من الله فى الدنيا والآخرة مطلوب منك أن تأخذ بها ثم بعد ذلك سترى أنه لا يوجد منفذ واحد تستطيع أن تخرج فيه أو منه عن علم الله، أو إرادة الله، أو قدرة الله، فأينما تكن وحيثما كنت، يأت بك الله وقت أن يشاء، وحين يشاء.

أنتم تجادلون فى الدنيا، تجادلون فى هذا الدين، وتكابرون وتستكبرون فى الأرض، ولكن الله يريد أن يسألكم سؤالاً، ويطلب منكم الإجابة عليه: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾؟

أخبرونا فى أى مكان يمكن لكم أن تخرجوا عن إرادة الله سبحانه وتعالى، أو عن قدرته، كل واحد منا لابد أنه ملاقى الله، ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾؟ ذلك هو السؤال الذى لا يستطيع أى فرد أن يجيب عليه، ولا يملك أى إنسان القدرة والقوة أن يفلت من ملك الله.

الله سبحانه وتعالى سأل هذا السؤال، وطلب الإجابة، وهو يعلم أنهم سيعجزون عن الإجابة، ولكنه أراد أن يلفتهم إلى أن البشر كلهم سيلاقونه، وأنه لابد من لقاء الله ولذلك يجب أن يرسم كل إنسان حياته على أنه سيلاقى الله سبحانه وتعالى، ويسأل نفسه أين يذهب، وماذا سيفعل فى هذا الموقف، ولو كان هذا السؤال حاضرا دائماً فى أذهان الناس لامتنعوا عن كثير من المحرمات، والظلم الذى يرتكبونه، فإذا أرادوا أن يفتكوا بضعيف تذكروا قدرة الله عليهم، وإذا أرادوا أن يحصلوا على مال حرام، تذكروا أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يذهب هذا المال.. ومعه المال الحلال فيما ينغص حياة الإنسان، كالمرض الذى يجعل أى شخص ينفق الألوف بدون أن يستطيع الحصول على الشفاء، أو كالولد الفاسد الذى يأخذ المال بالقوة والعنوة، ويبعثره يمينا ويسارا حتى يفنيه، أو الزوجة التى لا تراعى الله فى مال زوجها، وتنفقه فى تفاهات الحياة، وببذخ شديد، كل هذه الأشياء وغيرها، إذا حدثت لك فإنك تنفق المال وأنت تعيس، أى إن المال الذى أخذته حراماً، لا يأتيك بالسعادة، ولكن يأتيك بالتعاسة، وأنت تعيش مريضاً بلا أمل للشفاء، أو ترى ابنا عاقا ينتزع أموالك بالقوة، أو زوجة تبعثر يمينا ويسارا على كماليات الحياة، هذا هو الشقاء الذى يأتى من نسيانك لله، ثم بعد ذلك يأتى يوم القيامة فيحاسبك الله على ما فعلت، فتكون فى هذه الحالة قد أخذت الشقاء فى الدنيا والآخرة، امتدت يدك إلى مال حرام فجعله الله نقمة عليك فكنت شقيا وأنت تنفقه، وكنت شقيا عند لقاء الله.

والإنسان إذا نسى الآخرة أو أنكرها، فليفعل ما يشاء، فالآخرة والحساب أساس الإيمان، ولقاء الله سبحانه وتعالى هو ما يشغل بال أى مؤمن ويجعله يتجه إلى الطريق السليم، والله سبحانه وتعالى الذى يشمل برحمته ملايين البشر فى العالم كل يوم، ليس

عاجزا عن أن يشملك برحمته، والله سبحانه وتعالى الذى يرزق كل من فى الأرض، ليس صعبا عليه أن ييسر لك رزقك ويزيده، ويفتح لك أبوابا جديدة، والله سبحانه وتعالى الذى يزيل برحمته الهموم والمتاعب كل يوم عن الملايين، ليس عاجزا عن أن يحل لك مشكلتك، والله سبحانه وتعالى يدبر كل شىء، وييسر كل شىء، قادر على أن يدبر لك، وييسر لك الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة، ولكنك حين تنسى لقاء الله تنقلب الموازين فتصبح الدنيا حراما أو حلالاً، هى الهدف، لا فرق بين ما يغضب الله، وبين ما يرضيه، لأنك لا تؤمن بلقاء الله فى الآخرة، ومن هنا جاء السؤال ليجعلك تفكر قليلا وترى أن كل إنكار للقاء الله سبحانه وتعالى هو زيف حقيقة، والله يقول: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾؟ وليقل لنا أى إنسان غير مؤمن إلى أين سيذهب؟ وكيف سيهرب من لقاء الله؟! وتستطرد السورة الكريمة: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٧].

وكلمة: ﴿ ذِكْرٌ ﴾ هنا تلفتنا لفتة ثانية، معنى «الذكر» أن شيئا كان عندك فغفلت عنه وبذلك يذكرك به، وكان الأصل فى الإنسان أنه حينما خلقه الله سبحانه وتعالى تلقى المنهج عن آدم عليه السلام، وكان مفروضا أن آدم يبلغه لذريته، ولكن الحقيقة أنه كلما بعد الزمن تغفل النفس قليلاً، ويبدأ التحريف والتبديل فى منهج الله، وينصرف الناس عن المنهج واضعين أهواءهم أساسا لحياتهم، فيبعث الله رسولاً، ليذكرهم، وفى القرآن يروى لنا الله سبحانه وتعالى كيف غفل الناس جيلاً بعد جيل عن الله، وكيف أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل إليهم، كما يبين الله لنا الداءات التى تهلك المجتمع وتصيبه بغضب من الله تعالى.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

بعض السطحيين الذين يقرأون القرآن يسأل: كيف أقر الناس وأجابوا ببلى عندما سألهم الله: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾؟

ثم بعد ذلك اختلفوا، والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى أشهدهم على ربوبيته وهى شىء لا يختلف عليه أحد فى العالم، والله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى عطاء الربوبية عطاء متساويا للجميع، فالشمس ترسل أشعتها للكافر والمؤمن سواء بسواء، ولا تأتى على أرض المؤمن فتشرق عليها، وعلى أرض الكافر فلا تشرق، وكذلك الأرض تنفعل بكل من حرثها ووضع البذرة فيها، ثم سقاها بالماء، سواء كان هذا الإنسان مؤمنا أو كافرا، فهى لا تفرق بين هذا وذاك، وإنما تعطى للشخص بقدر عمله وإخلاصه فى إصلاحها، وريها والعناية بشؤون الزرع، هذا كله عطاء ربوبية، فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الشمس ولا أحد يمكن أن يقول أنه هو الذى أوجد الأرض، ولا البحار ولا الريح، ولا الجبال، ولا خواص الغلاف الجوى، إلى آخر ما نعرفه، ونستفيد منه، هذا كله عطاء

ربوبية خصصه الله للإنسان على إطلاقه، ولم يخصصه لمؤمن من دون كافر، ولا أحد يستطيع أن ينكر عطاء الربوبية، لأنه ظاهر، ولا أحد يمكن أن يدعيه لنفسه من دون الله، إذن فعطاء الربوبية لا يختلف عليه أحد، ولكن المسألة هى فى العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى فالله قد قال: ألست بربكم، ولم يقل ألست بإلهكم، وكأن عطاء الربوبية الذى نراه أمامنا واضحا جليا، يجب أن يقودنا إلى العبودية لله سبحانه وتعالى.

إذن.. فمعنى القول: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ [التكوير: ٢٧].

إن الإيمان فينا بالفطرة، وإنه كان يجب أن ينقل إلينا كما علمنا آباؤنا كثيرا من أمور الحياة ولكن قضية الدين دائما تتبعها الغفلة، لماذا؟، مثلا لم يغفل الإنسان أو لا يغفل أبدا عن صنع الخبز، وهى عملية منقولة لنا عن الآباء، هم الذين علمونا كيف يطحن الدقيق ويترك حتى يخمر ثم يخبز، وقالوا لنا إنه إذا لم يترك الدقيق حتى يخمر فسد الخبز، وحرصنا نحن على ذلك، ولكننا سمعنا منهم عن المنهج، ولم نحرص عليه، لماذا؟ لأن المنهج يقف دائما أمام شهوات النفس، فى أن تغتصب ما لا حق لها فيه، وأن تعتدى على الضعيف، وأن تحصل على مال بدون وجه حق، والنفس بطبيعتها تريد أن تتملك بلا حدود، ورغم علم الإنسان يقينا، أنه سيأتى إليه يوم قرب أو بعد، يترك هذه الدنيا، ويخرج منها كما دخلها لا يحمل شيئا من متاع الدنيا ولا زخرفها، رغم علمنا بذلك، فإن الطمع البشرى يجعلنا نريد أن نملك ونملك، حتى ولو عرفنا أننا تاركوه، بل إن الإنسان رغم علمه اليقينى بالموت يعتقد أن كل إنسان غيره سيموت، ويستبعد هو نفسه أن تأتى نهايته، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم أر يقينا أشبه بالشك كيقين الإنسان بالموت»[1].

الدين يضع القواعد والضوابط، ويسوى بين الناس، ويكبح جماح النفس، ذلك الذى يريد أن يحصل على كل شىء حقا كان أو باطلا، وألا يحصل غيره على شىء، هذه الأشياء التى يظنها البعض قيودا على النفس وهى فى الحقيقة خلق مجتمع يسوده السلام والحب، ونبذ الكراهية والحقد، ولو طبق كل إنسان منهج الله على نفسه لاستراحت البشرية كلها، والله سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿ ذِكْرٌ ﴾.

يعنى أن هناك قضية، وهى قضية الغفلة عن المنهج، وأن الله يريد أن يذكرنا بها؛ علنا نناقش أنفسنا، والعجيب أننا فى أشياء كثيرة نترك الذكر تماما، فالابن إذا أصيب بمرض، يأتى له الأب بأحسن الأطباء وقد يحمله من بلد إلى بلد باحثا عن الشفاء، ولكنه إذا عرف أن ابنه لا يصلى تجاوز عن ذلك ببساطة ولا يذكره بالصلاة، ولا يذكره بمنهج الله، ولكن من أين تأتى الغفلة.

---

(١) سبق توثيقه.

ولماذا تصيب الإنسان بالذات؟ لأن الإنسان هو الذى اختار أن يحمل الأمانة.

أخذ الإنسان حرية الاختيار فى أفعل ولا تفعل، فماذا حدث؟ صور له جهله أشياء كثيرة فعبد كل شىء فى الدنيا، لا ينفعه ولا يضره، عبد الأحجار والأصنام، وعبد النار والشمس، وعبد الحيوانات المفترسة والحيوانات الأليفة، وانطلق فى جهل بعيد عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون المدبر له، انطلق الإنسان جاحدا بنعمة الله، ترك الرسالات التى أنزلها الله سبحانه وتعالى له ليبين له طريق الحياة الطيبة الآمنة، وأخذ يشرع لنفسه حسب أهوائه، فأصابه الشقاء فى الدنيا، وحلت به الكوارث، ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك؟

إذا أردنا أن نصل إلى ما تريده النفس البشرية فى هذه الدنيا، فقد لخصه الله فى شيئين أساسيين وصف بهما وصفاً بليغاً مدخل الشيطان إلى النفس البشرية، وما يريده كل إنسان وذلك أن الشيطان حين أراد أن يغرى آدم بمعصية الله سبحانه وتعالى قال له:

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

إذن.. فالإنسان يريد شيئين فى الدنيا: الخلود، والأموال التى لا تفنى ولا تنتهى، إنه يريد أن يبقى فى الدنيا خالدا لا يموت، ويريد أن يكون له ملك يعيش عيشة الترف التى يريدها بدون أن تتأثر هذه الأموال بكل ما ينفقه، ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية، هذه الآلهة كلها التى اخترعها البشر هى إما جالبة للرزق، أو دافعة للضرر وتبعده عن الموت، وهى فى الحقيقة لا تفعل هذا ولا ذاك، ولكنه الخوف الذى يضعه الشيطان فى النفس غير المؤمنة هو الذى يجعلها تعتقد أن هناك شيئا فى يد أحد غير الله سبحانه وتعالى وهنا نتوقف قليلا عند هذه النقطة، الله سبحانه وتعالى حين أخذ من آدم ذريته، وأشهدهم على أنفسهم، نجد فى النفس البشرية أثر هذا حتى الآن، فكل نفس بشرية تعرف الله بالفطرة، ولا تحتاج لأى شرح إذا ذكرت لها كلمة الله سبحانه وتعالى، يكفى أن تذهب إلى الحج لترى اسم الله ينطق بجميع لغات الدنيا، بكل لغة من لغات العالم، والمعنى واحد وهؤلاء الناس الذين جاءوا من كل بقاع الأرض قد لا يفهمون بعضهم البعض، ولا يتكلمون لغة بعضهم البعض، ولكن إذا ذكر اسم الله أمامهم توحدت قلوبهم عند كلمة الله، وإذا أقيمت الصلاة توحدت وقفتهم جميعًا بين يدى الله، هم لا يعرفون بعضهم البعض، وربما التقوا أياماً فى الحج، ثم بعد ذلك لا يلتقون، ولكن رغم أنهم غرباء فى كل شىء، لكن تجمعهم كلمة الله سبحانه وتعالى بل إن الله سبحانه وتعالى يمعن فى التحدى فى القرآن، إنه هو خالق كل شىء، وهو الله لن تجد اسمه يطلق على أحد.

هذه نقطة يجب أن نقف عندها، إن عادة الإنسان أن يطلق اسما على كل شىء، لا يوجد شىء فى الدنيا بغير اسم إلا إذا كان مجهولا من الإنسان، فكل شىء يطلق عليه اسم أنت لك اسم، وإذا جاءك ابن تطلق عليه اسما، والظواهر الطبيعية لها أسماء، وكل شىء

فى الدنيا له اسم، والاختراعات الجديدة والاكتشافات الجديدة يضع الإنسان لها أسماء، حتى يستطيع الإنسان أن يعرفها أو يُعرِّفها - بتشديد الراء - .

إذن.. فكل شىء فى هذه الدنيا له اسم يميزه عن غيره، ثم يأتى القرآن ويتحدى، ويقول: إن اللّه سبحانه وتعالى لن تجد له سميا، أى لن تجد إنسانا باسمه، والتحدى هنا لمن، التحدى فى القرآن، وفى الإيمان، هو للمشركين والكفار، ذلك أن القرآن لا يتحدى المؤمن أبدا، لأن المؤمن قد آمن وأطاع، وهو ليس محتاجا للتحدى، ولكنه محتاج لما يزيده إيماناً، وقربا من اللّه سبحانه وتعالى، أما المحتاج للتحدى فهو ذلك الذى يكفر، فيأتى اللّه ليقول له: إن هناك تحدياً، تحدياً لك فى كذا وكذا، فهل تستطيع أن تفعله يا من تعبد نفسك، أو تعبد الإنسان، أو تعبد الحجر، أو تعبد أى شىء آخر، إذا كنت تريد أن تثبت حقيقة أنك أنت وما تعبده، يعضددونك ويشدون أزرك، لهم قطرة من القوة، فإننى أتحداكم أن تفعلوا كذا وكذا، والتحدى دائما من اللّه سبحانه وتعالى للإنسان، يكون فى أمر اختيارى، إذ إن التحدى لا يمكن أن يكون فى أمر إجبارى يجبر الإنسان عليه، بمعنى مثلا أننى لا أستطيع أن أقول لإنسان إننى أتحداك مثلا أن تطيل عمرك شهرا أو شهرين. أو أتحداك ألا تصاب بمرض طوال حياتك إلى آخر هذه الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها، هنا يكون التحدى بالغ الصعوبة، وغير ميسر، وأحيانا مستحيلاً ولا يعتبر تحديا.

ولكن اللّه سبحانه وتعالى حينما يتحدى، يأتى بأمر اختيارى يمكن لأى إنسان أن يصل إليه ويتحدى فيه، فاللّه سبحانه وتعالى مثلا عَلم أزلا أن بعض الناس سيتخذون العلم الذى أتاحه اللّه لعقول البشر وجعله فى طاقتها، سيأخذون هذا العلم ليعبدوه ويتخذوه إلها، ويقولون انتقلنا من عصر الدين إلى عصر العلم، هذا علم اللّه أزلا، فوضع فى القرآن ما يرد عليهم، قال لهم: إن العلم الذى تعبدونه من دون اللّه قد يوصلكم إلى أشياء تدهش عقولكم، وتزعزع إيمانكم، ولكنى أقول لكم إن هذا العلم بهيلمانه عاجز عن أن يخلق ذبابة، هذا تحدٍ رهيب للعلم الذى وصل إلى القمر وهو فى طريقة إلى المريخ لن يستطيع أن يخلق ذبابة واحدة، ولو اجتمع لها علماء العالم كله، وفعلا كان هذا هو التحدى، وهنا يقول: أنا سأعطيكم من علمى ما أريد لتصلوا إلى القمر، وتطيروا فى الهواء، وتفعلوا ما يعتبره العقل البشرى أشبه بالمعجزات، ولكن لكى تعلموا أن هذا بإذنى وأمرى، فإننى سأمنع عنكم خلق أحقر شىء «الذبابة»، ستصلون بعلمكم إلى ما أريد، ولكن لو اجتمع علماء العالم كلهم ليخلقوا ذبابة ما استطاعوا.

ويأتى العلم ليحقق للعالم أشياء كثيرة، حتى أن الإنسان أصبح يملك وسائل نسف الأرض ووسائل الكترونية حديثة تفوق فى خدماتها كل ما تصورته العقول، ونزل الإنسان فوق القمر، وهو فى طريقة إلى كوكب الزهرة، إلى غير ذلك، ولكن التحدى ظل قائما،

ذلك أن الإنسان لا يستطيع مع كل ما أوتى من العلم أن يخلق ذبابة، أو حتى جناح ذبابة.

جاء التحدى فى أشياء أخرى كثيرة فى القرآن مثل المطر، وبالرغم من كل الاختراعات الحديثة، فإن العلم عاجز عن أن ينشئ سحابة صناعية، ويجعلها تمطر حيث يريد ؛ بل إن بعض بلاد الدنيا تعانى من كثرة الماء وكثرة الأمطار، والبعض الآخر يعانى من القحط الشديد، والعلم لا حيلة له فى ذلك، مع أن الله كشف لنا الطريقة التى يتكون بها السحاب، ثم الطريقة التى ينزل بها المطر، وهنا إمعان فى التحدى، إذ إنه يعطينا الأسباب ويجعلنا عاجزين عن العمل، ثم يتحدانا فى أمر اختيارى كإنزال المطر مثلا، وهو أمر أبسط كثيرا علميا من الوصول إلى القمر والمريخ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يقوم به.

وفى القرآن تحديات كثيرة ليست هى موضوع حديثنا الآن، إذ إن الحديث عن الله والنفس البشرية، حين يأتى الله سبحانه وتعالى ويريد أن يتحدى الكفار فى شىء اختيارى هل الله يريد أن يتحدى كافرا بعينه، أو طبقة من الكفار بعينها كالعلماء أو التجار، أم أنه يريد أن يكون التحدى شاملا للجميع، يستطيع أن يقدر عليه كل كافر حتى ذلك الذى لا يكتب حرفا، لم يعرف من الدنيا شيئا، يأتى الله سبحانه وتعالى ويجعل التحدى هنا عاما فى مقدرة كل فرد.

أى إنه يتحدى فى الاسم، والاسم هنا شىء يقدر عليه كل إنسان، بل ويستخدمه كل إنسان فى الدنيا كلها.. كل فرد يستخدم الأسماء مهما بلغت ثقافته أو علمه، أو جنسيته، إلى آخره، ويأتى الله سبحانه وتعالى ويتحدى، ويقول إننى أنا الله، وهذا اسمى، سأختص به نفسى، ولن تجد له سميا، أى مسمى بهذا الاسم فى الدنيا كلها.

يأتى هذا التحدى وأنا أوجه السؤال إلى كل من يقرأ هذا الحديث، هل سمعتم عن إنسان اسمه «الله»؟ هل سمعتم أن عقلا بشريا جرؤ على أن يطلق هذا الاسم على ابن له أو زوج له؟ أو على أى شخص كان؟ حتى الآلهة التى اخترعها الإنسان ليعبدها جعل هذا التحدى فى أمر اختيارى، أى يستطيع أى إنسان أن يفعله بإرادته، وفى أمر لا يستلزم أى مؤهلات، أى يستطيع أى فرد فى الدنيا أن يقوم به بدون أن تكون له ثقافة أو علم، أو فكر أو أى شىء مميز، أى إنه تحد للبشرية كلها، ومع أن هذا التحدى نزل منذ أربعة عشر قرنا، ومع أن هناك أناسا يعملون ضد دين الله، ويحاولون هدمه، لم يستطع واحد منهم أن يطلق هذا الاسم على فرد أو شىء، أو حتى على إله يعبده، وهكذا بقى التحدى، وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا التحدى لا يقدر عليه إنسان، ولا يمكن أن يقوم به بشر مهما بلغ شأنه، ولكن التحدى فى أمر اختيارى لا يستلزم أى صفات أو مؤهلات معينة، وعجز الإنسان عن مواجهة هذا التحدى، هو قدرة من قدرات الله سبحانه وتعالى وحده.

وبرغم هذا التحدى الذى لا يجيب عليه أحد، نجد بعض الناس يحاولون جاهدين إنكار وجود اللّه سبحانه وتعالى، ويجادلون فى ذلك جدلا كثيرا، ولكن هؤلاء الناس أنفسهم حينما تعجز الأسباب عن أن تدفع عنهم ضرا، وحين يجدون أنفسهم فى كرب لا يستطيعون الخروج منه، أو فى أى بلاء لا يستطيعون رده، نجد ألسنتهم تصيح بلا شعور: يا رب، وتستنجد باللّه الذى يحاولون إنكار وجوده، كيف تستنجد نفس باللّه سبحانه وتعالى، وهى فى الوقت نفسه تحاول أن تنكر وجود اللّه، إنها تفزع إليه، تستغيث بالخالق بالقدرة، بالقوة، بالذى يقول للشىء: ﴿ كُن ﴾ فيكون، كيف يتم ذلك؟

وإذا كان اللّه سبحانه وتعالى قد عرف ضعف النفس البشرية، كما علم أنها ستبتعد عن المنهج، فوضع لها تحديات فى القرآن الكريم، فإنه سبحانه وتعالى حفظ القرآن من العبث البشرى، فماذا فعل اللّه، لقد كانت الكتب السماوية التى سبقت القرآن أمانة فى أعناق البشر، ومعنى ذلك أن اللّه سبحانه وتعالى قد ائتمن البشر عليها، هم الذين يحفظونها من أى تحريف أو تبديل، أو إغفال لذكر أحكام اللّه، ولكن اللّه سبحانه وتعالى اختص القرآن الكريم بأنه يحفظه.

وبذلك بقى القرآن الكريم أربعة عشر قرنا، وسيبقى إلى يوم القيامة، محفوظا من أى عبث بشرى، أو أى تدخل من أى إنسان كان، ومهما بذلت من محاولات، ومهما دبر فإن أحداً لن يستطيع أن يمس القرآن، لأن اللّه سبحانه وتعالى يحفظه، ويقيه من أى تحريف أو تدخل بشرى، ولذلك فإنك ترى مثلاً أنه بينما خط الحفاظ على المنهج من المسلمين يتقلص مع مرور الزمن، أى إن عدد المسلمين الذين يتبعون المنهج ويعيشونه يقل مع الزمان، ومع المغريات المادية، فإن خط حفظ القرآن يعلو ويتضاعف، فتجد ألمانيا تطبع القرآن بشكل جميل فى لوحة واحدة، مع أنها لا تؤمن بالقرآن، وتجد اليابان مثلاً، وإيطاليا، تطبعان المصاحف طباعة متقدمة، وتجد كل إنسان يضع المصحف فى جيبه، أو فى سيارته، أو آيات قرآنية تعلق على الصدر، وتعجب أنت من أن الخط الإيمانى يميل إلى الهبوط، بينما حفظ القرآن يعلو ويزداد، نقول لك: إنه لو كان الخطان يتبعان إرادة البشر لكان من المنطقى أن يسيرا فى اتجاه واحد، ولكن هناك خطًا يتبع الإرادة البشرية وهو الإيمان، وخطًا يتبع إرادة اللّه سبحانه وتعالى، وهو حفظ القرآن مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

أما الخط البشرى فيتناقص، وأما الخط الإلهى فيعلو ويزداد، وهذه إحدى معجزات القرآن.

ثم تأتى السورة الكريمة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ ﴾ [التكوير].

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ؛ أى: إن هذا القرآن نزل ليذكر الناس بالطريق المستقيم،

ليعلمهم طريق العبادة، والحياة الطيبة الآمنة على الأرض، فالقرآن للأحياء وليس للموتى، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى وضع فيه السعادة فى الدنيا والآخرة ؛ وهو موجود ليذكر الناس حتى لا يكون لأحد حجة على الله سبحانه وتعالى فى أنه لم يعرف طريق الهداية أو جهل هذا الطريق، فالقرآن موجود لكل من يريد أن يتذكر، إلا أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

إذن.. هو لم يطلق التذكرة هنا لكل البشر، ولكنه حددها، إن هذا القرآن أتى ليكون مذكرا لكل من أراد الاستقامة، فإذا أمسكت القرآن، وبدأت تدرس تعاليمه، بهدف الاستقامة، هداك الله سبحانه وتعالى إلى الطريق المستقيم، وإلى الخير. ثم تأتى الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وهذه الآية تحدد طريق المشيئة، بأنها من الله سبحانه وتعالى، وهى تثير جدلا كثيرا وبعض الناس يرى فيها سلبا لحرية الاختيار التى أعطاها الله للبشر، ذلك أنه إذا لم أصل فقد شاء الله ألا أصلى، وإذا تركت الصوم، فقد شاء الله أن أترك الصوم، وإذا لم أزك فهذه مشيئة الله، فلماذا يحاسبنى؟ وهذا القول فيه مغالطة شديدة، ولنبدأ الحديث بالتفصيل.

الله سبحانه وتعالى حين خلق الإنسان جعل له أشياء هو مخير فيها، وأشياء لا اختيار له فيها، ومعظم الأشياء خلاف العبادات، والتكليف، وأمور الحياة، الإنسان غير مخير فيها، فشكل الإنسان وهل هو طويل أم قصير، ذكى أم غبى، أبيض أم أسود، قوى البنية أم ضعيف البنية، من هو أبوه، من هى أمه، ما هو بلده الذى يولد فيه، كل هذا لا اختيار للبشر فيه، الكون كله بشمسه وقمره، ونجومه وجباله، وأرضه ونظامه البالغ الدقة، الأجل والموت والحياة والصحة، والمرض، كلها عوامل لا تخضع للمشيئة البشرية، رغم ما يدعيه عدد من الناس، فالطبيب هو واسطة الشفاء، وليس هو معطى الشفاء، والله أحيانا يهدى أصغر الأطباء إلى الداء فيعالجه، وأحيانا يعمى أكبر الأطباء عن الداء، فلا يستطيع أن يقدم العلاج.

الجسد البشرى لا دخل للإنسان فيه، فى أجزاء كبيرة منه، فالقلب يدق سواء أردت أنا أم لم أرد، والمعدة تعمل على هضم الطعام بدون أن أصدر إليها أمرا بذلك، والدورة الدموية تسير وأنا لا أكاد أحس بها، وأشياء كثيرة فى الجسم تمضى بدون ما إرادة منى، بل إنها فى كثير من الأحيان تؤدى وظيفتها وأنا نائم، لا أدرى شيئا، إذن هذه الأشياء كلها لا اختيار لى فيها ولا حساب عليها، نأتى بعد ذلك إلى الأشياء التى تدخل فى نطاق الحساب، وهى الحياة، بكل معاملاتها وكل ما يدور فيها، الله سبحانه وتعالى قد وضع لى أشياء، وترك لى الخيار، أى إن أختار بين البدائل، ولم يضع عليها قيودا فى أفعل ولا تفعل، فأنا مثلا أستطيع أن أضع أثاثا فى المكان الذى أعيش فيه يلائم ذوقى، وليس هناك حساب، أو أن أختار لونا معينا لثوب أرتديه، أو أن أختار شكل الثوب، أن أركب القطار

أو الباخرة، أو الطائرة، أو السيارة، أختار وسيلة المواصلات كل هذا يدخل فى المنطقة الاختيارية للإنسان، ولكن لا عقاب عليه ؛ لأن الله لم يحدد لى شيئا ويترك كل ذلك لاختيارى.

ثم ندخل بعد ذلك فى منطقة التكليف، وهى المنطقة التى عليها الحساب، والتى قال لى الله سبحانه وتعالى فيها، أفعل ولا تفعل، مادام الله سبحانه وتعالى قد قال أفعل فلابد أنه أعطانى القدرة على الفعل، وما دام الله قد قال لا تفعل.. فلابد أنه أعطانى القدرة على عدم الفعل، وهنا منطقة الحساب، وهذه تخضع للمشيئة البشرية بلا قيود بل إن هناك قيودا قد وضعها البشر على هذه المنطقة الاختيارية، فجاءها الله وأبطل هذه القيود من الحساب ؛ حتى يكون العدل مطلقا، فإذا أتيت بإنسان، وظللت أعذبه عذابا فوق طاقته، ليقوم بفعل منكر نهى عنه الله، فإنه إذا قام بفعل هذا المنكر غفر الله له ؛ لأنه لم يتم بالإرادة الحرة النابعة من هذا الإنسان، بل تم بالتعذيب، وتصل هذه المسألة إلى حد الفتيات اللاتى يُكْرهن على أعمال سيئة بالتعذيب يغفر الله لهن، مادام هذا ناتجا عن تعذيب وإكراه، وليس عن إرادة حرة، بل إن من يُكره ليعلن عدم إيمانه، وهو فى قلبه مؤمن، يكتب عند الله مؤمنا.

إذن.. فما معنى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩]. معناه أن كل شىء فى هذا الكون خاضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى، وقد شاء الله أن يعطيكم الاختيار الحر فى عدد من المسائل، ترك لكم أن تفعلوا فيها ما تريدون، ولو شاء الله سبحانه وتعالى، ما أعطاكم هذا الاختيار، فهناك خلق من خلق الله نراه أمامنا لا يخضع لأى اختيار، كل ما خلقه الله فى هذه الأرض، من جماد، ونبات، وحيوانات، كلها مقهورة تؤدى مهمتها فى الكون بلا اختيار، والملائكة الذين لا نراهم، هم أيضا لا اختيار لهم، والله سبحانه وتعالى قد خلق كل هذه المخلوقات، ومشيئته أن تكون مقهورة على ما تفعل، ولذلك سقط عنها الحساب، وخلق الجن والإنس، وشاء الله أن يكون لهم اختيار فى بعض أمورهم ؛ ولذلك جاء هذا الاختيار طبقا لمشيئة الله سبحانه وتعالى، ولو لم يكن الأمر كذلك، فأرونى إنسانا يستطيع أن يكون له اختيار، فيما لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يعطيه الاختيار فيه، أرونى إنسانا قادرا على أن يتنفس، أو لا يتنفس، طبقا لاختياره هو، ويبقى على قيد الحياة، أرونى إنسانا يستطيع أن يأمر معدته أن تتوقف عن هضم الطعام عندما يشاء، أو أن تقوم بهضم الطعام إذا أصيبت بمرض منعها عن أداء وظيفتها، أرونى إنسانا يستطيع أن يتحكم فى لونه أو فى أمه، ومن تكون، أو أبيه ومن هو، أو فى أى بلد يولد، أو أن يعطى الحركة لقدميه أو يديه باختياره هو إذا أصابها الشلل.

كل هذه الأشياء - ولقد أتيت بها من داخل الجسد البشرى - لا تخضع لاختيار البشر، حتى ولو أرادوا ذلك، لماذا؟، لأن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا تخضع، كما

شاء للإنسان أن تكون له إرادة حرة فى منطقة معينة من حياته من أفعل ولا تفعل، أرونى إنسانا يستطيع أن يوقف الشمس عن الظهور أو يمنع الليل من المجىء، أو يوقف الأرض عن دورانها، كل هذا شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون للبشر فيه مشيئة.

إذن.. فقول الله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ لا يتعارض أبدا مع المشيئة الحرة للبشر، ذلك أن الله شاء فى أشياء ألا تخضع لاختيار البشر، وخرجت فعلا عن هذا الاختيار، وشاء فى أشياء أخرى أن تبقى داخل الاختيار البشرى، فكانت مشيئة الله نافذة وكان الاختيار الحر للبشر فى عدد من أمور حياتهم، إذن فهذا الاختيار الحر يخضع لمشيئة الله ؛ لأن الله شاء أن يكون للبشر اختيار فى هذه المنطقة، ولو كانت إرادة الله غير ذلك لما استطاع بشر أن يكون له اختيار.

وبذلك تكون حرية الإنسان داخل المشيئة الإلهية ؛ لأن الله شاء له أن يأخذ هذه الحرية ليحاسبه عليها، ثم بعد ذلك، نأتى إلى النقطة التالية، وهى أن الله سبحانه وتعالى علم أن هذه المشيئة ستفسد البشر، وتبعدهم عن نور الله، فالإغراءات كثيرة، والإنسان خلق ضعيفا، وهنا جاءت رحمة الله ليعطى شعاعا من نوره، لكل إنسان يضل الطريق، هذا الشعاع يهدى إلى الحق، ويرينا طريق الحياة السعيدة المطمئنة فى الدنيا والآخرة، كيف يحدث ذلك؟

وقبل أن نكمل الحديث عن هذا الموضوع، أحب أن أتعرض إلى أن حرية الاختيار التى أعطاها الله سبحانه وتعالى للإنسان عبر عنها فى القرآن الكريم بكلمة الأمانة، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ما هى الأمانة؟ معناها العام: هى أن يعطيك إنسان شيئا تحفظه له عندك كأمانة ؛ ويشترط لذلك أن يكون هذا العطاء بينك وبينه بلا شهود، فإن كان هناك شهود لم تصبح أمانة ولكنها تصبح دينا، وإذا كانت هناك ورقة مكتوبة لا تصبح أمانة ولكنها تصبح ديناً مسجلا على ورقة.

إذن.. فشرط الأمانة أن تكون بينك وبين الشخص الذى ائتمنك بدون شهود بحيث تستطيع أن تنكرها إذا أردت، وأن تفى بها إذا أردت، وفى كلتا الحالتين يكون الوازع هو الحق وحده وهو الإحساس بوجود الله سبحانه وتعالى وبأنه هو المطلع.

إذن.. فالأمانة التى عرضها الله سبحانه وتعالى على الإنسان ؛ عرضها قبل ذلك على عدد من مخلوقاته، لكن هذه المخلوقات جميعا رفضت أن تحمل الأمانة ؛ لأنها أحست أنها لن تستطيع أن تفى بها، فالنعم التى أعطاها الله سبحانه وتعالى لنا لها حق أداء، وهذه المخلوقات كلها أحست بعجزها عن حق أداء الشكر لله على نعمه ؛ ولذلك رفضت، وجاء الإنسان، وقبل حمل الأمانة، قبل أن يأخذ النعم، ويؤدى عنها حق

الشكر، وحق العبادة لله، وأن يكون فى ذلك مختارا، يفعل أو لا يفعل، وكما تفرح أنت إذا ترك إنسان عندك مبلغا ضخما كأمانة، فإذا احتجت إلى شىء، كان من السهل أن تمد يدك وتحصل على ما تريد، ثم يأتى وقت المطالبة، فلا تستطيع أن تفى بالأمانة التى حملتها، فقد فرح الإنسان بأن لديه رصيدا من النعم التى سخرها الله سبحانه وتعالى له يستطيع أن يسحب منها كما يشاء وعندما يريد، بدون أن يؤدى حقها لله، حق شكر، وحق عبادة، وحق طاعة ؛ ولقد كان الإنسان حين فرح بذلك ظلوما، لماذا؟ لأنه ظلم نفسه، فطلب مالا تقدر عليه هذه النفس الضعيفة أمام مغريات الكون، ولأنه ظلم غيره، لأن البعد عن منهج الله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بظلم، فلو اتبعنا جميعا الحق، ما بعدنا عن منهج الله، ولفسدت الأرض، فالحق هو ما يطالبنا به الله، فإن اتبعناه، فنحن لم نخن الأمانة، لأننا اتبعنا منهج الله فى الأرض، ولكن متى نخون الأمانة؟ عندما نظلم، نأخذ حق الغير، نمد أيدينا إلى مال حرام، نعتدى على حرمة غيرنا وماله وعرضه، حينئذ نكون قد ظلمنا الناس وخنّا الأمانة، فالظلم هنا يرتبط بالبعد عن منهج الله، وهو ظلم للنفس، بقيادتها إلى غير طريق الحق، وهو ظلم للناس، بالاعتداء على حقوقهم، فالقوى يسلب الضعيف حقه، والغنى يستغل الفقير، وتفسد الدنيا من ظلم البشر.

والإنسان عندما فعل ذلك كان جهولا، لماذا؟ لأنه ظن أنه سيكسب شيئا، فقاد نفسه إلى الهلاك بدون أن يكسب أى شىء، صور له جهله أن الدنيا هى الأساس، وصور له غروره أنه يستطيع أن يحصل على مُلك لا يبلى - أى لا يزول - وصور له قصر نظره أنه يستطيع أن يخلد فى الأرض، وأن يعيش إلى ما لا نهاية، وأن هناك من الوسائل البشرية ما يمكن أن يؤخر الموت، ويعطى حياة طويلة، كل هذا هو شعور الإنسان الذى صوره له جهله، ذلك أن الإنسان رغم معرفته الأكيدة، بأنه ميت لا محالة، فإنه يتصور أن يموت الناس جميعا إلا هو، ويحس حتى وهو فى أحلك الظروف، وهو يصارع الموت، أنه سينجو، ولو أن كل إنسان أحس يقينا بالموت، لتغيرت الدنيا كلها.

إذن.. فالإنسان حمل الأمانة، أمانة الشكر على عطاء الله، الشكر على نعمة الحياة الشكر على رزق الله، الشكر على أن الله سبحانه وتعالى يبارك له، ويعطيه، ويرزقه، وينجيه من كل سوء، ويدفع عنه كل شر، حمل الأمانة، التى تلزمه بالحق بين الناس، وبالعدل فى حكمه، وباحترام حقوق الآخرين مهما كانوا ضعفاء، حمل هذه الأمانة، ونزل إلى الأرض، فماذا فعل؟ استطاع الشيطان أن يصل إلى قلبه، وصور له أنه يستطيع أن يملك، وأن يملك بلا حساب، بينما فى الحقيقة أن مُلك الإنسان ينحصر فيما ينفقه لحاجاته، وأحيانا تجد إنسانا غنيا تقدم به العمر ومع ذلك هو يحاسب عن كل قرش أنفقه ويحاول أن يوفر بقدر ما يستطيع، وتسأل أنت وتتعجب، كيف تكون هذه الأموال كلها عند هذا الإنسان، ثم يقتر على نفسه هذا التقتير وتجد أنها مسألة لا تتمشى مع حكم العقل، ولا

مع منطق التفكير، نقول لك، ولكنها تتمشى مع قدر الله، فالمال رغم أن هذا الرجل قد كسبه، ليس رزقه، ولو كان رزقه لتمتع به، ولكنه مجرد حارس عليه ليسلمه إلى صاحبه، وهو فى دوره هذا بالحراسة على هذا المال، إنما يأخذ منه رزقه فقط، ويبقى أمينا على الجزء الباقى، حتى يوصله إلى أصحابه، فيأخذوه وربما أنفقوه فيما لا ينفع ولا يجدى.

إذن.. فالإنسان حين قبل الأمانة، وقبل أن يحملها، لم يقدر أنه سيأتى يوم من الأيام يسأله الله عنها، وأين بدد الأمانة، وصور له جهله أن ما يتمتع به فى الدنيا، هو الذى سيفوز به، وأنه إذا ملك أكثر من حاجته أمن غده وأصبح آمنا مطمئنا، بينما الحقيقة أن الأمانة فى وجه الله وحده وأن الإنسان مهما مَلك قد يأتى عليه يوم وليلة ينزع فيها كل ملكه، ويصبح لا يملك شيئا، وأمامنا الأمثلة فى كل مكان في العالم مما يحدث.

والله سبحانه وتعالى أعطى للإنسان حرية الاختيار بالمشيئة؛ لأن الله شاء أن يكون الإنسان حرًا فى عدد من جوانب حياته، وفى الوقت نفسه حمله أمانة الطاعة والشكر لله، وجعل هذه الأمانة بينه وبين الله سبحانه وتعالى، لا يطلع عليها فرد، ولذلك كان من دقة القرآن الكريم أنه أطلق لفظ الأمانة على ما حمله الإنسان، لماذا؟

لأنه لا يوجد أحد يعرف ما بين الله وبين البشر، إلا الله سبحانه وتعالى، فأنا قد أتظاهر بالصلاح وأذهب إلى المسجد وأصلى فى كل وقت، ولكن هذا التظاهر لا يكون عبادة، وإنما يكون لأحصل على سمعة طيبة بين الناس، أو ليتيسر لى أمرا من أمور الدنيا، فإذا خلوت إلى نفسى عصيت الله، وإذا كنت بعيدا عن الناس لم أراقب الله فيما أعمل، فكأن المسألة كلها تظاهر لفائدة دنيوية، ولكننا ونحن نرى الظاهر وحده نحكم على هذا الإنسان بالصلاح والتقوى؛ لأننا لا نعرف الجزء الباقى من حياته، وقد يذهب إنسان إلى الحفلات الخيرية يعلن أمام الناس عن تبرعه بمبلغ من المال للخير وهو يريد بذلك ثلاثاً: أن يقول الناس إنه رجل الخير والبر والتقوى؛ هذه واحدة. وأن يقهر الناس بغناه وثروته التى تمكنه من التبرع بهذه المبالغ للخير، فيقول الناس لا بد أنه غنى، لا بد أن عنده أموالاً كثيرة، هذه ثانية، أو يكون هذا تقربا لغير الله سبحانه وتعالى، أو يكون له طلب فى جهة ما؛ فأحاول أن أرضى صاحب هذه الجهة، فأتبرع لمشروع يديره هو، والمهم فى هذا كله أننى أقصد غير وجه الله [1]، ذلك أن الخير الذى أفعله لوجه الله سبحانه

---

(١) روى مسلم [١٩٠٥/ ١٥٢]، والنسائى فى المجتبى [٣١٣٧]، والترمذى [٢٣٨٢] عن سليمان بن يسار رضى الله تعالى عنه قال: تفرق الناس عن أبى هريرة فقال له ناتل أهل الشام: أيها الشيخ حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء، فقد قيل لك، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ=

وتعالى، تعطى فيه يمينك مالا تدريه شمالك، أى إنه يحاط بالكتمان الشديد حتى لا يشتبه فيه أية ذرة شك، من أن القصد به هو غير الله [١]، ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الشركاء عن الشرك فإذا أشركت معه أحدا فى عمل من الأعمال، فإن الله سبحانه يستغنى عن هذا العمل ولا يقبله، ويتركك لما أشركت به [٢].

ولذلك استخدم الله سبحانه وتعالى لفظ الأمانة التى تحدثنا عنها، وقلنا إنها تكون بين طرفين ولا يعرف ثالث عنها شيئا، كذلك العبادة وكل عمل يقصد به وجه الله يكون بين العبد وبين الله، فإذا أخذ أى صورة من علانية الأداء، أو أية صورة من المظهرية فسد. كذلك لا يحكم على هذا العمل من مظهره، فلا يقال عن إنسان إنه رجل البر والتقوى لأنه يجرى وراء أصحاب النفوذ يعطيهم ماله باسم الخير ليحقق غرضا دنيويا، ولا يقال رجل عابد لمجرد أنه يتظاهر بالتقوى، بل لابد أن يكون هناك تصديق بالعمل، وفى آخر المطاف نجد أن الإنسان مهما برع ومهما كان لا يستطيع أن يحكم حكما صحيحا، على علاقة إنسان آخر بالله سبحانه وتعالى، بل إن الحكم لله وحده فى هذه العلاقة، لأن الإنسان أحيانا يخفى فى صدره مالا يعلمه أحد إلا الله، ولذلك قال عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

أى: يوم يكشف الله عما فى الصدور ويظهره، فنعرف من كان يقول مالا يفعل.

على أننا إذا دخلنا فى نقاش حول المشيئة الإلهية، واختيار الإنسان فإننا نجد جدلا كثيرا، ولن ندخل فى هذا الجدل الذى هو جهل لا يضر وعلم لا ينفع، وإنما فقط سأعطى رأيى فى هذا الموضوع بما يوضح بعض جوانبه التى تجعل الإنسان يحس

= القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار».

(١) روى البخارى [٦٦٠]، ومسلم [١٠٣١/ ٩١]، والترمذى [٢٣٩١]، والنسائى فى المجتبى [٥٣٨٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ فى عبادة ربه، ورجل قلبه معلق فى المساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله، ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه».

(٢) روى مسلم [٢٩٨٥/ ٤٦]، والترمذى [٣١٥٤]، وابن ماجه [٤٢٠٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه.

بمسئولية اختياره، أو بأنه محاسب على هذا الاختيار فى الآخرة، وهذا هو المهم.

إذا أردنا أن نقسم أحداث الحياة، فإننا يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أشياء عامة، فعل يحدث وليس لى دخل فيه، كالكون مثلا بكل آياته: شمسه وقمره ونجومه وأرضه وهوائه هذه ليس لى دخل فيها، وبالتالى لا تدخل فى دائرة النقاش، وفعل يقع علىّ، وليس لى دخل فيه، كأن أكون سائرا فى الطريق فتصدمنى سيارة، أو أصاب بمرض، أو ينهدم المنزل الذى أعيش فيه، أو أمشى فأتعثر فى الطريق وأسقط فأصاب. إلى غير ذلك من ملايين الأفعال فى الأرض، تلدغنى حشرة مثلا، أو أفقد وظيفتى لأن الشركة قد أفلست. كل هذه أشياء لا دخل لى فيها، ولا تدخل فى منطقة الحساب، لماذا؟ لأنها أشياء تقع على بدون إرادة ودون ما فعل منى، ولذلك فهى أحداث لا تدخل فى دائرة أفعل ولا تفعل.

وإذا أخرجنا أحداث الكون بهذه الطريقة، بقى بعد ذلك فعل لى فيه إرادة، وهذا الفعل إما أن أقوم به أنا، أو يفرض على، مثلاً إنسان جاء واعتدى علىّ بالضرب أو بالسب، لم أكن أنا أريد أن أقاتل، ولكن هذا الفعل فُرِض على، إنسان جاء ليسلبنى شيئا لم أكن أنا أريد أن أسلب، ولكن هذا الفعل فُرِض علىّ، إلى آخر الأفعال التى تُفرض على البشر بالأحداث. هذا فعل وقوعه علىّ لا يُحملنى ذنبا؛ لأننى أنا الشخص المعتدى عليه، ولكنه يحمل ذنبا على المعتدى، وحينئذ يحل القصاص أى يجوز لى رد الاعتداء من دون أن أرتكب إثما، ورد الاعتداء هنا يتم بالإرادة الحرة، فأنت تستطيع أن تضرب إنسانا بالقلم، كما ضربك بالقلم، وتستطيع بدلا من أن تضربه قلما، أن تحطم ضلوعه، وتستطيع أن تقتله، إذن رد الفعل هنا يختلف، وهكذا يجىء تشريع الله فى أفعل ولا تفعل؛ محاولاً إشاعة الحب بين الناس بدلاً من الكراهية والبغضاء، وسفك الدماء، فيحرص على العفو عن المسىء، ويحاول أن يجعل رد الإساءة لا يزيد عن حجم الإساءة نفسها؛ حتى لا تتطور الأمور، إلى ما هو أبشع، مما يفسد الدنيا، ويملؤها حقدا وبغضا، فأنت مثلا إذا ضربك إنسان ضربة واحدة بالعصا وأمسكت العصا وضربته، تكون فى هذه الحالة قد رددت العدوان بمثله، وتجد أن هذه القضية لاتثير أحدا، لا من أهلك ولا من أهله، فما دام الرد مساوياً للفعل، فإنه نادرا ما يصيب أحدا من البشر بالانفعال، لدرجة أن تتسع الخصومة ليدخل فيها عدد كبير من الناس، ولكن إذا ضربك إنسان بالعصا، فأمسكت بندقية وقتلته؛ حينئذ يكون رد الفعل عنيفاً، وتجد أكثر من إنسان من أهل القتيل يريد أن يقتصّ منك، وهكذا تدخل مشيئة الله سبحانه وتعالى وهو المشرع الحكيم العليم ليمنع سفك الدماء، والبغضاء والمشاحنة، فجعل العفو له ثواب كبير، وكتمان الغيظ عملية محببة إلى الله سبحانه وتعالى، وفى الوقت نفسه - وحتى لا يشجع العدوان على إطلاقه - جعل الرد مماثلاً للعدوان تماماً: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

نأتى بعد ذلك للنفس البشرية وأعمالها، والتى تقع منها اختيارا أو ترد خطرا، ولكنها تفعل ما تفعل، بمشيئتها الحرة، دون ما ضغط عليها، هذه الأعمال الاختيارية مقسمة إلى قسمين، قسم لا ثواب ولا عقاب عليه، كأن تحب أن تتناول صنفا معينا من الطعام أحله الله لك، أو تختار نوعا من الفاكهة، أو تؤثث بيتك بالطريقة التى تريد، إلى آخر هذه الأعمال التى لم يتعرض لها القرآن بأفعل ولا تفعل، هذه أنت حر فيها، ليس عليها عقاب إذا ما فعلتها، ويبقى بعد ذلك قسم الأعمال الاختيارية التى أنزل فيها الله أحكاماً بافعل ولا تفعل، هذا هو الاختبار الإيمانى فى الحياة ؛ اختبار لحرية الإنسان فى الفعل، والله سبحانه وتعالى لا يحاسب بشرا إلا على عمل حر قد قام به، وأنت لكى تقوم بعمل، لابد أن تتوافر لك عدة مُقومات، الزمن مثلاً الذى سيتم فيه العمل، القدرة على هذا العمل، الوجود لإتمام العمل، والإمكانيات، إلى آخر ذلك، ولنوضح هذه النقطة قليلاً.

هب أننى أريد أن أبنى عمارة، لابد أن أهيئ الأرض أولاً، وهذه الأرض قد تكون موجودة، أو غير موجودة، فإذا وجدت حددت زمانا للعمل، أنا بتحديد الزمن أتجاوز طاقتى البشرية، ذلك لأننى لا أستطيع أن أجزم، أننى سأكون موجوداً فى الغد، أى إننى لا أستطيع أن أقول جزماً إننى سأذهب إلى السوق غداً لأشترى شيئا، أو سأبدأ فى بناء هذه العمارة غداً، لماذا؟، لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون على ظهر الدنيا غداً، أو رحلت عنها، هذه واحدة. ولا أضمن ظروف العمل، فقد أكون على ظهر الدنيا، وأذهب إلى مكان العمارة، ثم بعد ذلك لا يحضر الرجال الذين سيقومون بالبناء، ولا أستطيع أن أقوم بالبناء وحدى، وأجعله يقوم، وحتى لو وجدت أنا، وجاء الرجال فلا أضمن أن يأتى سبب خارج عن إرادتى، ليمنع إتمام العمل، كأن يأتى أحد الناس، ويوقف البناء بدعوة أن هذه الأرض ملكه، أو تستولى الحكومة على الأرض فجأة، أو يصدر قانون يمنع البناء على هذه الأرض، أو تكون أوراقى غير مستوفاة بشكل لم أتنبه إليه، أو يأتى أى إنسان ويقيم إشكالا يمنعنى من البناء، إذن.. رغم إننى أملك المشيئة وهى وجودى لحظة البناء، وأملك القدرة، وهى هؤلاء العمال الّذين جاءوا للبناء، وأملك الأرض والأسمنت والحديد، فقد لا يتم العمل، إذن مَنْ وحده الذى يستطيع أن يتمم العمل، ولا يقف فى طريقه حائل؟ إنه الله سبحانه وتعالى.

الله وحده هو الذى يستطيع، أن يقول للشىء ﴿ كُن ﴾ فيكون، فهو إذا أراد، لا يمكن لفرد أن يأتى ويمنع هذه الإرادة، وهو، إذا شاء، لديه القوة وحده، لينفذ ما يريد بدون الاستعانة بأحد فى الدنيا كلها، وهو العزيز القادر الذى لا تستطيع أى قوة مهما كانت أن تأتى لتوقف عملاً قال له الله سبحانه وتعالى: ﴿ كُن ﴾، إذن الذى يملك المشيئة الحقيقية فى أن يتم عمل فى الأرض هو الله سبحانه وتعالى، ولكننا نحن البشر لا نملك إلا مشيئة مجازية، وقد نخرج فى الصباح، وفى نيتنا أن نفعل كذا وكذا ثم لا يتم شىء من

هذا كله لأننا كما قلت لا نملك القدرة لإتمامه ؛ ولأن هناك ظروفا تأتى لكل منا مهما علا شأنه، وبلغ سلطانه لتمنع تنفيذ عمل يريد أن ينفذه، حتى الحاكم الذى له الأمر والنهى، والكل يُطيعه، لا يستطيع فى أحيان كثيرة أن ينفذ ما يريد، هذه هى مشيئة العمل.

بقيت بعد ذلك النقطة الأخيرة، وهى نقطة الحساب، وهذه النقطة عن الأفعال والتى حدد اللّه سبحانه وتعالى فى منهج الإيمان بأفعل ولا تفعل، قد تأتى أنت هذه الأفعال مكرها، كأن يجلدك رئيس العصابة لتسرق، وتضطر كارها، وتحت شدة التعذيب أن تسرق، وتحاول أن تهرب، فيعيدك، ما دُمت تأتى هذا العمل مكرها، فقد أسقط اللّه عنك الحساب، حتى فى الإيمان، مصداقاً لقول اللّه سبحانه وتعالى فى الإكراه على الكفر: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

إذن.. فالإكراه يُسقط الحساب.

تبقى بعد ذلك الإرادة الحرة، ولقد شاء اللّه سبحانه وتعالى أن يضع هذه الإرادة الحرة فى مكان لا يستطيع أن يسيطر عليها أحد فى العالم، إنها فى القلب، وما هو داخل القلب أو النية، لا تستطيع الدنيا كلها أن تصل إليه، فأنت قد تكره إنسانا، وربما تحت التعذيب، أو التهديد، أو الخوف، تتظاهر بالحب له، ولكن الحقيقة أنك تكرهه من داخل قلبك، وتبقى هذه الحقيقة لا تستطيع أن تمسها الدنيا كلها، أنت لا تريد أن تفعل شيئا قد يكرهك الناس على فعله، ولكنك فى قلبك تستنكره وتنكره ؛ واللّه يعلم ما تخفى الصدور.

إذن.. فالحساب هنا على الإرادة الحرة التى لا يستطيع بشر ولا قوة فى الأرض أن تجبرك على شىء فيها، ولكنها متروكة لك وحدك، وهى لا تتغير ولا تتبدل إذا كنت غنيا أو فقيرا، مريضا أو صحيحا، كبيرا أو صغيرا، قويا أو ضعيفا، هذه المنطقة بالذات التى يتم على أساسها الحساب، تركها اللّه سبحانه وتعالى حرة لك، هذه هى منطقة الأمانة التى حَملتها، ولماذا هى أمانة؟ لأن ما فيها بينك وبين اللّه وحده، لا يستطيع إنسان أن يفتح صدرك، ليعرف حقيقة ما فيه، فما فى القلب هو سر بين اللّه والعبد.. وهو الأمانة التى حملها الإنسان فى الأرض، فإن فعل إثما بإرادته الحرة، وقلبه مصدق لعمله بلا إكراه، استحق العقاب، وإذا فعل خيرا وقلبه مصدق لعمله بلا محاولة للتظاهر أو التفاخر، أو الكبر، أثيب، وفى هذه المنطقة وحدها، منطقة القلب والأمانة، يكون الشعور الإنسانى حرا وحقيقيا، ويكون الجزاء من نوع العمل.

إذن.. فاللّه سبحانه وتعالى، حينما أعطانا الاختيار، حدد منطقة الاختيار فى أعمالنا ثم جاء إلى هذه المنطقة، وهى منطقة الاختيار ليخرج منها عددا من الأعمال ليس فيها تشريع وترك لك حرية الاختيار بلا ثواب ولا عقاب، ثم جاء لمنطقة الأمانة، وجعل الثواب والعقاب فيها، لماذا؟

لماذا جعل اللّه سبحانه وتعالى القلب منطقة الثواب والعقاب ؛ لأنه الجزء الوحيد

الذى لا يسيطر على مشاعره أحد إلا أنت، فما فى قلبك هو ملكك وحدك، بإرادتك وحدك ولا يستطيع أى فرد أن يضع إجبارا فيه، وبذلك يكون الحساب عدلا، لا يدخل فيه ظلم أبدا ولماذا قال أفعل ولا تفعل؟ لأن منهج الإيمان به، والخالق هو الذى يحدد كيف يعبده خلقه ؛ ولأنه وضع فى هذا المنهج أشياء تمنع فساد الدنيا، وتصلح الحياة، كما سبق أن قلت.

واللّه سبحانه وتعالى حين يأمرنا ألا تمتد أيدينا لمال غيرنا ؛ إنما يحمى مالى كفرد من المجتمع كله، فأنا قد أعتدى على مال أحد، ولكن إذا ترك اللّه سبحانه وتعالى الاعتداء على المال بلا عقاب، فكأنه أباح للدنيا كلها أن تعتدى على مالى، ولك أن تتصور ماذا يمكن أن يحدث فى هذه الحالة.

وإذا حمى اللّه سبحانه وتعالى عِرض أحد، فهذه الحماية ليست قيداً علىّ، وإنما هى ميزة كبيرة لى، ذلك أنه إذا أباح لى الاعتداء على عرض غيرى، فكأنه أباح للمجتمع كله الاعتداء على عرضى، ولك أن تتصور أيضاً ما يمكن أن يحدث فى الدنيا إذا كان ذلك هو الشرع والقانون، وإننى أذكر أن رجلا جاء إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال له: أريد أن أسلم، ولكننى أحب النساء، ولن أقلع عن ذلك فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وهو المعلم لأمته، أتحب أن يفعل أحد هذا فى أختك؟ قال: لا، أتحب أن يفعل أحد هذا فى أمك؟ قال: لا، وقال أتحب أن يفعل أحد هذا فى زوجتك؟ قال: لا قال: أتحب أن يفعل أحد هذا فى ابنتك؟ قال: لا، فرد الرسول الكريم صلى اللّه عليه وسلم: كلنا كذلك يا أخا العرب»[1].

وهكذا بين الرسول حكمة التشريع فى أنه إن قيد إنسانا من عدوان على عرض إنسان آخر فقد وفر الحماية لأمه وأخته، وابنته، وزوجته، وأظن أننا إن فاضلنا بين الاثنين، لاخترنا القيود التى وضعها اللّه سبحانه وتعالى.

هكذا وضع اللّه قيودا ليحمى المجتمع ؛ ويوفر للإنسان المؤمن الحياة الطيبة الآمنة على الأرض، فيعيش مطمئنا إلى أن أحدا لن يعتدى على ماله، أو عرضه، أو يعتدى عليه وعلى حياته وأسرته، وأطفاله، ولو فهم الناس هذه القيود لأحسوا بنعمة اللّه الكبرى عليهم بل إن الدول التى لا تتخذ الإيمان سبيلا، اضطرت أن تفرض مثل هذه القيود، وإن

(١) روى البيهقى فى الكبرى [١٨٢٨٨] عن أبى أمامة رضى اللّه تعالى عنه أن رجلا أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: ائذن لى فى الزنا قال: فهم من كان قرب النبى صلى اللّه عليه وسلم أن يتناولوه فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم: دعوه، ثم قال له النبى صلى اللّه عليه وسلم: أدنه، أتحب أن يفعل ذلك بأختك؟ قال: لا. قال: فبابنتك؟ قال: لا. فلم يزل يقول بكذا وكذا كل ذلك يقول لا. فقال له النبى صلى اللّه عليه وسلم: فاكره ما كره اللّه وأحب لأخيك ما تحب لنفسك. قال: يا رسول اللّه فادع اللّه أن يبغّض إلىّ النساء. قال النبى صلى اللّه عليه وسلم: اللهم بغض إليه النساء.

كان العقاب مختلفا لتحمى المجتمع، وليستطيع أن ينمو ويتقدم، فإذا كان الإنسان يشكو من قيد قد وضعه الدين عليه، أو على تصرفه، فليتذكر الميزة التى أعطاها له هذا القيد ليعرف بعد ذلك أن الدين بأوامره ونواهيه ليس قيدا.. ولكنه حماية، وليس عقابا.. ولكنه إصلاح وصلاح، وهو إن قال لا تفعل، فلأن لا تفعل هذه: هى حماية للإنسان فى المجتمع، وضمان له، ولو لم يفرضها الله سبحانه وتعالى، لفرضها الناس أنفسهم ليستطيعوا أن يعيشوا معا فى المجتمع.

أختتم خواطرى حول هذه السورة الكريمة بالحديث عن قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ.. ۝ ﴾ [الكهف].

هذه الآية يجب أن نتوقف عندها وقفة، لماذا؟ لأننى أقول إننى سأفعل كذا غدا، وأنت تقول إنك ستفعل ذلك غداً، والوحيد القادر على الفعل هو الله سبحانه وتعالى، إن شاء فعل، وإن شاء لا يفعل، ونحن عاجزون تماما عن أن نفعل أو لا نفعل، إلا بمشيئة الله، ولنوضح ذلك قليلاً، الذى يريد أن يفعل شيئا، يجب أن يملك أولا القدرة على الفعل، ويجب أن يملك ثانيا الوقت الذى سيتم فيه الفعل، ويجب أن يملك ثالثا المكان الذى سيتم فيه الفعل، بمعنى أننى إذا قلت سأذهب لمقابلة فلان غدا، وهذا هو أبسط الأشياء فيما يقول الإنسان أنه سيفعله، فإننى يجب أن أملك القدرة فى أن أكون موجودا غدا على قيد الحياة، حتى تتم هذه المقابلة، وأنا لا أملك هذه القدرة، فالإنسان لا يملك القدرة على أن يهب نفسه الحياة لحظة واحدة، وليس يوماً كاملاً.

إذن.. فقولى إننى سأقابل فلانا غدا: خاطئ؛ لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون موجوداً غداً على قيد الحياة أم لا، الحياة رهن بمشيئة الله سبحانه وتعالى، إن شاء أبقاها، وإن شاء أخذها، فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى عالم القدرة، فأنا قد أكون موجوداً غدا، ولكنى لا أستطيع أن أذهب لمقابلة هذا الشخص، قد أمرض فجأة، أو قد يأتنى شىء عاجل، أو قد يهبط على ضيف غير متوقع مثلاً، أو يحدث أى يأتينى شىء آخر.. المهم أننى قد أكون على قيد الحياة، ومع ذلك لا أستطيع أن أذهب لهذه المقابلة، بسبب أشياء لا أملك القدرة على عدم حدوثها.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى النقطة التالية، وكنت أنا على قيد الحياة، وبصحة جيدة وانتفت جميع الظروف التى تمنعنى من أن أتم هذه المقابلة، فهناك الطرف الآخر، وهو الشخص الذى سأقابله، وقد أذهب فلا أجده فى مكتبه لأى سبب، يتعطل فى الطريق يمرض، يأتيه عمل مفاجئ، يمنعه من حضور المقابلة، كأن تتعطل سيارته، أو يصطدم بسيارة أخرى فيضطر للذهاب إلى الشرطة، أو تحدث له أى مشكلة فى الطريق أو فى المنزل.

المهم فى هذا كله، أننى لا أملك عنصرا واحدا من عناصر القدرة على العمل لأقول إننى سأفعل كذا، ولكن من الذى يملك القدرة، هو الله سبحانه وتعالى، فهو الذى يقول كن فيكون، حى لا يموت، باق لا يفنى، لا يستطيع أحد أن يشغله عن شىء، أو أن يمنع فعله أو قضاءه، فإنه متى قضى شيئا فإنه يكون، لماذا؟ لأنه ليست هناك قوة تستطيع أن توقف أو تمنع، أو تؤجل، أو تؤخر، أو تقدم ما يريده الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا فإن الفعال لما يريد هو الله سبحانه وتعالى وحده، أما نحن جميعا كلنا، كل البشر فإننا فعالون لما يشاء الله ؛ فما دام العمل يدخل فى المشيئة فهو سيتم، لأن الله وحده هو الفعال، وما دام العمل لا يدخل فى المشيئة فهو لن يتم ؛ لأن الله وحده هو الفعال.

ومن هنا فإن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣].

يريد أن يلفتنا إلى حقيقة كونية هامة، لأن الذى يتم هو مشيئة الله وإرادته، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤]، حتى تتذكر دائما أن الله هو الفعال، والإنسان أصله من تراب، ثم من نطفة، وهو الخلق بعد آدم، التراب أو النطفة لا تستطيع أن تفعل شيئا من هذا التراب الذى ندوس عليه كل يوم هو الجسد نفسه الذى نمشى فوقه، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل الإنسان يفيق من الغرور ويذكره بخلقه، وإذا كنت أنت من تراب وأنا من تراب، فمن أين جاءتك القدرة الخارقة التى تجعلك تنسى الله وتعبد نفسك؟

الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبك هذه القدرة، هو الذى خلق الكون لك وسخره من أجلك، ولكى تعرف هذه الحقيقة يجب أن تعلم جيدا أن الله فعل هذا كله من حفنة من تراب، فهؤلاء الذين تراهم أمامك يعبدون أنفسهم هم حفنة من تراب مستها قدرة الله سبحانه وتعالى، ولكى تسجد لهذه القدرة تأمل قليلا فيما استطاعت أن تفعله من حفنة من تراب، وكيف حولتها إلى إنسان يسود الكون كله.

إن الله يريد أن يذكرنا بنعمه، وأن تعلم أن الفضل منه، وأن الذى أعطى يستطيع أن يأخذ، وأن الذى منح يستطيع أن يمنع، وهذه مسألة هامة جدا، فى سلوكيات الحياة، لماذا؟ لأن الإنسان حينما يغتر بقدرته يبطش ويظلم، ويفتك بالضعفاء، ويطغى فى الأرض أما إذا تذكر أن هذا كله من قدرة الله، وأن الله سبحانه وتعالى الذى منح يستطيع أن يأخذ والذى أعطى يستطيع أن يوقف هذا العطاء، فإن خشية الله تدخل فى قلبه، فتجعله يراجع نفسه، فلا يبغى ولا يظلم، ويخشى الله فى كل عمل يعمله، وفى هذا صلاح الكون كله ولكن بعض الناس لا يزال يجادل، وينسى الإنسان أنه غبى وساذج.

الغيـــب.. بوابة
كل ملحد إلى النفوس الضعيفة

أمور الغيب دائما هى الباب الذى يدخل منه كل ملحد إلى النفوس الضعيفة لماذا؟ لأننا لا نرى الغيب، وما دمنا لا نراه فهو كما قلت: شىء إيمانى، إما أن تؤمن به أولا تؤمن ؛ وهو الإيمان بالغيب، لأنك إذا رأيت شيئا فلا تقول إنك تؤمن به، لأنك تراه عين اليقين، وبذلك فأنت لا تؤمن، لأن الإيمان ليس مطلوبا فى الحسيات والمشاهدات ولكنه مطلوب فى الغيبيات، فيما هو غيب عنا، ولقد وضع الله سبحانه وتعالى الإيمان بالغيب أولى مراتب الإيمان، فقال سبحانه وتعالى فى سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ [البقرة].

وهكذا وضع الله سبحانه وتعالى، أول شروط التقوى: الإيمان بالغيب، باعتباره قضية هامة جدا، تحكم السلوك الإنسانى، فأنت ما دمت تؤمن بالغيب، وباليوم الآخر وبالحساب، فإنك تخشى الله تعالى، فى كل عمل تعمله، فإذا مددت يدك لتسرق، تتذكر أنك ملاقى الله، وأنه سيحاسبك على ذلك فتتراجع عن هذه السرقة، وإذا أردت أن ترتكب ما حرم الله، وتذكرت الآخرة والحساب، خشيت الله وتراجعت.

إذن.. فأساس السلوك البشرى فى الدنيا هو الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب.. يدخل فيه أساسا الإيمان باليوم الآخر، فإذا لم يكن إيمانك بكل هذا، إيمان يقين، بمعنى أن ذلك يحدث، وكأنك تراه أمامك، يقينا لا يدخل إليه الشك أبدا. وإلا فى هذه الحالة تكون قد اهتززت ويستطيع من هنا الملحد أو غير المؤمن، أن يدخل إليك ليضع الشك فى نفسك، ويحاول أن يوهمك أن كل حديث عن الغيب، هو غير صحيح، أو غير واقع، وما دام غير واقع، فإن السلوك الإيمانى كله يتغير.

والإيمان بالغيب والآخرة.. هو أساس الإيمان كله، فما دام ليس هناك حساب فممن تخشى؟ وممن تخاف؟ ولماذا ترتدع؟ من الذى يرفع يدك عن ضعيف تغتصب حقه إلا إيمانك بالآخرة والحساب، من الذى يوقفك عن أن تأكل أموال الناس بالباطل؟ أو أن تظلم وتبغى فى الأرض، وتغرك قوتك، فتفعل ما تشاء، وتبغى على حقوق الناس كما تريد، إن الوازع الذى يقول لك قف مكانك هو الإيمان بالآخرة ؛ لأنك فى هذه الحالة ستحس بأن كل عمل تعمله مكتوب عليك، وأنك إذا كنت قويا جبارا فى الأرض، أو فى

هذه الحياة الدنيا، فإنك ستلقى اللّه وأنت ضعيف ذليل فى الآخرة، لا ناصر لك ولا معين، وستقف أمامه خاشعا ليسألك عما فعلت، يسألك عما جنته يداك.

إذن.. لولا الإيمان بالآخرة، لتحولت الدنيا كلها إلى مجموعة من الوحوش، يقتل القوى الضعيف، ويعتدى القادر على غير القادر، ويضيع الحق، وتباح الحرمات، ولكن أخشى ما يخشاه المؤمن هو حساب اللّه له فى الآخرة، لماذا؟ لأنه يؤمن أنه مُلاقى اللّه سبحانه وتعالى، وأن حساب الآخرة سيكون بقدرات اللّه سبحانه وتعالى.

إن أخشى ما يخشاه الكافر هو الحساب فى الآخرة، قد يبدو هذا الكلام عجيبا، كيف لإنسان لا يؤمن بالآخرة ومع ذلك يخشاها؟ حقيقة الكافر لا يؤمن بالآخرة.. ولكن فى داخله شىء يؤرقه، والموت الذى يراه كل يوم على حياة غيره يملأ حياته هو بالرعب والفزع وينغص عليه عيشه، إنه يعرف يقيناً أنه سيخرج يوماً ما من هذه الحياة فهو يرى ذلك كل يوم فى حياة ألوف غيره، بل يراه فى حياة أقرب الناس إليه، وهم أسرته وأقاربه، ولذلك فهو لا يستطيع أن يزيح هذه الحقيقة من عقله، ويلح عليه السؤال، إلى أين؟ فيحاول أن يأتى بالدليل تلو الدليل ولو زيفا، ولو تضليلا، ولو إضلالا، محاولا أن يقنع نفسه أنه لا شىء بعد الموت، وأنه لا آخرة ولا حساب؛ عله يهون على هذه النفس، التى ترى العذاب فى داخله، يهون عليه ارتكاب المعاصى، ولكنه ومهما فعل، يظل فى قلق وخوف ويؤرقه الغد، ويزعجه المستقبل، ويحس أن حياته بكل ما فيها من مظاهر الدنيا هى لا شىء، ومهما حاول أن يقنع نفسه، فإنه يعيش فى فراغ قاتل.

إن قضية اليوم الآخر، أى يوم الدين، هى قضية الإيمان، الإيمان أنك ستلاقى اللّه سبحانه وتعالى، وسيحاسبك، فلتحاسب نفسك أولاً، والمؤمن إذا جاء أجله، كانت نفسه مطمئنة؛ لأنه كان على يقين أنه سيلاقى اللّه، فراعى اللّه فيما يعمل، أما غير المؤمن إذا سمع حديثا عن الموت، انزعجت نفسه، وملأ قلبه الخوف، لماذا؟ لأنه يعلم داخل نفسه أنه سيلاقى اللّه، ولكنه يحاول بأدلة كاذبة، أن يستر هذه الحقيقة التى سيكشفها الموت، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[(١)]، والحديث فى ظاهره لا ينطبق على المنطق الدنيوى، فالمفروض أننى وأنا أعيش فى الدنيا متيقظ منتبه، فإذا جاء الموت، جاء كما يقولون النوم الأبدى، ولكن الحقيقة غير ذلك، فالناس فى هذه الدنيا نيام، وماذا يحدث للنائم، إنه لا يرى ما حوله، ما حولنا؛ لأن الروح موجودة داخل الجسد، يحد من رؤيتها ذلك الطين الذى خلق منه الإنسان؛ ولذلك

---

(١) ذكره الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء وقال: لم أجده مرفوعاً وإنما يعزى إلى على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه.

فهى لا ترى الملائكة ولا ترى الجان، ولا ترى كثيرا مما يحدث فى الدنيا مما لو رأته لأحست بأن حقائق الكون مستورة عنها، ولعلمت يقينا بالغيب، وما يحدثنا الله عن أشياء لا نسمعها ولا نراها، مثل عالم الجن، وعالم الملائكة، ولكن عندما تخرج الروح من الجسد، ترى الروح، وهى لذلك ترى ما كان محجوبا عنها، وتتنبه، وتستيقظ، وتفيق مما صور لها، من أن الدنيا هى كل شىء، وأن الحصول على كل شىء ولو بالباطل هو قانون الحياة، عندما تخرج الروح من الجسد، تعلم ما هى قوانين الحياة، وما هى قوانين ما بعد الحياة، وترى أشياء كثيرة لم تكن تراها ولم تكن تصدقها فى الحياة الدنيا.

إذن فالناس وهم متيقظون منتبهون وهم فى الحياة الدنيا، إنما هم فى الحقيقة نيام، مستورة عنهم غيبيات كثيرة، تقال لهم ولكن لا يرونها، فإذا ماتوا انتبهوا، وعرفوا كل شىء، مصداقاً لقول الله: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢].

ولولا أن الله سبحانه وتعالى هو مالك يوم الدين، ما استطاع إنسان مستقيم أن يتحرك فى الحياة، لماذا؟ لأن حركتك فى الحياة إذا كنت مستقيما على منهج سينتفع بها غيرك ممن لا يتبعون المنهج، أنت لا تمد يدك إلى مال أحد، ولكن هم سيمدون أيديهم إلى مالك، أنت لا تؤذى أحدا، ولكن هم سيؤذونك فى رزقك وأهلك وكل ما يستطيعون به النيل منك، أنت تعفو عن المسىء، وهم سيستغلون هذا العفو معتبرين أنه ضعف، وما دمت رجلا طيبا فلا يخشى منك، وهكذا يستهينون بك، فإذا لم تعلم يقينا أن كل هذا له حساب، أنك ستجازى على اتباعك للمنهج، وأن الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا، وأنه سيمدك بنصره ما دمت مؤمناً، إذا لم يكن كل هذا صحيحا، لكانت الدنيا للكافر وحده، ولكنا قد تركناها لغير المؤمن، يفعل ما يشاء وبدون حساب، ولكن الحساب من الله يأتى فى الدنيا والآخرة، ولذلك فالله سبحانه وتعالى بالمرصاد لكل كافر، يحبط أعماله فى الدنيا، ويوفيه أجره فى الآخرة.

وهكذا يكون الإيمان بيوم الدين، إيمانا بأن المؤمن لا يشقى، لأن غيره عصى الله، وخالف الله، إيمانا بأن المؤمن لا يذل ؛ لأنه يعفو ويصفح ولا يؤذى أحدا، فيأتى الله سبحانه ليقول له اطمئن اطمئنانا كاملا، واتبع أنت المنهج، واتركهم يفعلوا ما يريدون، أو ادعهم بالحكمة و الموعظة الحسنة، وتأكد أن الله سبحانه وتعالى قادر عليهم، وأن يد الله هى العليا، والله لا يريد هؤلاء أن يأتوا إليه مكرهين، وإلا لخلقهم هكذا، أو لأنزل آية من السماء فظلت أعناقهم لها خاضعين، إنه سبحانه وتعالى لا يريدهم أن يأتوه قهرا، أو قسرا، أو تحت تهديد سيف، أو خوفا من ضربهم بالسياط، كل هذا لا يريده الله تعالى، لماذا؟ لأن قدرة الله فى إخضاعهم إيمانيا أقوى من قدراتنا نحن، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم يأتون إليه وهم مكرهون لاستطاع، ذلك على الله هين، ولكن الله يريد من البشر، أن يأتوا إليه طائعين مختارين، أن يأتوا: يقولون يا رب

أعطنا القدرة على أن نطيع، وأن نعصى، وزين لنا الشيطان المعاصى، وبهرتنا الدنيا ببريقها ومغرياتها، ولكننا تركنا كل ذلك من أجلك، وجئنا إليك يا رب طائعين مختارين، لنعلن أننا نحبك وأن حبك فى قلوبنا، ورضاك فى نفوسنا قد فاق كل شىء، فلم يعد فى الدنيا ما يجذب قلوبنا إلا الحب لك، ولم يعد فى الدنيا شىء يغرينا إلا رضاك، ولذلك فكل عمل فيه حب لك نحن نحبه مهما طغى على نفوسنا، وكل عمل فيه رضاك نحن نقدم عليه مهما كان فيه من مشقة ؛ لأننا يا رب نعلم أن الخير هو ما اخترت، ونعلم أننا ستلاقيك ونحسب حساب هذا اليوم.

هذا هو منهج الإنسان المؤمن، ومنهج العبادة التى يريدها الله سبحانه وتعالى، الله لا يريد منا أن نأتى إليه مكرهين، ولكن يريد أن نأتى إليه باختيارنا، ولهذا خلقنا مميزين بالعقل وحرية الاختيار، ولو أن الله سبحانه وتعالى كان يريد أن يقهرنا على عبادته، لخلقنا لا اختيار لنا، كالملائكة وباقى خلقه الذين هم ليسوا مختارين فيما يفعلون.

إذا قرأت: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[الفاتحة: ٤]، فى المصحف تجدها مكتوبة بقراءتين: «مالك يوم الدين»، «وملك يوم الدين».

فإذا قرأتها بأى القراءتين فهى صحيحة، فإذا قرأتها مالك، فمالك الشيء هو المتصرف فيه وحده، ليس هناك دخل لأى فرد آخر فيه، أنا أملك عباءتى، وأملك متاعى، وأملك منزلى، وأنا المتصرف فى هذا كله وحدى، والملك الذى يحكم على الجميع، كلمته هى العليا وليس فوقها كلمة، يأمر فيطاع، ويقول فينفذ قوله، فإذا قلت: «مالك» فمعنى ذلك أن أحداً لا يتصرف فى ملكه غيره، والله وحده هو المتصرف فى كل الأمور، وفى يوم الدين هو الذى يملك التصرف بلا منازع، ولا يستطيع أحد غيره أن يتدخل أو يكون له الأمر ولو ظاهرا، ففى الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس، ويولى بعض الناس ظاهرا أمر بعض، ولكن فى الآخرة ليس هناك ظاهر، فالأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى فهو المالك وحده ظاهراً وباطناً، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فى وصف يوم الدين: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩].

وإذا قرأنا: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، فمعناها المتصرف وحده فى أمور هذا اليوم مصداقا لقوله تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

فكأن الله سبحانه وتعالى، خلق الأسباب فى الدنيا لتمضى الحياة، ولكنه فى الآخرة، لاتوجد أسباب، وإنما قضاء الله سبحانه وتعالى مباشر، والملك فى ظاهرالدنيا عند الناس، ولكن الحقيقة أن الملك لله وحده، فإذا أراد الإنسان أن يتعامل فى تفسيره مع ظاهر الحياة، قال إن ملك يوم الدين هى الأبلغ، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل كلا منا يملك ظاهرا فى الحياة الدنيا ؛ فهذا يملك وهذا يملك، فهذا يملك فى دنيا الأسباب، ولكن فى الآخرة، لا أحد يملك لا ظاهرا ولاباطنا، لا مالك ولا ملك إلا الله سبحانه وتعالى.

ولكن بعض الناس قد يتساءل: هل الأمر فى الآخرة لله وحده سبحانه وتعالى، أم الأمر فى كل وقت لله؟ نقول إن الأمر فى كل وقت لله، ولكن الله سبحانه وتعالى قد مكن بعض خلقه، أو بعض الناس فى الأرض، فجعل لهم ملكا ظاهريا ؛ أى ظاهرا للناس لا يخفى عليهم، ولهذا حكمة هى حكمة الحياة نفسها، والله سبحانه وتعالى لو لم يجعل الظاهر فى الأرض، ولو لم يجعل الأسباب، لما وجدت الآخرة ولانتفت الحكمة من خلق الدنيا، لماذا؟ لأن الدنيا هى دار اختبار الإيمان ؛ أى إن الله سبحانه وتعالى يمتحن فيها عباده، وهو لا يمتحن هؤلاء لأنه لا يعلم المصلح منهم من المفسد، ولكنه يمتحنهم ليكون كل منهم شهيداً على نفسه، وحين يأتى يوم القيامة يجىء واحد من هؤلاء، ويقول: يا رب لقد كنت سأتبع طريقك السوى ولكنك لم تمتحنى، ولكيلا يجادل إنسان ويكون كل شخص شهيدا على نفسه خلق الله الأسباب فى الدنيا، وخلق هذا الملك الظاهرى.

وقبل أن نشرح ما معنى الملك ظاهرا للناس، نود أن نبين الحكمة من اختبار النفس البشرية فبعض الناس يتساءل إذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شىء، وليس لعلمه حدود ولا قيود، فلماذا يمتحننا فى هذه الحياة الدنيا؟ وهل هو محتاج إلى ذلك؟ والجواب طبعا لا، فالله سبحانه وتعالى كما قلت، علمه أزلى، ويعرف كل نفس منذ خلقها، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نكون شهداء على أنفسنا، ولنضرب مثلاً يقرب ذلك إلى الأذهان، ولله المثل الأعلى، تأتى الجامعات فى كل أنحاء الدنيا وتقيم امتحانات لطلابها، هل الجامعة تجهل العلم، فتريد أن يعلمها الطلاب مالم تعلم؟ طبعا هذا غير صحيح، ولكنها تريد أن يكون كل طالب شهيدا على نفسه، فإذا قال أحدهم إننى أعرف كل ما تعلمته، أو كل ما قررته علىّ الجامعة، فإنه فى هذه الحالة يرى إجاباته، فإذا هو لا يعلم شيئا فيكون شهيدا على نفسه، ولا يستطيع أن يجادل، ولكن ماذا يحدث لو أننا ألغينا هذا الامتحان، كل طالب سيدعى أنه يستحق مرتبة الشرف، حتى ذلك الذى لم يقرأ صفحة واحدة، وتكون النتيجة اختفاء المقاييس، والله سبحانه وتعالى أرسل منهجه للبشر وقال افعل ولا تفعل، وحتى يكون الإنسان شهيدا على نفسه، كانت الحياة الدنيا، وكانت حرية الاختيار لنصل بذلك إلى الحياة الآخرة، دار الخلود ؛ حيث يُنعَّم من أطاع الله، ويحاسب من لم يطعه.

فلو أن الله سبحانه وتعالى، لم يجعل الملك ظاهرا فى الأرض للبشر، لما كانت هناك معصية، لأنه مادام الأمر مباشراً من الله، وبلا أسباب كما سيحدث فى الآخرة، فما الذى يغرى الإنسان، وفيم يكون له اختيار فى المعصية أو الطاعة؟ وكل شىء مباشر من الله سبحانه وتعالى بلا أسباب، إذن فلابد من وجود الأسباب وأن يكون الملك ظاهرا بين يدى بعض الناس، ويحدث إغراء للآخرين فى أن هناك من يضر وينفع من البشر أخذا بالظاهر، ويأتى ذلك البشر الذى مكنه الله فى الأرض، ويطلب من الناس أن يفسدوا

فيها، وأن يعصوا اللّه، ويفسد هو فيتبعوه، رغم أن اللّه سبحانه وتعالى، قد بين لهم فى كتابه المنهج، ولكنهم يتركون المنهج ويتجهون إلى الظاهر، يزين لهم الشيطان ما يرتكبونه من معصية، على أساس أن ظاهر الحياة الدنيا هو الحقيقة، وأن الخير فى الدنيا فى المال الحرام، وأخذ حق الضعيف، وأن تملك كل ما تستطيع، وأن المال الحرام هو الأمان، ويبين الحقيقة التى يقدمها لنا اللّه سبحانه وتعالى فى منهجه، والزيف الذى يحاول بعض الناس إيهامنا به عن طريق ظاهر الحياة الدنيا يكون الامتحان ؛ ليصبح كل إنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة، ويحضر مع كل نفس عملها.

opeikandl.com

ظاهر الملك
فى الدنيا أمر تقتضيه طبيعة الحياة

ظاهر الأسباب فى الدنيا هو من أساس حكمة الحياة، أن يكون ظاهرا أمامك، أن هذا يعطى، وهذا يمنع، وهذا يستطيع أن يعطيك المال والخير، وهذا يستطيع أن يمنع عنك الرزق، وأنت إما أن تندفع لإرضاء بشر على حساب الله سبحانه وتعالى، فتكون بذلك قد عصيت، وإما أن تلتزم بمنهج الله ولا تخشى أحداً، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

إذا خشيت الشيطان وكل ما يخوفك به فى الدنيا من فقدان للمركز، أو للجاه، أو للمال، أو لأى شىء آخر، فأنت فى هذه الحالة تبتعد عن منهج الله، وتعصيه لإرضاء بشر، وفى هذه الحالة تكون شهيدا على نفسك، وإذا التزمت بطاعة الله ولم تخش غيره تكون أيضا شهيدا على نفسك، ثم لا يحدث غير ما أمر به الله، إذن ظاهرية الملك لازمة فى الحياة الدنيا، غير لازمة فى الآخرة، ولذلك فإن هذا الظاهر يختفى فى الآخرة، وتختفى معه الأسباب، ويكون كل شىء مباشرا من الله سبحانه وتعالى لعبيده، لماذا؟ لأن الآخرة هى دار خلود، وليست مرحلة اختبار للحساب.

وهكذا نرى أن وجود ظاهر الملك فى الدنيا لأحد غير الله سبحانه وتعالى هو أمر تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا، من أنها امتحان يمر به الإنسان، ليوصله إلى الجنة، أو إلى النار، أما فى الآخرة، فظاهر الملك يختفى، كما تختفى الأسباب، ولذلك فإن الأمر فى يد الله وحده فى الدنيا والآخرة، ولكن الظاهر أن تبتلى فى الدنيا بملك ظالم، أو بحاكم يأخذ ما آتاه الله من أسباب للظلم والطغيان، فيأكل أموال الناس، ويتخذ نفسه إلها، ذلك ظاهر الحياة الدنيا، أما فى الآخرة، فإنك تخرج تماما عن أى طغيان بشرى مما تواجهه، وتخرج تماما عن حكم الذين لا يأتمرون بمنهج الله ولا يتبعون ما أنزله، فيختفى الطغيان البشرى، ويختفى الظلم البشرى، فلا مالك، ولا ملك، بأى معنى إلا الله سبحانه وتعالى والله سبحانه وتعالى يستخدم كلمة يوم، فى وصف يوم الدين، كما يستخدمها سبحانه وتعالى فى آيات أخرى كقوله: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧] ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤].

هنا يأتى بعض الناس ليجادل فى هذا ويقول: كيف يكون اليوم عند الله سبحانه وتعالى مرة بألف سنة، ومرة بخمسين ألف سنة، وأى مقياس هو لليوم عند الله، ويزعم

فى ذلك أن هناك تضاربا فى القرآن الكريم فهو يحسب اليوم مرة بألف سنة، ومرة أخرى بخمسين ألف سنة.

ونحن نقول لهؤلاء: إن اللّه سبحانه وتعالى عندما يستعمل كلمة يوم، فإنه يخاطب البشر، فالقرآن إنما نزل للناس، وما دام قد نزل لهم، فلابد أن يخاطبهم بلغة يفهمونها، وإلا استحال عليهم فهمه، وبالتالى كانت الهداية إلى منهج اللّه مستحيلة، نحن الذين نعرف اليوم، فاليوم هو فترة من الزمن، تبدأ من شروق الشمس إلى شروق الشمس، أو من شروق الشمس إلى غروب الشمس، فبعض الناس يطلق على النهار كلمة يوم، والبعض الآخر يطلق على النهار والليل كلمة يوم، وفى كلتا الحالتين هو وصف لفترة من الزمن، تحدها علامة معينة، مثل شروق الشمس، أو شروق الشمس وغروبها، فالقرآن يخاطبنا على قدر عقولنا، ولكن هل معنى يوم الدين أنه يوم من شروق الشمس إلى شروق الشمس؟ أو يوم فيه ليل ونهار؟ أو يوم يحده زمن معين، تتحكم فيه ظواهر خارجة عن الإرادة كشروق الشمس، وغروب الشمس، دوران الأرض حول نفسها؟

إن الزمن لا يوجد إلا فى حياة البشر، فكل حدث بالنسبة للبشر له زمن محدود، أو ظرف زمان، وله مكان محدود يقع فيه، أو ظرف مكان، وذلك حتى يستطيع العقل البشرى أن يستوعبه، ولا يوجد فعل فى العرف البشرى يمكن ألا يقع فى زمن محدد، أو مكان محدد، ولا نستطيع نحن أن نستوعب مثل هذا الفعل إلا بالزمان والمكان، فالعمر يحسب بالزمن، والأحداث تؤرخ بأزمانها وأماكنها، وكل إنسان منا له تاريخ ميلاده، ومكان ميلاده، وله تاريخ وفاته، ومكان وفاته، وبغير ذلك لا تفهم الأمور، فنحن عاجزون عن فهم الأمور على إطلاقها، بل لابد أن يحدها الزمن والمكان، تلك قوانين اللّه فى الأرض.

ولكن اللّه سبحانه وتعالى، لا يحده مكان ولا زمان، إذن.. فكيف يستخدم اللّه سبحانه وتعالى كلمة يوم يحدها مكان وزمان، وهو لا يحده مكان ولا زمان؟

لكننا إذا أردنا أن نفهم معنى الزمن فى حديث اللّه سبحانه وتعالى فإننا يجب أن نعلم أن اللّه سبحانه وتعالى، هو الذى يخلق الزمان والمكان؛ أى إنه مالك الاثنين معا، والمخلوق لا يكون قيدا على إرادة الخالق، أو يحدد هذه الإرادة.

يوم الدين موجود فى علم اللّه سبحانه وتعالى، وبأحداثه كلها، بجنته وناره، وكل الخلق سيحاسبون فيه، وعندما يريد اللّه سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون، أو يخرج من علمه سبحانه وتعالى إلى علم غيره، سواء من الملائكة أو البشر، أو الزمن أو من غيرهما من خلق اللّه، نقول: إن اللّه سبحانه وتعالى حين يريد أن يخرج شيئا من علمه إلى علم خلقه على إطلاقهم، فإنه يقول كلمة: ﴿ كُن ﴾، فيخرج الشىء من علم اللّه الأزلى إلى علم غير اللّه المحدود؛ أى إن اللّه سبحانه وتعالى لا يحده يوم ولا زمان ولا مكان،

ولكنه جل جلاله إذا قال هذا يوم الدين، كان ذلك هو يوم الدين، فإذا أراده الله سبحانه وتعالى فى هذه اللحظة وقع فى هذه اللحظة، وإذا أراده جل جلاله بعد ألف عام، وقع بعد ألف عام وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره بعد مليون سنة، حدث بعد مليون سنة، فما يريده الله سبحانه وتعالى ليوم الدين هو موجود فى علمه، بكل مواصفاته من زمان ومكان، وحشر، وطريقة بعث، وطريقة حساب، وجنة، ونار، كل هذا موجود فى علم الله، والله سبحانه وتعالى يملك أن يكون يوم الدين هو هذه اللحظة أو هو بعد ألف سنة، أو هو بعد ملايين السنين.

والإنسان لا يملك الزمن، ولكن الزمن هو الذى يملكه، فأنت لا تستطيع أن تأتى بالماضى لتغير شيئا قد حدث فيه، فما حدث قد انتهى وخرج عن قدرتك تماما، ولذلك إذا كنت قد ارتكبت جريمة قتل مثلاً، فأنت لا تستطيع أن تعيد الزمن إلى الوراء، حتى تعود الحياة إلى الشخص الذى قتلته، وإذا آذيت إنسانا مثلاً فأنت لا تستطيع أن تعيد الزمن، حتى تزيل الضرر الذى أصابه فيما آذيته به، وكما أنك لا تملك القدرة على الماضى، فإنك لا تملك القدرة على المستقبل، فأنت لا تستطيع أن تعرف ما هو قادم من شر حتى تتقيه، ولا من خير حتى تستزيد منه، ولكنك تملك فقط اللحظة التى تعيش فيها، فاللحظة التى سبقت هى ماض لا يملكه إلا الله، واللحظة القادمة هى المستقبل لا يملكه إلا الله، وأنت لا تستطيع أن تتحكم فى الزمن فتوقفه فلا تستطيع مثلا أن توقف دوران الأرض، حتى لا يكون ليل ولا نهار، ولا تستطيع أن تتحكم فى الزمن لتبقى طفلا لا ينمو، أو شابا لا يصيبه الهرم، أو إنسانا يتخطاه الموت، كل هذا خارج عن إرادتك البشرية تماماً، وسواء أردت أم لم ترد، فالزمان يمضى، وأنت تأتى إلى الدنيا فترة محدودة وترحل، وما تفعله لا تستطيع أن تعيد الزمن لتصحيحه.

ولذلك إذا قلنا يوماً بمنطق البشر، فهذا قانون دنيوى، لا تسيطر عليه أنت حقبة من الزمن تمر، سواء أردت أو لم ترد، بأحداثها التى لا تستطيع أن تتنبأ بما هو قادم منها، ولا أن توقف أو تعيد ما تم منها، هذا هو المنطق البشرى، ولكن الله سبحانه وتعالى بقدراته هو يملك كل شىء، فيوم الدين موجود عنده فى علمه، وهو يستطيع أن يظهره لنا فى الوقت الذى يريده، فأنت إذا قست كلمة يوم الدين بمقياس البشر، فأنت مخطئ ؛ لأن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى.

وإذا قال بعض العلماء: إن ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ معناها مالك أمور هذا اليوم، نقول لهم: متى كان الله سبحانه وتعالى غير مالك لكل أمر؟ لقد كان دائماً هو المالك، ولكنه استخلفنا فى مال أو حكم أو سلطان، بإذنه، وبأمره، متى شاء، وكيف شاء، فإذا أراد أن ينزعه منا، فإن ذلك يحدث متى شاء، وكيف شاء، دونما تقيد بأى أمر من الأمور ولذلك عندما يحث الله سبحانه وتعالى على الإنفاق لإعانة الفقير والمسكين، لا يقول

أنفقوا مما لديكم، أو مما كسبتموه، وإنما يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

أى: إن اللّه سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا هذه الخلافة، وفوض الأمر إلينا فيما أعطى من مال، أو جاه، أو سلطان، ليرى ماذا نفعل، وهل ننفق فيما أمرنا اللّه، أم ننفق فى الإفساد فى الأرض، ونكون بذلك شهداء على أنفسنا يوم القيامة.

واللّه سبحانه وتعالى من قدرته أنه يستطيع أن ينزع ما أعطاه للبشر فى أى وقت يشاء، وهذه من طلاقة القدرة، فالإنسان إذا أعطى الإنسان مالا مثلا، فإنه قد لا يستطيع أن يسترده منه، وإذا أولاه ولاية مثلاً قد لا يستطيع أن ينزعها منه، ذلك أن الوالى يمكن أن يجرد جيشه أو يسلحه، ويعلن استقلاله عمن ولاه الحكم، وكذلك فى كثير من أمور الدنيا، فإذا أطعمت إنسانا طعاما مثلا فإنك لا تستطيع أن تسترده، ولكن اللّه سبحانه وتعالى يستطيع أن يأخذ من كل إنسان أيا من نعمه التى استخلفه فيها، ويستطيع كذلك فى لا زمن تقريبا، فإذا كان اللّه سبحانه وتعالى قد أعطى إنسانا الصحة، فهو قادر على أن يزيلها عنه فى لحظات، وإذا كان اللّه قد أعطى إنسانا مالا، فهو قادر على أن يذهبه عنه، وإذا أعطاه حكما أو عزة أو جاها فهو يستطيع أن يسلبه إياها تماما، ذلك هو اللّه، وتلك قدراته، ولذلك يجب ألا نتعجب من إنسان ضاع ملكه فى أيام، أو فقد ماله فى ساعات أو ابتلى بمرض بين يوم وليلة لا يستطيع أن يجد له شفاء.

تلك هى من قدرات اللّه تعالى، ولذلك حين نقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فإن اللّه سبحانه وتعالى، يملك الأمر فى الدنيا والآخرة، الأمر بيده دائما، وهو الذى يضع ويحدد وفى الآخرة تزول كل الأسباب، ويزول معها كل قانون دنيوى، وتصبح القدرة والقوة للّه سبحانه وتعالى مباشرة بلا أسباب، بما أنه مالك الأمر كله بلا أسباب، فهو سبحانه وتعالى يحدد وبلا أسباب، شكل هذا اليوم وكل مواصفاته، فلا نستطيع نحن أن نقول هذا اليوم سيكون ٢٤ ساعة، أو سيخضع لأى مقاييس البشر.

بعض العلماء يقول، إن الناس قبل اليوم الآخر، ستشملهم غيبوبة الموت، وأن الآخرة ستكون استيقاظا لهم ؛ لأنهم فى الآخرة سيتعرضون لأهوال ويرون أشياء، ومن هنا ستكون الآخرة نهارا ؛ لأن الرؤية وقتها أو محلها النهار، ونحن نقول لهم إن هذا فيه تجاوز لماذا؟ لأنهم كما يخطئ الكثيرون منا، يأتون بمقاييس الدنيا، ويطبقونها على يوم ليس من أيام الدنيا، واللّه سبحانه وتعالى أعطانا علامات الآخرة، ومن هذه العلامات كما قدمنا فى سورة التكوير، وشرحنا باستفاضة اختلاف المألوف، أى إن كل شىء فى هذه الدنيا، قد ألفته النفس كالليل والنهار، والبحار، والجبال، والنجوم، والشمس، والقمر، كل ما ألفناه فى هذه الدنيا ينتهى ؛ مصداقا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝﴾ [التكوير].

ولهذا فإن كل المقاييس الدنيوية ستزول، ولا يصح لنا أن نستخدم مقياسا دنيويا من المألوف، فى وصف يوم الدين، كأن نقول إن كلمة يوم، معناها أنه سيكون نهارا، إلى آخر ما يقال ؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى أخبرنا، أنه فى هذا اليوم، سيزول كل شىء ألفه الإنسان، فلا يأتى أى منا ليقول، إن هذا اليوم ٢٤ ساعة، أو إنه نهار إلى آخر هذا، لابد أن كل شىء يتم بمقاييس اللّه سبحانه وتعالى ؛ يضعها هو والتى لا ندرى عنها شيئا، إلا عندما يريد اللّه سبحانه وتعالى أن يظهرها لنا، وهكذا نرى أن الزمن عند اللّه مختلف، لأن اللّه سبحانه وتعالى هو الذى يخلق الزمن ويحدده، ولذلك فعندما يتساءل بعض الناس عن معنى الآية الكريمة: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وهل اليوم هنا يحسب بالساعات، أى كل ٢٤ ساعة، أو اليوم معناه النهار، فنحن نقول إن اللّه سبحانه وتعالى، شأنه لا ينتهى أبدا، فإذا كان معنى اليوم، هو النهار والليل، فاللّه سبحانه وتعالى، شأنه لا ينتهى ليلا أو نهارا، وإذا كان معنى اليوم هو النهار فقط، والأرض كرة نصفها ليل ونصفها نهار، ولذلك فإن النهار موجود دائما على الأرض، وهذا معناه أن شأنه لا ينتهى أبدا، وإذا أردنا الدقة، وتتبعنا دوران الأرض.. وخطوط الطول التى رسمها الإنسان على سطح الأرض، لوجدنا أنه فى كل جزء من الثانية، يبدأ فيه نهار فى مكان، وينتهى ليل فى مكان، واللّه سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾.

فهو فى شأن أبدا ؛ لأن حركة الليل والنهار، مستمرة على الأرض، لا تنتهى أبدا، ولذلك فاللّه سبحانه وتعالى فى شأن دائما.

على أن القوة البشرية، تتوه فى قدرة اللّه سبحانه وتعالى، فهى فى قضايا الغيب لا تستطيع أن تفهم، واللّه سبحانه وتعالى، يعلم أن علم البشر محدود، وهو الذى أعطى هذا العلم للبشر، لذلك يأتى اللّه سبحانه وتعالى فى قضية الزمن، ورحمة بعقول البشر، ليعطى مثلاً يقرب المعنى إلى الأذهان، فيقول جل جلاله: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

ويقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤].

واللّه هو الذى ييسر لنا الأمور، يخاطبنا على قدر عقولنا، وعندما يقول اللّه: ﴿ يَوْمٍ ﴾ معنى ذلك أنه يوم بمقدار حسابنا البشرى، كما سبق أن قدمنا، والاختلاف هنا الذى وضعه اللّه سبحانه وتعالى فى حقبة الزمن، بين شروق شمس وغروب شمس، أو شروق شمس وغروب شمس هو اختلاف مقصود، ليبين لنا أنه لا زمن.

كيف يمكن أن يحدث ذلك، باختلاف مقياس؟ اللّه سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا ويقول لنا، أنا الذى خلقت اليوم الذى تعيشونه، وهو ٢٤ ساعة، والمخلوق ليس قيدا على قدرة الخالق ؛ ولذلك.. فإذا أردت أن أخلق يوما، يفصل بين شروق الشمس

وغروبها ألف سنة، لاستطعت، وإذا أردت أن أخلق يوما يفرق بين شروق شمس وغروبها مائة ألف سنة لاستطعت، وإذا أردت أن أخلق يوماً يفرق بين شروق شمس وغروبها مليون ألف سنة لاستطعت، ذلك هو اللّه الخالق، فالزمن هنا يخضع لإرادة اللّه فى قوله: ﴿ كُن ﴾.

إذن.. فمقاييس الزمن لا تحكم اللّه سبحانه وتعالى، لماذا؟ لأن اللّه هو الذى يخلق الزمن ويحدده، وهو قادر على أن يخلق يوما مقداره ساعة، ويوما مقداره مائة ألف سنة، ويوما يستمر بلا نهاية، فلا مقاييس للزمن هنا، لأن اللّه يخلق ويختار، فلا يأتى أحد لأن اللّه سبحانه وتعالى قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

فيحاول أن يأخذ من كلمة يوم، قيدا على قدرة اللّه، فيقول إنه ليل أو نهار، أو مقداره ٢٤ ساعة، أو سنة، أو عشر سنوات، ولكن كلمة يوم هنا، مختلفة عن مقاييس الدنيا، لأن اللّه سبحانه وتعالى، قال لنا وأخبرنا أن الآخرة خروج عن كل مألوف فى الدنيا، وقال لنا وأخبرنا، أن كلمة يوم التى استخدمها سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم، ليست مقصورة على المعنى البشرى، الذى نفهمه، بل قد يكون يوم ٢٤ ساعة، ويوم ألف سنة، ويوم خمسين ألف سنة، ولذلك ترك لنا نسبية الزمن مفتوحة، ليقرب من أذهاننا، أن الآخرة، أو يوم الدين، لها مقاييس أخرى، ولنعرف ونحس أن كلمة يوم بالنسبة للآخرة، تختلف مقاييسها، عن كلمة يوم بالنسبة للدنيا.

وهكذا نرى عظمة القرآن الكريم، فى أنه يأتى بما يحسبه بعض الناس تناقضا ظاهريا، ثم يعطينا هذا التناقض، فيهلل أولئك الذين أصابت قلوبهم الغفلة، فيبدأون الحديث عن القرآن الكريم، والتناقض فيه، إلى آخر ما قيل، وما يقال. فتنشط العقول المؤمنة ويفتح اللّه عليها لتبين للناس الإعجاز الموجود الذى لولا غير المؤمنين لما تنبه إليه أحد، وهكذا يسخر اللّه ويبين معجزاته.

وفى بعض الأحيان، يأتى بعض الناس، ليسألوك عن تناقضات ظاهرية فى كتاب اللّه سبحانه وتعالى، فيقولون إن اللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

ويقول عز وجل: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

ويتساءلون كيف يمكن أن تخاف القلوب وتطمئن إلى شىء واحد وهو ذكر اللّه، مع أن الخوف عكس الطمأنينة، فالخوف فزع وشعور بالخطر، والطمأنينة راحة، وإحساس بالأمان، فكيف يمكن أن يجتمعا فى وصف شىء واحد، وهو ذكر اللّه، مع أن الذى يخيف، عكس الذى يطمئن.

ونحن نقول لهؤلاء، كما قلنا من قبل فيما يتعلق بالزمن، وكون اليوم ألف سنة، أو خمسين ألف سنة، نقول لهم، إن اللّه سبحانه وتعالى، حين يقول، فلا شىء فى القرآن

الكريم اسمه الصدفة، ولا شيء اسمه تجاوز المعنى، بل إن المعنى فى القرآن، مطابق ومساو للفظ تماماً، فحين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهو يصف ذلك الإنسان المؤمن، أو النفس المؤمنة، يصفها وصفا دقيقاً، هذه النفس، قد نسيت الله لحظة، أغراها أى شيء فى الدنيا، مال، جاه زائف، المهم أن هذه النفس غرتها الدنيا لحظة أو لحظات، فنسيت الله، ثم تذكرت، ومعنى التذكر، أنها أفاقت مرة أخرى، فعرفت أنها ستلاقى الله سبحانه وتعالى، وأن هذا اللقاء يقين، حينئذ يدخل الوجل، وهو الخوف الشديد إلى هذه النفس، تحس بهول ما صنعت حين نسيت الله لحظة، لماذا؟ لأنها تعرف الله، تعرف قدراته، وتعرف ما ستلاقيه فى اليوم الآخر إذا نسيته، فى هذه اللحظة تستحضر العقاب يقينا، وقدرة الله يقينا، فيصيبها الهول والفزع، لماذا؟ لأنها تعلم أن الجزاء يأتى بقدرات الله، وهذا يجعل أقوى القلوب المؤمنة، ترتعد من الوجل والخوف، هذه هى النفس المؤمنة، أما النفس غير المؤمنة، فهى تلهو وتلعب، وإذا ذكر الله، لا يدخل الوجل ولا الخوف إلى النفس، لماذا؟ لأن استحضار العذاب أو لقاء الله، غير موجود، بل إن بعض هؤلاء الناس، يتهمون الإنسان المؤمن بأنه إنسان أبله، رجل لا يتمتع بالذكاء، وكيف يتمتع بالذكاء، وهو يشقى ويتعب للحصول على مال ورزق، ثم بعد ذلك يعطيه لغيره من الفقراء والمحتاجين مجانا، وكيف يكون ذكيا، وهو يستطيع أن يضع الجنيه فوق الجنيه، والرزق فوق الرزق، ويشترى عمارة، أو سيارة فاخرة أو يذهب فيقضى وقتا ممتعا فى أوربا وأمريكا، ومع ذلك فإنه يفضل أن يعطى هذا الرزق لإنسان بائس، أو فقير، أو محتاج، من دون أن يتمتع به هو، والناس تتمتع بما حباها الله من مال تشترى به فاخر الثياب، وفاخر الأثاث، وفاخر السيارات، وتتمتع بالدنيا، ومن أعز على الإنسان من نفسه يمتعها، وهذا المؤمن يتعب فى المال ويشقى، ثم يوزعه على الناس، والمتع فى الدنيا حوله، ولكنه يغض البصر عنها، ويحرم نفسه، ويبتعد عن الحرام، إنه إنسان حرم نفسه من ماله، ومن زينة الدنيا.

ولكن الحقيقة أن الإنسان المؤمن هو أذكى الناس جميعا ؛ لأن المال الذى اكتسبه غيره، أنفقه وأفناه فى متاع محدود، وعلى قدر ما تعطى الدنيا، ولكن هذا المؤمن أخذ ماله، واختار ثلاثة أشياء هامة:

أولاً: أن هذا المال يبقى ولا يفنى، فماله إذا أنفقه فى الدنيا يفنى، وماله عند الله يبقى، وهو يريد أن يجعل هذا المال باقيا أبدا إلى يوم القيامة، ولذلك فقد دفع بماله إلى الفقراء و المساكين، لا ليفنيه، ولكن يبقيه، فأيهما أذكى؟ هذه واحدة.

الثانية: فقد كان هذا المال سيتمتع به حسب قدرات البشر، فالذى سيأخذ هذا المال، وفى أى فن يعمل، سيمتع صاحب المال على حسب قدراته.

فإذا اختار صاحب المال سيارة فاخرة مثلا، من سيارات الدنيا، فسيتمتع بقدرات

البشر الذين صنعوا هذه السيارة، بما استطاعوا أن يوفروا فيها من وسائل الراحة والرفاهية، وإذا اختار مثلا أن يأتيه طعامه من أفخر مطاعم العالم فهو سيتمتع بطعام طيب، حسب قدرات ذلك الطاهى الذى أعد الطعام، فإذا اختار أفخر ثياب الدنيا، فهو سيتمتع بقدرات الدنيا حسب قدرات صانع الثياب، ولكنه إذا اختار الله سبحانه وتعالى، فإنه قد اختار أن يتمتع بقدرات الله، التى ليس لها حدود ولا قيود، فمن الذى يمتاز بالذكاء فى هذه الحالة، ذلك الذى اختار المتعة بقدرات البشر، أم الذى اختار المتعة بقدرات الله سبحانه وتعالى، أيهما أكثر ذكاء وفطنة؟

الثالثة: إن المال فى الدنيا قد يضر وينفع ؛ أى إنه ليس نافعاً لصاحبه على إطلاقه، فإذا استخدمت المال مثلاً، فى الإفراط فى فاخر الطعام، أصابت جسمك الأمراض والعلل - التى قد تمنعك من تناول لقمة واحدة - فإذا أردت أن تسرف فى الشراب مثلاً، أو فى الملذات الحسية، ينهدم جسدك، وتضيع قوتك، وتضعف صحتك، وتصبح عليلاً، وهكذا أصابك المال بالضرر وليس المنفعة.

وقد تنفق هذا المال على إنسان فيطمع فيك ؛ وتقدم إليه الخير فيقرر أن يقتلك ليحصل على مالك كله، وفى هذا يكون المال ضررا عليك وليس منفعة وقد يجلب عليك المال العداوات، والحقد، والكراهية، من غيرك من البشر، وهكذا نرى أن المال فى الدنيا قد يضر وينفع، أى إنه ليس كله نفعا، أى فيه ضرر ونفع، ولكنه عند الله سبحانه وتعالى، نفع بلا ضرر، وتمتع حسب قدرات الله سبحانه وتعالى، بدون أن يصيبك منه إلا الخير، والخير العميم، فمن هو الذكى ذلك الذى ينفق ماله فيما يمكن أن يعود عليه بالضرر، أم ذلك الذى ينفق ماله فيما يعود عليه بالنفع الخالص؟!

وهكذا نرى أن المؤمن ليس إنسانا غبيا، كما يدعى بعض الناس، بل إنه أذكى كثيرا من هؤلاء الذين يتظاهرون بالفطنة، وحسن معالجة الأمور، ويختارون ما قد يضرهم ولا ينفعهم، بينما ينفق ماله فيما ينفعه ولا يضره.

إذن الإنسان المؤمن يتصرف فى حياته كلها من منطق واقع الإيمان، وهو يعلم يقينا أنه سيلاقى الله سبحانه وتعالى، وهو يعلم يقيناً أنه سيحاسب، وهو يعلم يقيناً أن هناك الآخرة وهو يعلم أن الله سيجزى الحسنة بعشر أمثالها، ويضاعف لمن يشاء، وهو فى علمه هذا مستبشر بالله وبالآخرة، وكأنه يراها، ويعيشها، ويحسها، فإذا نسى لحظة، أو سها فترة ثم تذكر، أو ذكّره إنسان بالله، ظهرت أمامه الصورة التى يعرفها عن الآخرة، فارتعد الجسد خوفا من الله، ووجل القلب رعبا من الجزاء.

هذا هو معنى الآية الأولى، نأتى بعد ذلك إلى الآية الثانية التى يقول فيها الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾.

هذا ذكر، وهذا ذكر.. نعم، والخطاب فى الآيتين للإنسان المؤمن: فالذى وجل

قلبه مؤمن، والذى اطمأن قلبه مؤمن أيضا، فقط هنا مجال التذكير مختلف، فالأول ذكر الله وهو يرتكب معصية، أو يهم بارتكاب معصية، والثانى ذكر الله وهو يواجه ابتلاء، وهو يواجه أزمة، وهو يواجه ضيقاً، والإنسان المؤمن يصادف فى حياته أشياء كثيرة وأزمات، بل فى بعض الأحيان، يبتلى من الله سبحانه وتعالى، امتحانا للإيمان.

وكقاعدة عامة نستطيع أن نطبقها ؛ فالإنسان غير المؤمن فزع فى حياته، قلق من كل شىء: من الغد، من المستقبل، من المال، من الصحة، من زوال النعمة، من بطش ظالم أو جبار، من رزق الغد، من كل شىء حوله، فإذا صادفته أزمة، انقلب هذا الفزع إلى رعب، يؤدى فى كثير من الأحيان إلى الجنون، أو الانتحار، أو ارتكاب جريمة، أما الإنسان المؤمن إذا صادفته أية أزمة فى الدنيا، فإن قلبه مطمئن إلى أن الله لن ينساه، إذا لم يكن لديه طعام الغد، فرزق الغد سيأتى، وإذا حدثت له أزمة فالله مفرج الكروب والأزمات، وإذا اعتدى عليه جبار، فقلبه مطمئن إلى أن الله سبحانه وتعالى سيحميه، وهو فى حياته كلها مطمئن إلى قضاء الله، فإذا أصابته شدة ذكر الله فاطمأن قلبه، وإذا زالت عنه نعمة تذكر أن الله سبحانه وتعالى يعطى من يشاء، وأنه سيعوضه عما فقد، فاطمأن قلبه، فهو كلما ذكر الله سبحانه وتعالى، علم أن الله معه بقدراته، وما دام الله معه، فمن ذا الذى سيغلبه، ومن ذا الذى سيصيبه بالسوء، ومم يخاف؟ فأين هو التناقض بين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢]، و ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

فذكر الله يعنى أنك تذكر الله وأنت غافل، والآية الثانية تعنى أنك تواجه أمرا من أمور الدنيا قد يفزعك، وفى كلتا الآيتين، أنت تفزع لله، الأولى بقلب وجل خائف منه، نادما على ما فعلت، طالبا التوبة ؛ والثانية بقلب مطمئن إلى قضائه، محتميا بالله، بأنه لن يتخلى عنك، وأنه ما دام الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عنك، فلن تستطيع أية قوة فى الدنيا أن تصل إليك.

تلك هى معجزات الإيمان، الخوف من الله سبحانه وتعالى، إذا نسيناه، والرجاء فى الله سبحانه وتعالى، كلما ضعفت قدراتنا وقلت عما واجهناه، أو نواجهه فى هذه الحياة.

نعود بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، كل ما نسبه الله سبحانه وتعالى إلى نفسه فالنسبة له، ما معنى ذلك؟ معناه أن الله تعالى، حينما يقول: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فيوم الدين منسوب إلى الله سبحانه وتعالى، أى إن كل ما سيحدث فيه، وكل ما سيتم، يقع تحت: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٩١]. و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

لأننا فى هذه الحالة ننسب الفعل إلى الفاعل، وهذه القاعدة عامة، فأنا إذا قلت مثلا

كلمة: «فرح» على إطلاقها، فإنها تفتقر إلى التحديد، ولكنى إذا نسبتها إلى فاعلها، فقد يقترب من ذهنك المعنى، فإذا قلت مثلا، فرح ابنة البواب، كان لها معنى حسب قدرات البواب، فإذا قلت فرح ابنة المحافظ، تغير المعنى تغيراً كاملاً، رغم أن الفعل واحد، ولكن الفاعل مختلف، فإذا قلنا فرح ابنة الملك، تغير الفعل مرة أخرى، ليشمل الفخامة والقدرة وأشياء كثيرة، لا يشملها فرح ابنة البواب مثلا، فإنك حينما تقارن فرح ابنة البواب، بفرح ابنة الملك، وما بينهما من فارق هائل، فأنت فى الحالة الأولى تنسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى، ففى هذه الحالة يتناسب الفعل مع قدرات الفاعل، الذى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، والتى تفوق قدرات البشر جميعا، بملايين المرات، لذلك لا تحاول أن تضع عقلك قيدا على فعل الله سبحانه وتعالى، وأن تصوره بقدراتك أنت، بل أثبته، أو انسبه لقدرات الله سبحانه وتعالى، فيخرج عن نطاق العقل، ماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

فإن كل شىء يحدث فيه بقدرة الله مباشرة، دونما أى واسطة أو أسباب، فانسب الفعل للفاعل، الذى لا يحده قيد ولا زمن. هكذا يأتى كل شىء فى يوم الدين، مقدار ذلك اليوم مثلا، الله يعلمه ونحن لا نعلمه؛ لأن يوم الدين بكل ما فيه فى علم الله سبحانه وتعالى، أن يبقى يوم الدين ألف سنة، أو مائة ألف سنة، أو مليون سنة، مما نعد نحن، أمر ممكن لأن الله سبحانه وتعالى خالق هذا اليوم، يستطيع أن يبقيه ما يشاء إلى ما شاء، ما سيحدث من أهوال فى هذا اليوم، وماذا سترى الناس، وماذا ستسمع، وماذا ستشاهد، كل هذا مما لم تألفه، ولم نعرفه فى حياتنا هذه سيحدث، رؤيتنا للملائكة، رؤيتنا للنار والجنة، كل ذلك يخرج من نطاق قدراتنا، إلى نطاق قدرة الله، فهو الذى سيخرج لنا هذا كله، وسيريه لنا ولذلك لا تقل كيف؛ لأن الله سبحانه وتعالى يملك القدرة، و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

على أن الله سبحانه وتعالى، تحدث فى القرآن الكريم عن مفهوم الزمن، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

والذى يلفت النظر هنا، هو أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَتَىٰٓ﴾، ويقول: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، أتى فعل ماض، أى إنه حدث فى الماضى شىء تم ووقع، فكيف يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ﴾، ويقول: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، مع أن الاستعجال يقال لشىء مستقبلى، أى شىء لم يحدث بعد.

هذا هو معنى الزمن عند الله سبحانه وتعالى، فأتى أمر الله؛ أى أتى وأصبح حقيقة واقعة وكل أحداث الأرض منذ بدء الخليقة حتى نهايتها موجودة عند الله سبحانه وتعالى، وهو الذى يقول لها: ﴿كُن﴾، فتخرج من علمه وبقدرته، إذن أتى معناه أنه تم فى علم الله، تماما كما قلنا، إن يوم القيامة أو يوم الدين، بكل ما سيحدث فيه، أو ما سيجرى وما

سيتم موجود فى علم اللّه سبحانه وتعالى، فإذا شاء اللّه له أن يخلق، قال: ﴿ كُن ﴾، فظهر إلى علمنا، وعرفناه، وإن لم يشأ أبقاه غيبا عنا، فلا ندرى به شيئا، ولا نعلم له وجودا.

ولذلك عندما يخاطبنا اللّه تعالى عن شىء فإنه عنده أتى وانتهى، ولكنه يقول لنا: ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾، أى: لا تستعجلوا بروزه إلى علمكم المحدود، ودائما الإنسان عجول، يريد أن يصل إلى كل شىء بسرعة، حتى لو كان فى هذا الشئ ضرره، فاللّه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا، إن ما هو ماضٍ عندى أعرفه وقررته وخلقته، ربما سيظهر لكم عندما أشاء، ولذلك لا تستعجلوه فربما كونى حجبته عنكم فيه حكمة بالغة.

اللّه سبحانه وتعالى حيث يقول: ﴿ أَتَىٰٓ ﴾، فهو يقرر ما هو واقع فعلا، فأنا لا أستطيع أن أحكم على شىء مستقبلى؛ لأننى لا أملك القدرة على التنفيذ، بل أنا خاضع لظروف كثيرة تحكمنى، ولكن اللّه سبحانه وتعالى حينما يقول: ﴿ أَتَىٰٓ ﴾، فلا يوجد من يستطيع أن يمنع أمرا للّه أن ينفذ، ولذلك فهو لا محالة واقع. . حدد اللّه بدايته ونهايته، وقد يستمر هذا الأمر لحظة، وقد يستمر ملايين السنين مما نحسبه نحن، ثم إن اللّه سبحانه وتعالى قد حدد كل تفاصيله، وكل شىء يقع فيه، وبهذا المفهوم تفهم المعنى. ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

على أن الإنسان المؤمن، حينما يفكر فى يوم الدين، فإنه يحس براحة نفسية، لماذا؟ لأن هذا اليوم، هو الضمان لكل مؤمن، امتنع عن حرام الدنيا، وامتنع عن كل شىء فيه نفع عاجل، أو مكسب عاجل، نهى اللّه عنه، ذلك أنه فى هذه الحالة، يطمئن إلى أنه ما دام قد امتنع عن حرام الدنيا فجزاؤه فى الآخرة، وما دام قد قصد بعمله وجه اللّه سبحانه وتعالى، فاللّه لن يضيع أجره.

ولن يأتى إنسان مهما بلغ فى هذه الدنيا من قوة وقدرة ونفوذ، ويقول أو يدعى أنه يستطيع أن يمنع أجر الآخرة عن إنسان أحسن، أو تصدق، أو تقرب إلى اللّه بعمل من الأعمال الصالحة، ذلك لأن اللّه سبحانه وتعالى، هو مالك هذا اليوم دون ما تدخل بشرى على وجه الإطلاق، ولذلك قال اللّه سبحانه وتعالى:

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩].

ولذلك فإن أى عمل صالح هو إعداد من المؤمن ليوم الدين، وهو إعداد لا يخضع لقدرة بشر إلا صاحب الشئ نفسه، فأنت مهما كانت القوى التى ضدك، تستطيع أن تعد الإعداد الجيد، المتقبل من اللّه ليوم الدين، وإعداد المؤمن هو اقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فقد أهديت شاة لرسول اللّه من بعض المسلمين فطلب من عائشة أن تتصدق بها على فقراء المسلمين، وكانت عائشة رضى اللّه تعالى عنها، تعلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، يحب لحم الكتف، فأبقت من لحم الكتف ولم تتصدق بها،

ولما جاءت عائشة سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ماذا صنعت بالشاة؟» قالت: تصدقت بها وبقيت كتفها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل كلها بقيت إلا كتفها»[١].

السيدة عائشة أرادت أن تقول لرسول الله، إن كتف الشاة هى التى بقيت ولم تتصدق بها، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، صحح لها المنطق، وقال لها لقد بقيت الشاة أى ما تصدقنا به هو الباقى. ولكن كتف الشاة التى أبقيتها لنأكلها هى الجزء الذى ضاع لأننا سنأكله ويفنى، كل الشاة بقيت لنا إلى يوم القيامة جزاء على الصدقة، لأن ما نتصدق به للآخرة هو الباقى، وأن ما سنأكله سينتهى، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الإنسان مالى، مالى، وهل لك من مالك إلا ما لبست فأبليت وأكلت فأفنيت وتصدقت فأبقيت»[٢]. إذن ما هو الباقى للإنسان من المال؟ الصدقة وحدها.

والإنسان فى الدنيا، يعيش قلقاً خائفاً من زوال النعمة، فالنعمة إما أن تفارق الإنسان بأن تزول عنه، أو يفارقها هو بأن يترك الحياة الدنيا؛ لذلك نجد أشد الناس حرصا على الدنيا، من هو فى نعمة يخشى أن يفارقها، ولكن النعمة فى الآخرة لا تفارق الإنسان أبدا، إذن فمن الخير لى أن يكون نعيمى فى الآخرة، حيث لا تفارقنى النعمة أبدا، بل أعيش مخلدا فيها.

ولقد دخل أحد الأشخاص على رجل صالح، وقال: أريد أن أعرف، أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟ قال له الرجل الصالح: إن الله أرحم بعباده، من أن يجعل موازينهم فى أيدى أمثالهم، فميزان كل امرئ فى يد نفسه، لماذا؟ لأنك تستطيع أن تغش الناس، ولكنك لا تستطيع أن تغش نفسك، ميزانك فى يدك تستطيع أن تدرك أأنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة، فقال الرجل طالبا من العبد الصالح أن يشرح له، كيف ذلك؟ فرد العبد الصالح، إذا دخل عليك من يعطيك مالا، ودخل عليك من يأخذ منك صدقة، فبأيهما تفرح؟ فسكت الرجل، وهنا قال العبد الصالح: إذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا، فأنت من أهل الدنيا، وإن كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة، فأنت من أهل الآخرة، لماذا؟ لأن الإنسان يفرح بمن يقدم له ما يحبه، فالذى يعطينى مالاً، يعطينى الدنيا، والذى

---

(١) روى الترمذى [٢٤٧٠] عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ما بقى منها؟ قالت: ما بقى منها إلا كتفها. قال: بقى كلها غير كتفها». وصححه الألبانى.

(٢) روى مسلم [٣/٢٩٥٨]، والترمذى [٣٣٥٤]، والنسائى فى المجتبى [٣٦١٣] عن مطرف عن أبيه رضى الله تعالى عنهما قال: أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ قال: يقول ابن آدم: مالى، مالى، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت».

يأخذ منى صدقة، يعطينى الآخرة، فإذا كنت من أهل الآخرة، فإنى أفرح بمن يأخذ منى صدقة أكثر من فرحى بمن يعطينى مالاً.

ولذلك كان بعض الصالحين، إذا دخل عليه من يريد منه صدقة، يقف له، ويقول مرحبا بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجر، ولذلك أيضاً فإن الكلمة غير الطيبة تفسد الصدقة، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

لماذا قال الله سبحانه وتعالى ذلك؟ لأن الذى يتبع الصدقة بالأذى، ليست وجهته الآخرة وليس إيمانه كاملا، إذ كيف أهين أو أؤذى، ذلك الذى جاء يحمل حسناتى إلى الآخرة بغير أجر، أيأتى إنسان يحمل لى زادى إلى الآخرة فأهينه وأؤذيه؟ أيكون هذا إيماناً؟ أم أننى أرحب به وأكرمه وأفرح به؛ لأنه سيؤدى لى خير ما فى الدنيا، وسيؤديه بلا أجر.

ولذلك فإن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

هى قضية ضخمة من قضايا الإيمان؛ لأننا ساعة أن نؤمن فنحن مردودون إلى الله وحده، وفى هذا اطمئنان للإيمان فى القلوب، وأنت وحدك الذى تضع الأساس أو تملك الميزان، ولذلك فلو قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وجعل الآخرة كالدنيا فيها من يستخلف فى الأمور، لاهتز الإيمان باليوم الآخر، ولم يكن فيه الحسم، والقوة، والقدرة، ولأصبح القوى فى الدنيا يأخذ كل شهوات الحياة، ويعطى نفسه ما يشتهى بلا قيود، بينما ذلك الذى يتبع المنهج قد قيد نفسه ولم يحصل على شىء.

و ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾معناها أن الابتداء من الله، والانتهاء إلى الله، فكأن الحياة تشبه طرفى قوس، تبدأ بخلق الله، وتنتهى بعودة إلى الله، وما دام الابتداء من الله، والانتهاء إلى الله، لم يبق بين البداية والنهاية إلا ما يرد إلى الله، أى إن كل عمل فى الدنيا يقصد به وجه الله، هو الباقى فى هذه الحياة، وأريد هنا أن نلاحظ شيئا. هناك فى اللغة ما يسمونه بضمير الغائب، إذا قلت: زيد حضر، فهو موجود، وإذا قلت قابلت زيدا فهو غائب، قابلته ولكنه ليس موجودا معنا وقت الحديث، هناك غائب وحاضر ومتكلم وقضايا العقيدة كلها ليس موجودا فيها مشاهدة، فأنت عندما تجلس أمامى وأراك وأتحدث إليك، لا أقول إننى أؤمن لأنك أمامى وأنا أراك؛ ولكن الإيمان يكون بما هو غيب؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى يتكلم بضمير الغائب، لأن الله غيب فيقول:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢].

الله غيب، ورب العالمين غيب، والإيمان إيمان بالغيب، ولا توجد عقيدة فى أمر حسى أبدا، لا أقول مثلا إننى جالس أمامك وأنت تتحدث إلى.. هذه ليست عقيدة؛ لأنها أمر حسى لا يدخل فى مقام الاعتقاد.

إذن.. ﴿ ٱللَّهِ ﴾غيب، و ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ غيب، و ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾غيب، و ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾غيب، والقياس هنا على أساس الغيب، ولابد إذا سرنا على الطريق نفسه، أن يكون السياق «إياه نعبد»، ولكن الله سبحانه وتعالى غير السياق، وجعله حاضرا، فقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، فانتقل الغيب إلى حضور المخاطب، وبعد أن كان علم يقين بالغيب، أصبح علم يقين، فلا تقول: «إياه نعبد» ولكن تقول ﴿ إِيَّاكَ ﴾، فكأنك استحضرت الغيب: ربا، ورحمانا، ورحيما، واستحضرت: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، وعندما اختمرت صفات الغيب، انتقلت إلى محضر الشهود وقلت: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: ٥].

إذن.. عندما نرى لفظ ﴿ إِيَّاكَ ﴾، فالعبارة هنا تفيد الخصوصية، بمعنى أننى إذا قلت لك إننى سأقابلك، فإننى قد أقابلك وحدك، وقد أقابلك مع جمع من الناس، أو مع آخرين، فهنا الخصوص أو التصور غير محدد، ولكننى إذا قلت لك إياك سأقابل، فمعنى ذلك أن المقابلة ستكون خاصة، وإننى سأقابلك أنت بالذات، ففى هذه الحالة لا يمكن أن تعطف عليها شيئا آخر، إياك سأقابل، أى إننى سأقابلك أنت.

إذن.. فاستعمال لفظ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ معناه أن العبادة لله وحده، فلو قلت: نعبدك وحدك، لا تؤدى المعنى نفسه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، لماذا؟ لأنك قد تقول: نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا، ولكن إذا قلت: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، وقدمت إياك، تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده، لماذا؟ لأن العبادة خضوع لله، بأفعل ولا تفعل، ولذلك جعل الصلاة هى العبادة، والسجود منتهى الخضوع لله، ذلك أن الإنسان يعرف بأنه مستوى القامة، ومعناها أن رأسه أعلى وقدميه أسفل، فعندما يأتى السجود، تأتى هذه القامة، أعلاها إلى أسفلها، وهذا هو منتهى الخضوع، الرأس يأتى عند موضع القدم.

نأتى بعد ذلك إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، أى نخضع لك، نستعين بك فى كل الأمور، ولكن هذا الخضوع يتم غيبا، هل أمرنى الله سبحانه وتعالى أن أختفى عن الناس جميعا، فى غرفة مغلقة، أو فى مكان مظلم عندما أعلن خضوعى له، لا، وإنما أمرنى أن أفعل ذلك علنا، أمام الناس جميعا، أن أسجد وأضع رأسى مكان قدمى، وأعلن خضوعى وذاتى لله أمام البشر كلهم، أعلن عبوديتى لله، وذلك حتى لا أستكبر، والله يريد الناس جميعا عبيدا له وحده، لذلك يستوى فى العبودية، وفى إعلان الخضوع لله الغنى والفقير، والكبير والصغير، والملك والعبد، كل هؤلاء يستوون فى الخضوع لله، وفى إعلان هذا الخضوع.

إذن.. قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، تنفى العبودية لغير الله، أى لا نعبد غير الله، ولذلك لا تعطف عليها أبدا، ساعة ترى المفعول تقدم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، فمعناها حتما إننا نعبدك ولا نعبد سواك، إذن.. ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، أعطت التخصيص بالعبادة،

حين يخص الله سبحانه وتعالى نفسه بالعبادة، وذلك حين نقول الحمد لله، فإننا نستحضر مستوجبات الحمد، وهى نعم الله ظاهرة وباطنة، وحين نقول رب العالمين، فنحن نستحضر نعم الربوبية من خلق وإيجاد من عدم، إلى كون ملىء بالنعم التى تعطى بلا مقابل، إلى إخضاع قوى الكون لخدمة الإنسان إلى منهج يحقق لنا السعادة، وحين نستعرض ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة، ومقابلة الإساءة بالإحسان وفتح باب التوبة، وكل ما وضعه الله سبحانه وتعالى من رحمة فى هذا الكون وسعت كل شىء، وحين نستعرض ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، فإننا نستحضر يوم الحساب، وكيف أن الله سبحانه وتعالى سيجزينا خير الجزاء، ويعطينا نعيما وجنة وفق ما يريد، فإذا استعرضنا هذا كله واستحضرناه فهذه نعم الله أعطاها لنا، فما هو المطلوب منا؟ المطلوب منا، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾أى: إن نعبد الله وحده، وكيف نعبد الله، إذا عرفنا المطلوب منا، فكيف نمضى فى العبادة؟

وهنا نتوقف قليلا ؛ لنضع خاطرا هاماً لا بد أن نعرضه، إذا أردت أن تصنع شيئا فإن أمامك طرقا كثيرة، قد تصنعه مثلا على طريق ما يسمونه طريق الهواة، أى بلا دراسة ولا دراية، وإنما بشىء تحاول أن تقلده، ولكنك إذا أردت أن تصنع شيئا بإتقان، فلابد أن يكون هناك منهج تدرسه يحوى أصول هذه الصناعة ؛ حتى تستطيع أن تنفذها بإتقان، إذا قال لك ابنك إنه يريد أن ينجح فى الامتحان ويحقق شيئا جميلا أو معرفة، فتقول له لابد أن تذاكر، إذن المذاكرة شرط من شروط النجاح، والكل متفق على أن الشرط سبب وجود الجواب، فالمذاكرة سبب وجود النجاح. . هذا هو ظاهر العلم، ولكن باطن العلم غير ذلك، ذلك أن ظاهر العلم يهمل شيئا هاما، عناصر حركة الإنسان، وهو الدافع قبل الواقع، أنت تقول إنك تذاكر لتنجح، فكأن النجاح وجد فى ذهنى أولا، بكل ما يحققه لى من مميزات، ثم بعد ذلك ذاكرت ؛ ليصبح هذا النجاح حقيقة واقعة، ومعروف أن الشرط سبب وجود الجواب، إذن. . لا بد أولاً أن تؤكد أن الدافع يأتى قبله.

إذن. . فالدافع موجود قبل المذاكرة، وبعد المذاكرة جاء الواقع فتحقق ما أردت، فالسيارة سبب. . وقطع الطريق سبب، ولكن الدافع أن أصل إلى مكان أحب أن أصل إليه كالإسكندرية مثلا، فأنا عندما أذهب، أركب أولاً، ولكن الدافع يكون فى ذهنى قبل أن أركب، إذن. . فالغاية وُجِدَت. ثم بعد ذلك جاء الشرط لتحقيق الغاية، فبعد أن كانت دافعا فى عقلى فقط، صارت واقعا، ولكن الدافع يكون فى ذهنى قبل أن أركب، إذن فالغاية وُجِدَت.

فى كثير من الأحيان، نجد الجدل يخرج أشياء كثيرة عن معانيها، ويدخلها فيما ينفع وما لا ينفع، الله سبحانه وتعالى، خلقنا فى الحياة لنعبده، هذه الحقيقة لا يستطيع أحد أن ينكرها والله سبحانه وتعالى جعل علة الخلق هى العبادة، وتم الخلق لتتحقق

العبادة، وتصبح واقعا، ولكن هل العبادة هى مجرد الجلوس فى المساجد والتسبيح، أم أن لها منهج عمل بينه القرآن، منه العبادة، ومنه العمل، ومنه السعى فى الأرض، ومنه مقاومة الفتن والإغراءات، ومنه الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومنه أشياء كثيرة، بينها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم، ووضحها فى منهج متكامل للحياة.

لو أن الله سبحانه وتعالى، أراد منا التسبيح والصلاة فقط وحدهما بدون أى شىء آخر ما خلقنا مختارين، والله سبحانه وتعالى غنى عنا جميعا، ويستطيع أن يخلق مما يشاء كما يشاء، من يسبحون بحمده، ولا يعصون له أمرا، وأن من خلق الله سبحانه وتعالى، كالملائكة وغيرهم، من يسبح بحمده ولا يعصى له أمرا، ومن هو مقهور على عبادته.

ولو أن هدف الخلق، هو العبادة بمفهومها الذى يحاول بعض الناس أن يفسره، ما استطاع خلق من خلق الله أن يشذ عن طاعته، والله سبحانه وتعالى له صفة القهر، ومن هنا فهو يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته، لا يستطيع أحد المعصية أو الإفلات ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾ [الشعراء].

أى إن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجا لعبادة القهر، وليس محتاجاً لأن يقهر خلقه ليعبدوه، فهو غنى عن الجميع، وعبادة الخلق لله سبحانه وتعالى، لن تزيد من ملكه شيئا، وعصيان خلق الله لله سبحانه وتعالى لن ينقص من ملكه شيئا.

ولكن الله خلقنا لنعبده اختيارا ؛ لنأتيه ونحن نملك الحرية أن نأتى، أن نتبع المنهج وألا نتبعه، يريدنا الله سبحانه وتعالى، أن نأتى طواعية من أنفسنا، و نختار أن نكون مقهورين لعبادته.. ونحن نستطيع ألا نكون، ولكن بإرادتنا وبحبنا لله سبحانه وتعالى يدفعنا هذا الحب أن نقيد إرادتنا التى شاء الله سبحانه وتعالى، أن يعطيها لنا اختيارا، أن نقيد هذه الإرادة بإرادة الله سبحانه وتعالى، فإذا قال أفعل فعلنا.. وإذا قال لا تفعل لم نفعل ؛ حبا لله وقربا منه، وجهدا مخلصا فى الوصول إلى رضاه، هذه هى أعلى المنازل عند الله سبحانه وتعالى، التى منحها لآدم وذريته من بعده.

فالذى يأتى الله سبحانه وتعالى مقهورا، إنما يأتيه وهو غير مختار، فهو لا يستطيع أن يفعل إلا ذلك، ولكن الذى يأتى الله سبحانه وتعالى اختيارا، فهو أعلى منزلة، لأنه يستطيع أن يفعل غير ذلك.. زينت له الشهوات، وزينت له المعاصى، والشيطان يغريه، والدنيا تكذبه، وبريق كل شىء يحيط به، ومع ذلك فهو يترك هذا كله بإرادته، يدفعه حبه لله سبحانه وتعالى، أن يأتى طائعا مختارا ؛ ليتخلى عما نهى عنه الله، ويتمسك بما أمره الله به، تلك عبادة عن محبوبية، عن حب الله، عن تمتع بطاعة الله سبحانه وتعالى بالاختيار، نسبح لله، نعم عن حب، نعبد الله نعم، عن قرب وعن رغبة، نأتى الله

سبحانه وتعالى لنقول له، يا رب خلقتنا وأعطيتنا الحرية فى أن نفعل أو لا نفعل، وزين لنا الشيطان الدنيا ونعيمها، وحفت الطاعة بالمكاره، ولكننا تركنا الدنيا كلها، بما تعرضه وما تقدمه، وجئنا إليك مؤمنين أن الحياة التى وضعتها لنا، هى الحياة السليمة الصحيحة الباقية، هى النعيم الحقيقى، أتينا إليك طائعين مختارين، لنلتزم بعبادتك، هذا الالتزام هو حب لك، أو على الأصح، حب لما تحب، وكره لما تكره.

يجب علينا أن نفرق، حينما يقول اللّه سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم، عِبادا وعَبيدا، يجب أن نفرق بين هاتين الكلمتين، ونعرف أنهما ليستا مترادفتين، ولكن لكل منهما معنى يختلف عن الآخر، فكل خلق اللّه عبيد، لماذا؟ لأن هناك أمورا قهرية تجرى على هذه الدنيا، وهناك أشياء كثيرة لا اختيار لى فيها، أبى وأمى مثلا، بلدى، رزقى، الأحداث التى تقع على، كل هذا أنا مقهور فيه ؛ ولذلك حين يريد اللّه سبحانه وتعالى عَبيدا، فإنه يجرى عليهم صفة القهر، فلا يستطيعون أن يتحللوا أبدا، ولكن اللّه سبحانه وتعالى حين يريد أن يخلق عِبادا، فإنه يخلق أناسا لهم منطقة اختيار وأن يطيع أو لا يطيع.

فالذى يتنازل باختياره عن حركة الحياة، هم عباد الرحمن، أولئك الذين أعطاهم اللّه صفة الاختيار، فى أن يفعلوا أو لا يفعلوا، ولكنهم تنازلوا عن الاختيار الذى منحه اللّه لهم تنازلوا عنه، فإن أطاعوا فحبا للّه لا قهراً، وإن هم فعلوا فخشوعاً وخضوعاً للّه، وليس عن عدم قدرة، وإن هم وحدوا حركة حياتهم مع منهج الحياة الذى رسمه اللّه سبحانه وتعالى فذلك حبا فى اللّه وتقربا إليه، هؤلاء الذين يسميهم اللّه سبحانه وتعالى عبادا.

لذلك.. استمع إلى قول اللّه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان]

هؤلاء العباد، ولم يقل اللّه سبحانه وتعالى: «وعبيد الرحمن»، بل قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، لماذا؟ لأن هؤلاء قهروا أنفسهم على حب اللّه بمحض إرادتهم واختيارهم، ودخلوا فى حب اللّه فألزموا أنفسهم بمنهجه.

والإنسان المقهور على شىء لا يستطيع منه فرارا، ولا اختيارا، أقل ثوابا من ذلك الذى يستطيع أن يفعل أو لا يفعل، ذلك أن الثانى قد ألزم نفسه بشيئين أساسيين:

الأول: أنه كان يستطيع أن يفعل ولم يفعل، وهذه منزلة عند اللّه سبحانه وتعالى، لماذا؟ لأن العبد ارتفع بعبوديته، بأن قهر نفسه واختار اللّه فى وقت كان يستطيع فيه المعصية، وهذه درجة أعلى فى الحب، أن تختار اللّه سبحانه وتعالى طواعية، وأن تتوجه إليه راجيا متوسلا أن يقبلك، فى هذه الحالة يكون حب اللّه فى قلبك قد زاد، وتكون منزلتك عنده قد ازدادت أيضا، هذه واحدة.

الثانى: أن الإنسان قد التزم بالتكليف، وألزم نفسه بمنهج الله، فدخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى، مع أنه يستطيع أن يفعل غير ذلك، وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم، نجد أن الله سبحانه وتعالى فى التكليف لا يخاطب الناس جميعا، وإنما يسبق أحكام التكليف دائما بكلمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم ﴾ [النساء: ٢٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٧].

أى إن الله سبحانه وتعالى، لا يكلف إلا المؤمن، الذي يدخل في عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى، الذى يقول يا رب آمنت بك ربا، وبالإسلام دينا، وأريد يا رب أن أتبع هداك، وأن أمضى في صراطك المستقيم، ويتم ذلك بالإرادة الحرة دون ما تدخل.

حين يأتى العبد إلى الله سبحانه وتعالى، معلنا إيمانه، ملزما نفسه بما يريد أن يتبعه، حينئذ يكون قد دخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى، ويكون ملتزما بمحض اختياره أن يتبع منهج الله، فيخاطب الله بالمنهج، ويبلغه بالتكليف، أما ذلك الكافر، الذى لا يلتزم بشىء ولا يؤمن بشىء.. فهو لا يدخل فى هذا التكليف الإيمانى، بين الله والعبد المؤمن، وهو غير مخاطب بالتكليف.

إذن.. فالإنسان إذا دخل طريق العبادة، طريق الإيمان، فإنما يفعل ذلك باختياره، فإذا التزم، أصبح من عباد الله، الذين يكلفهم الله ويطيعونه، ويلتزمون بمنهجه، وهكذا تكون العبادة بالنسبة للإنسان من شقين:

الأول: أن يؤمن طواعية واختيارا.

الثانى: أن يلتزم طواعية واختيارا أيضا.

فإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣]. نعرف أن غفران الذنوب جميعها، لأولئك الذين اختاروا منهج الله، وارتقوا من منزلة العباد.

إن الذى يأتيك طائعا مختارا، يأتيك بالحب وهو قادر على ألا يأتيك، هؤلاء هم العباد، وحين يريد الله تعالى: حين يقول ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] هل معنى ذلك أنه يريدهم عَبيداً أو عِبادا، يريدهم عِبادا، وأن يتبعوا باختيارهم وحبهم لله ما يرضيه، ولو أراد الله غير ذلك ما استطاع واحد منا أن يكفر.

ولذلك قال إبليس: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣]، أى ذلك الذى اختار طريقك يا رب، أو هؤلاء الذين اختاروا طريقك، واختاروه بحب، ومشوا فيه بإخلاص،

وتنازلوا عن اختيارهم حبا لك، هؤلاء لا يستطيع إبليس أن يغويهم أبدا، لماذا؟ لأنه يعلم أن الله يرعاهم، ويدافع عنهم، ويحيط بهم أينما كانوا، وأن سياج عناية الله يمنع إبليس من الاقتراب منهم، هؤلاء هم العباد المخلصون، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فالله لا يريد قوالب تخضع، ولكنه يريد قلوبا تخشع بالحب، لأن إخضاع القالب، يمكن أن يأتى بالرغم منك، فإذا أمسك إنسان كرباجا، وقال لك أفعل كذا وقلت لا، فيضربك بقوة، ويؤلمك الضرب، خضع قالبك؛ أى خضع الظاهر منك وقمت تفعل له ما يريد، ولكن هل تفعل هذا بحب؟ هل تفعل هذا بشوق؟ هل تفعل هذا عن رغبة؟ لا، أنت تفعل وأنت مكره، الله سبحانه وتعالى وهو قادر على هذا، لا يريد أن يكرهك، ولكنه يريد قلوبا تخشع، أى يريد أن تخشع من داخل قلبك، والقلب هو المنطقة الحرة التى خلقها الله فى الإنسان، ولا تستطيع قوة فى الأرض أن تجعلها مقهورة على شىء، فما فى قلبك هو ملك خاص لك، ليس للعالم كله سلطان عليك، وقد يكرهك إنسان فتتظاهر له بالحب، ولكن قلبك يظل يكرهه ويرفضه، وقد تتظاهر لإنسان بالخضوع، ولكن قلبك يمقته، وفى الوقت نفسه مهما فعلوا فيك، ولو وضعوك فى سجن تعذب فيه ليلا ونهارا، ولو قطعوا جسدك، فإنهم لن يستطيعوا أن يكرهوا قلبك على حب شىء تكرهه، أو كره شىء تحبه، بل تبقى هذه المنطقة حرة لا يتدخل فيها إنسان، ولا يستطيع إنسان أن يتدخل فيها، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

لماذا؟ لأن الإكراه فى هذه الحالة، يكون إكراها للقالب، وليس للقلب، والله سبحانه وتعالى كما قلنا، لا يريد قوالب تخضع، ولكنه يريد قلوبا تخشع، ولذلك ما دام القلب خاشعا، فالله راض، حتى ولو أجبر القالب على غير ذلك؛ ولذلك فقد أسقط الحساب عن كل من أكره قالبه على شىء وقلبه يرفضه، فأنت إذا أمسكت عصا غليظة، وأجبرت إنسانا على الصلاة، وقلبه لا يريد الصلاة ويرفضها، فلا صلاة له، وأنت إن أكرهت إنسانا على فعل منكر، وقلبه يرفضه، فلا حساب عليه، فالله يسقط عنه الحساب، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

إنه يقول لرسوله ونبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، أنا لا أريد أعناقاً تخضع بالقهر؛ لأننى لو أردت ذلك فما أسهل أن أفعله، أنا لا أريد إكراها، وإنما أريد عبادة تأتى بالحب لى، وليس بالإكراه على عمل أريده.

فالله تعالى حين يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالمهمة هنا أن يكونوا عِبادا، لا عَبيدا، وأن يأتوا الله سبحانه وتعالى عن محبوبية وخضوع، ولو أتوا عن غير ذلك ما حققوا مهمتهم فى الحياة، وأن يأتوا عن حب فى كل

ما يعملون، وإذا عبدوا فعبادتهم عن حب، وإذا حكموا فحكمهم عن حب فى إرضاء الله وإذا باعوا واشتروا، فكل ذلك فى إطار إرضاء الله، فى كل أمر من أمور الدنيا، لا يشغلهم إلا ذلك الحب، فكل عمل يقومون به، يبتغون رضاء الله، ويسألون أين الرضا فيتبعونه، فلا يغش أحدهم فى بيع، ولا يزور فى قول، ولا يزيف شهادة، وهكذا، وما دام الله سبحانه وتعالى قد خلقنا مختارين، فكل ما نعمله فيه اختيار لنا، ويكون عن رضا وعن نية، وعن رغبة، وعن غاية، فالذى يسرق، يختار أن يسرق، والذى يفعل ما يغضب الله، فهو يختار ذلك، وهو فى اختياره هذا، قد خرج عن طريق الحياة الذى رسمه الله سبحانه وتعالى له، فهو لم يأخذ شيئا، ولن يأخذ شيئا، حقيقة الحياة كلها ومفهومها أنها اختبار فى العبادة، يمر به الإنسان، اختبار لما يكون أن يفعل ولا يفعل، فالمال مال الله، لا يملكه أحد، والأرض أرض الله، لن يحتفظ بها أحد، الإنسان يأتى ويخرج، كما جاء يخرج، فيما عدا عمله، وحسناته وطيب الذكر والعبادة، الرحلة كلها من المهد إلى اللحد، رحلة إيمان، وفى مفهومها الواسع اختبار لحب الله فى القلب وبعبادة الله فى الأرض عن اختيار حر، ومهما فلسفنا الأمور، أو وضعنا للدنيا موازين ومقاييس، فإننا فى النهاية، إلى أنها رحلة إيمانية لاختبار حب الله فى النفس، من دون أى شىء آخر، وإذا كانت أشياء قد وضعت فى الأرض لتحث الإنسان على العمل أو على الزرع وتعهده.. وكل ما نراه، فهذه كلها أسباب ومسببات، وضعها الله سبحانه وتعالى، لتمضى الحياة فى الكون، وإذا كان هناك مغريات قد وضعت فتلك اختبارات الإيمان، أما من يقول إنه يملك، أو إنه يستطيع كذا وكذا، أو إنه يفعل كذا وكذا، فكل ذلك فى معناه الحقيقى مجاز، لا علاقة له بجوهر الأشياء، فأنا أملك مجازا ما دمت حيا، فإذا مت، فلا أملك شيئا ولو كنت مالكا للدنيا كلها، وأنا أحكم مجازا وأقضى، فإذا انقضت أسباب الحكم التى مكننى الله بها، فلا أستطيع أن أقضى ولا على فرد واحد، رحلة الحياة هى اختبار إيمانى فى العبادة، قد جعله الله اختبارا للبشر، ليفضلهم على سائر مخلوقاته ويجزيهم عليه جزاء كبيرا، فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قال عن الإنسان: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، تلك الخلافة هى ذلك الاختبار الإيمانى الذى يمر به كل إنسان.

إذن.. العلة فى الوجود والإيجاد، هى تحقيق العبادية المثلى لله سبحانه وتعالى، من الذى حقق ذلك، من الذى قال فيه الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

من الذى جاء على يديه كمال الدين، وتمام النعمة، إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، تتمثل فيه أفضل درجات الرضا من الله سبحانه وتعالى، وآخر درجات الإتمام للعبادية، التى أرادها الله من خلق الإنسان على الأرض، عبادية عن محبوبية لله، عبادية عن دخول طاعة الله سبحانه وتعالى طوعا واختيارا، عبادية بالالتزام بما أنزل الله التزاما

كاملا، والبعد عما نهى عنه بعدا كاملا، هذه هى العبادية المثلى، اللّه سبحانه وتعالى أرسل محمدا ليكون مثلا أعلى للبشرية كلها، يحتذى به أولئك الذين يريدون أن يعبدوا اللّه عبادة حرية واختيار، وحب وإيمان، وقرب من اللّه سبحانه وتعالى، فإذا عرفت هذا كله، فلابد أن يتسع عقلك وفطنتك لمنزلة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عند ربه وقربه منه، وحبه له.

ولكن لكى نعرف هذا كله، بما يحمله من عمق للبشرية، فلا بد أن نعرف معنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، وما دام الأساس فى البشرية كلها هو العبادة فلنبدأ بمعنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾.

ولنبدأ خطوة خطوة، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، أى لا نعبد سواك، نعبدك وحدك، وهذا معناه الخضوع للّه سبحانه وتعالى الواحد الأحد، واللّه سبحانه وتعالى الذى نخضع له، خضوعنا له هو قمة الشرف لنا، فاللّه سبحانه وتعالى بعلاه وقدراته وقوته، وكل صفاته، هو قمة تجعل الخضوع له تشريفا، فأنت لا تخضع لمساو لك، ولا لمن فوقك درجة، ولا لمن فوقك درجات، بل تخضع لخالق الكون كله ومهما تعددت القوى التى تفوقك، فإن لكل قوة فى الكون قدرة لا تتجاوزها، ولكن اللّه سبحانه وتعالى فوق كل قدرة.

والأصل فى الحياة أن يخضع الأدنى للأعلى، ولو كان هذا هو الكون، لتكرر خضوع بعضنا لبعض، ولكن اللّه سبحانه وتعالى، حررنا من هذه العبودية بأن جعلنا لا نخضع لسواه، ولو درسنا العقل البشرى عبر التاريخ، لوجدناه قد خضع وعبد الشمس وعبد الريح وعبد الحيوانات المفترسة، وعبد الأحجار والأصنام، أشياء كان يخشاها، وأخرى كان يعتقد أنها تحميه من الأذى وتنصره على أعدائه، وأخرى صَور له عقله أنها تُقربه من اللّه تعالى، وكان فى كل خضوعياته يخرج من عبودية إلى عبودية، فهو مرة يعبد إلها فيجد أنه لا ينصره فيتجه إلى إله آخر، فلا يجد له حولا ولا قوة، فيمضى إلى إله ثالث ورابع، ويظل حائرا ينتقل من عبودية إلى أخرى، يصور له جهله أشياء، ويصور له خوفه أشياء، فخضع الإنسان للإنسان، وخضع للحيوان، وخضع للجماد، وفى كل خضوعه كان يعطى ولا يأخذ، يعطى القرابين، ويعطى الذهب والفضة للمعابد، ولا يأخذ شيئا، فإذا باللّه سبحانه وتعالى يأتى ويقول: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]. فيحررنا من كل هذه العبوديات.

فأنت تجد حاكما تخضع له، ثم يذهب هذا الحاكم ويضيع خضوعك، وتجد نفسك بلا نصير، ولكن اللّه سبحانه وتعالى يزيل عنك هذه العبودية، أنت تخضع لرجل ذى مال، ثم يأتى ليفلس، وتجد نفسك لا شىء، ولكن اللّه سبحانه وتعالى يزيل عنك هذه العبودية - أنت تخضع لإنسان تظن أنه يملك شيئا ولكنه يتخلى عنك - وبدلا من أن يعطيك ما تريد، يعطيك الخوف والفقر، أنت تعبد مالاً اقتنيته أو ذهباً أخذته، أو قوة

جعلتك تتفوق على غيرك أو سلاحاً تملكه ولا يملكه آخر، هذه هى عبادات الدنيا، ثم يذهب هذا المال أو تضيع هذه القوة، أو يأتى إنسان بسلاح جديد يهزمك، المهم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينجيك من كل هذا، يريد أن ينصحك يقول لك: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، فإذا طلبته وجدته، فهو القوى وقوته أزلية، وهو القادر وقدرته لا تزول، وهو المتحكم وحكمه لا ينتهى وعرشه قائم حتى قيام الساعة، كلمته هى النافذة فى كل وقت، وفى كل عصر، وفى كل زمان، هو الله وحده لا ينازعه ولا يستطيع أن يصل إلى ملكه أحد، هو الباقى حين يزول الجميع، وهو القوى حين يضعف كل شىء، وهو القادر حين تزول القدرة عن الدنيا كلها، وهو الذى يستطيع أن يبدل العسر يسرا، والظلام نورا، والضيق فرجا، ولا يطلب لذلك كله ثمنا ولا جزاء، إلا أن تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فكيف تترك الله وتعتمد على سواه؟ وكيف لا تتوكل على الحى الذى لا يموت؟

لو حكمت عقلك دقيقة واحدة، لوجدت أن كل ما دون الله هو سراب وأوهام، وشىء ضائع وزائل، ولكن الباقى هو الله، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يطالبك أن تتوكل عليه، أى إذا قصدت حاجة فقل اللهم أعنى، وإذا أردت عملاً فارفع يدك إلى السماء وقل اللهم يسر لى، وإذا كان هناك ما يؤرقك فقل اللهم أذهب عنى هذا، وإذا كنت تواجه شيئا عسيرا فاطلب العون من الله سبحانه وتعالى، وتوكل على الحى الذى لا يموت.

إذا قلنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإننا نعز ولا نذل، لماذا؟ لأن ذُل الدنيا كلها لا يستطيع أحد أن يدخله إلى قلوبنا، فإذا هددنا قوى ونحن ضعفاء فلن تصيبنا ذلة، لأن الله سبحانه وتعالى معنا، وإذا واجهتنا أى مصاعب أو متاعب، فلا يجعلنا هذا نعيش فى ذُل ؛ لأن وكيلنا هو الله سبحانه وتعالى.

نحن نصبح فى الصباح وصدورنا مملوءة بالعزة، ورؤوسنا مرفوعة للسماء، لماذا؟ لأننا توكلنا على الله سبحانه وتعالى، وكل ما فى الكون خاضع لله، فلا قوى يستطيع أن يدعى قوة فوق قوة الله، ولا عزيز يجرؤ أن يقول إلا أنه ذليل لله سبحانه وتعالى، لذلك فإن الإنسان الذى لا يعتمد على الحى الذى لا يموت يعيش فى ذُل الدنيا، وفى عبودية هذا الذل. . فهو يصبح خائفا أن يفقد عمله، أو يفقد ماله، وهو حين يتكلم أو يتصرف، خائف أن يغضب عليه أو يغضب صاحب العمل، وهو فى خوف دائم من كل من هو أعلى منه، وهذا الخوف يدفعه إلى حياة بائسة بغيضة، ولكن المعتز بالله سبحانه وتعالى، لا يهمه إلا أن يرضى الله وحده، والذل لله عز، والذل لغير الله بؤس وشقاء وهوان، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد لى الخير، ولا يريد لى الشر، فهو يعطينى، وهو يرحمنى، وهو لا ينظر إلى ما فى يدى، وهو ما دُمت أحبه فإنه يمنحنى من نعمه فوق ما أريد، ولكن الإنسان يريد أن يأخذ ولا يعطى، وأن يسلب الحق، وأن يفعل كل ما تكرهه النفس.

عندما نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإن عبوديتنا لله تعطينا الخير من الله، والله سبحانه

وتعالى قد أعطانا العزة فى هذه العبودية فى أشياء كثيرة، فالله سبحانه وتعالى قد جعلنا جميعا متساوين أمامه، ليزيل عنا ذل الدنيا، وجعل لنا فى عبادته تذكرة لذلك، وجعل لنا فى يوم الجمعة موعدا، فرضه علينا ليذكرنا بالحقيقة التى ننساها أحيانا وهى عزة العبودية، فنحن أمام الله جميعا متساوون فى كل شىء، الحاكم عبد، والمحكوم عبد، أكثر الناس عزا وجاهاً، يدخل المسجد حافى القدمين، ويجلس على الأرض، وأقل الناس يدخل المسجد بالطريقة نفسها، ويجلس بالطريقة نفسها، لماذا؟ حتى يذكرنا الله سبحانه وتعالى، أن مناصب الدنيا لا قيمة لها عنده، وأن منازل الدنيا ليس معناها رضا من الله، فنغتر وتأخذنا العزة بالإثم، ونحسب أن عطاء الله فى الدنيا هو عطاؤه فى الآخرة، أبدا فهذا غير صحيح يأتى الإنسان فى الدنيا فيعطيه الله الجاه والمنصب والمال، فيغتر، ويأمر وينهى، ويمضى يمينا ويسارا يحسب أنه فى منعة، ثم يأتى صلاة الجمعة، فيذهب هو وأقل الناس شأنا عنده، يجلسان معاً على الأرض متساويين، وربما كان أقل الناس فى الصف الأول، وهو فى الصف الأخير، ويركعان معا، ويسجدان معا، لا فرق ولا منازل دنيوية هنا، لماذا؟ حتى لا ينسى الإنسان غروره وما هو فيه من عز، حتى لا ينسيه هذا أن الله سبحانه وتعالى يريد عبادا، وأن العباد هم الذين يأتونه طائعين مختارين، وأنه إذا كان الله قد أعطاه فى الدنيا، فليس هذا استثناء بالدخول إلى الآخرة فى منزلة أكبر وأعلى، فإذا تذكر ذلك وخرج من المسجد، ووقف أمامه رجل فقير ضعيف، فلا تجعله عزة الدنيا يفترى على هذا الرجل، بل يتذكر أنه عندما كان فى المسجد، كان هذا الضعيف المسكين فى الصف الأول، وهو فى الصف الأخير، فإذا تذكر ذلك، تذكر الله وقوته، وأحس أن هذا الشخص قد يكون أقرب منه إلى الله، فلا يظلم، ولا يغتر.

والعجيب أن بعض الناس يأتى إلى المسجد قبل الصلاة بدقائق، ثم يتخطى الرقاب حتى يصل إلى الصف الأول، ويظل يزاحم، ويضايق فى المصلين حتى يجد مكانا له ؛ مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ما معناه: «أن الرحمات تتنزل على الصف الأول فالذى يليه فالذى يليه»[1]، نقول لهذا الشخص: من تخدع؟ ليس معنى أن الرحمات تتنزل على الصف الأول، أنك تأتى فى اللحظة الأخيرة، ثم تحشر نفسك فى الصف الأول معتقدا أنك تخدع الله سبحانه وتعالى، إن الملائكة يقفون على أبواب المساجد يوم الجمعة، فيقيدون فى صحائفهم الداخلين، الأول فالأول، حسب دخولهم إلى المسجد، حتى يصعد الخطيب إلى المنبر، فإذا وصلت قبل الصلاة بدقائق فالزم مكانك ولا تحاول أن تخدع الله سبحانه وتعالى، لأنك لن تستطيع أن تخدعه، ولا تتخط

---

(١) روى مسلم [١٢٩/٤٣٧] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه، لاستهموا عليه...» الحديث.

الرقاب واعلم أن هذا هو بيت الله لا فضل فيه لأحد إلا لمن دخله أولا، وإياك أن تتحدث فى أمور الدنيا داخل المسجد، فالله لا يبارك فى حديث الدنيا داخل بيته.

على باب المسجد، كما تخلع نعليك.. تخلع الدنيا كلها، فأنت هنا مهما كان جاهك وسلطانك من عباد الله، الدنيا خارج المسجد، أما فى داخله فعبادة الله وحده، والله خلقنا متساوين، أكرمنا هو أتقانا، ولم يخلقنا مميزين بسبب درجات الدنيا، التى وجدت لتسير الحياة فى الأرض، فإذا أردت أن تعبد الله فاخلع الدنيا مع نعليك قبل أن تدخل المسجد، فإذا قضيت الصلاة، وخرجت من المسجد فباشر أمور دنياك.

إذن.. فعبادة الله عزة؛ لأنها تذكرنى بأننى متساوٍ أمام الله، مع أكبر خلقه فى الدنيا وأعلاهم شأنا، وأننى أنا وهو نصلى معا، ونركع معا، ونسجد معا، ولا تسرى علينا إلا قوانين الله سبحانه وتعالى، هذه واحدة، والنقطة الثانية أننى عبد الله الذى لا يتركنى أبدا إذا أردت أن أقف بين يديه، اتجهت إلى القبلة، وصحت: الله أكبر، وإذا أردت أن أدعوه صحت يا رب، فقال ماذا تريد يا عبدى؟ والعظيم من عظماء الدنيا إذا أردت منه شيئا فإنك تطلب أن تقابله، وعليك أن تقابل أولاً من هم أدنى منه، ليسألوك لماذا تريد أن تقابله وفيم تريد أن تتكلم، فإذا قلت لهم وأوضحت الغرض من المقابلة، تركوك أياما وأسابيع، وربما أشهرا وأنت تنتظر، وقد يقولون لا، وقد يقولون نعم، فإذا قالوا نعم حددوا لك الزمن والمكان، ثم بعد ذلك ذهبت قبل الموعد بنصف ساعة أو ساعة، وجلست منتظرا، فإذا تمت المقابلة بعد هذا كله، وأردت أن تشرح له ما جئت من أجله، قد لا يستمع لك، ويقوم واقفا لينهى المناقشة.

انظر إلى هذا كله، ثم انظر إلى عبوديتك لله سبحانه وتعالى، وأنت الذى تحدد الزمان، وأنت تحدد المكان، فالله سبحانه وتعالى موجود دائما، لتدعوه عندما تريد، وأينما كنت تستطيع أن تتجه إلى السماء وتصيح يارب. فتجد الله مستمعا إليك، وأنت الذى تحدد الوقت، والله سبحانه وتعالى لا يمل حتى تمل أنت. فلو ظللت طول الليل تناجى وتدعو، فالله معك يستمع إليك، حتى تمل أنت وتتوقف عن الدعاء، إذن فحسب نفسى عزا أننى عبد الله، يحتفى بى بلا مواعيد، ويعزنى ويقول يا عبدى أنت تلقانى متى تريد، وفى أى مكان تريد، أهذه عبودية أم عزة، وهل توجد عزة أكثر من هذا؟.

كان مبدأ المساواة فى العبادة، من المبادئ التى قاومها غير المسلمين فى أوائل الدعوة، فقد قاوم الكفار الإسلام مقاومة عنيفة، لأنه يساوى بين السيد والعبد أمام الله، ولذلك فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ومساواته بين خلقه - تلك المساواة المطلقة، التى لا تعرف بفروق الدنيا - ستجد بلاشك من يحاربها ويقف أمامها، وسيكون هؤلاء المحاربون الذين يتصدون لمنهج الله سبحانه وتعالى هم السادة أو الأقوياء، الذين

يرفضون هذه المساواة، ويريدون بقاء السيادة لهم، كما يريدون بقاء مجتمع السادة والعبيد، ويحاربون الدين الجديد الذى يساوى بين السيد والعبد.

والذين سيتمسكون بالعبادة وبمنهج العبادة الذى هو فيه هذه المساواة الكاملة، والذى فيه نصرة الضعيف على القوى، والمظلوم على الظالم، الذين سيتمسكون بهذا المنهج هم الضعفاء، لماذا؟ لأن ضعفهم نشأ من اغتيال كسبهم وحقوقهم من الأغنياء، إذن فهناك إنسان قوى لا يريد منهج ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾.. ولكن يريد كل شىء له، يريد أن يتميز على الناس جميعا، وإنسان ضعيف يتمسك بمنهج ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، لأنه يعيد إلى الضعفاء حقوقهم.

إذن.. فساعة نقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، سيأتى عليك الذين يحبون أن يعبدوا من الناس وهم الأقوياء، وما دام ذلك سيحدث، فسندخل أول الأمر فى صراع؛ جانب منه ضعفاء متمسكون بدين الله، وجانب منه أقوى يرفضون هذا الدين، يريد الله سبحانه وتعالى هنا أن يثبت الذين آمنوا، فيقول لك لا تخف من هذا الصراع، ولا تحس بالرعب أو الفزع من أولئك الذين يملكون الأسباب فى الدنيا، أسباب الحياة والسلطان والقوة، الذين يريدون أن يعبدوا من الناس، ذلك لأنه إذا عجزت الأسباب، فهناك الله سبحانه وتعالى، وهو يستطيع أن يحميك، فاطلب المعونة من الله، استعن بالله سبحانه وتعالى.. وقل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾وما دمت ستخص الله وحده بالعبادة، فإن هذا التخصيص سينشأ عنه صراع بين حق وباطل، وقد يكون هذا الصراع الباطل، قوة ظاهرة فى الدنيا، ولكن الحق له قوة تفوق قوة الباطل، ولذلك تأتى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾أولا، ويعلم الله سبحانه وتعالى أن صراعا سينشأ بين أقوياء وضعفاء الدنيا، فيقول: قل: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فلا يدخل الخوف إلى قلبك من هؤلاء، وتذكر أنك تستعين بالله تعالى.

وكلمة: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾هذه هى دستور فى حياة الإنسان المؤمن، لأنك حين تقول استعان فلان بفلان، لا يمكن أن يكون لذلك معنى غير معناها وهو طلب المعونة، وطلب المعونة معناه أنه استنفد الأسباب التى عنده فى أن يقوم بالعمل، فلما عجز استعان بغيره فأنا أريد أن أحمل حملا معينا، فلا أستطيع لأن الحمل ثقيل، وهنا ألجأ إلى غيرى، وأطلب منه أن يقدم لى المعونة، حتى أستطيع أن أنقل هذا الحمل الثقيل من مكان إلى آخر.

إذن.. ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، معناها أنه فرغت أسبابنا كبشر، لأن الخصم الذى أمامنا أقوى منا، فنحن نقول: إنه فرغت أسبابنا يارب، لأن الباطل أمامنا قوى، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى، لا يمكن أن تخصنى أنت بالعبادة، وأتخلى عنك، بل أنا أعينك وأنصرك، وهنا نحن نستعين بقدرة الله أمام باطل قوى، ولكن يجب أن تنفد أسبابنا أولاً.

ثم بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

هنا نحن نطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى إلى الطريق الذى ارتضاه لعباده، وحين يطلب الإنسان العابد الهداية من ربه، يكون ذلك معناه أنه ارتضى الله سبحانه وتعالى مكلفا ومشرعا، وقال: يا رب لقد آمنت، يارب سأعبدك وحدك وأستعين بك، فاهدنى الصراط المستقيم، وأرنى الطريق الذى يوصلنى إليك.

obeikandl.com

هل فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن؟

إن كل ما يتعلق بالكون، وآثار القرآن الكريم حول الوجود، قد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بما علم هو نفسه منها، واكتفى بأن علم من وجد عنده استشرافاً للفهم، ولكنه لم يشع ذلك ولم يعممه ؛ ذلك لأنه بمقياس العقل فى ذلك الوقت، كانت توجد عقول كثيرة لا تتقبل هذا الفهم، ولا تستطيع أن تعقله، بل كان مجرد طرح مثل هذه الموضوعات، لا يفيد قضية نشر الدعوة للدين.

والقرآن الكريم لم يأت ليعمم أسرار الوجود، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة، وبأسرار الوجود مكتنزة ؛ وذلك حتى لا يكشف الحق تبارك وتعالى أسرار الوجود لأولئك الذين يجتهدون بعقولهم للوصول إلى أسرار الكون دفعة واحدة، حينئذ يكون عطاء القرآن متساويا مع فهم العقول.

ويمر الزمن ويزداد التقدم البشرى، ويتيح الله لعباده آيات من آياته فى الأرض، ويكون عطاء القرآن متساويا مع قدرة العقول، ذلك لأن للقرآن عطاءً متجدداً فى كل عصر، وإلا لو أعطى الله كل ما عنده وقت نزول القرآن لجمد بعد ذلك، ولم يكن له عطاء، ولكن القرآن معجزة خالدة إلى يوم القيامة، ومن هنا فإنه يحمل عطاء لكل جيل، يختلف عن العطاء الذى أعطاه للجيل الذى سبقه، وهكذا، ونحن مثلا لا نجد صحابيا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن غير التكليف، فمثلاً لم يسأل الرسول أحد عن ﴿ الٓمٓ ﴾، ألف لام ميم، ولا عن ﴿ حمٓ ﴾، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستقبل أناسا كثيرين يؤمنون بكتاب الله، وأناسا كثيرين يكفرون بما أنزل الله، وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله وضد القرآن، ولكننا لم نسمع عن واحد منهم، وهم قوم بلاغة فصحاء يجيدون اللغة العربية بالموهبة، لم نجد أحدا من الكفار سأل عن معنى ﴿ الٓمٓ ﴾، أو ﴿ حمٓ ﴾، أو ﴿ عٓسٓقٓ ﴾، كيف يمر المكابر على ذلك مثل فواتح السور، ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول الله ويجادله، وقد كانت هذه فرصة فى المجادلة.

ولا شك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السور، دليل على أنها لم تكن تناقض واقعا عندهم، فلا المؤمنون سألوه عنها، ولا الكافرون سألوه عنها، مع أن الكافرين كانوا حريصين على أن يهاجموا رسول الله بأى شىء من الأشياء، ولو أن هذه الحروف من

فواتح السور كانت تخدمهم فى غرضهم وهو مهاجمة هذا الدين، لقالوا للناس ذلك وجاهروا به.

والقرآن فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية ويستميلها، إنه يخاطب ملكات خفية فى النفس لا نعرفها نحن، ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى، وهذه الملكات تنفعل حينما يقرأ القرآن، ولذلك كان حرص الكفار على ألا يسمع أحد القرآن، حتى الذين لا يؤمنون بالله ذلك أن كل من يسمع القرآن سيجد له تأثيرا وحلاوة، قد لا يستطيع أن يفسرها، ولكنها تجذبه إلى الإيمان، ومن هنا كان أئمة الكفر يخافون من سماع الكفار للقرآن أن يميلوا إليه، ولو كان القرآن لا يعطى شيئا من هذا، ولا يخاطب الملكات الخفية فى النفس، لما اهتم الكفار بأن يسمع أحد القرآن أو لا يسمعه، ولكن شعورهم بالقوة والقدرة للقرآن الكريم على النفس البشرية، جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط، ويعتدون على من يتلوه فى الأماكن العامة، بل قالوا: «والغوا فيه»، ومعناها شوشروا عليه.

ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك طريقتهم، إلا خوفا مما يفعله القرآن الكريم فى النفس البشرية، كيف يستطيع أن يؤثر فيها، وأن يجذب النفس الكافرة أو غير المؤمنة إلى الإيمان، وتلك من معجزات القرآن الكريم التى يتميز بها عن أى كتاب فى هذا العالم.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك القرآن، فيما عدا التكليف بأفعل ولا تفعل، تركه ليبين الزمن معجزاته، فالقرآن كلام الله، والكون هو خلق الله، وفى القرآن آيات الله، وآيات الكون تفسر لنا آيات القرآن الكريم فى الخلق، فى خلق السماوات والأرض، وفى الليل والنهار، والشمس والقمر، وكل الآيات.

وهذه الآيات الأرضية لها ميلاد تكشف فيه للإنسان، هذا الميلاد يأتى مع باحث عن آيات الله فى الأرض، فيثيبه الله سبحانه وتعالى على جهده بكشف آية من الآيات الأرضية له. فإذا لم تصادف الآية التى جاء موعد ميلادها الكونى، إذا لم تصادف هذه الآية عالما يبحث عنها، كشفها الله سبحانه وتعالى لعالم أو مجتهد يبحث عن شىء آخر، ولذلك فنحن نسمع كثيرا عن بحث بدأ بشىء وانتهى إلى شىء آخر، ونسمع كثيرا عن أشياء يقول العلماء أنهم اكتشفوها بالصدفة، والحقيقة أنه ليس هناك شىء اسمه الصدفة فى الكون، ولكن لكل شىء أجل وميعاد، وعندما يأتى الأجل يكشف الله عن آية من آياته فى الأرض بما نسميه نحن الصدفة، وبما نراه كل يوم فى حياتنا، بل إن الإنسان أحيانا يمرض ويذهب إلى كبار الأطباء، فلا يعرفون الداء، ثم يذهب إلى طبيب صغير فيكتشف الداء، هل هذا الطبيب أكثر علما من أساتذته، الحقيقة لا، ولكن عندما جاء موعد الشفاء، كشف الله أسباب المرض لأصغر طبيب، مما حجبه عن أكبر أساتذة الطب، وكل ما يعطيه الله لبعض خلقه، هو أن يعطيهم القدرة باستنباط سر من أسراره، أو آية من آياته فى الكون،

عندما تكون العقول مستعدة، والكون مهيأ لتقبل ما فى القرآن، فبعض الناس يتساءل مثلا، لماذا لم يذكر القرآن مثلا بكلام واضح أن الأرض كروية عندما نزل، وأنا أقول لهم: بالله كيف كان من الممكن أن تستقبل العقول البشرية مثل هذا الكلام أو تستوعبه، خصوصا أنه يأتى فى أمر لا ينفع، بل قد يضر، وفى علم لا ينفع وجهل لا يضر، فانتفاع الإنسان بالأرض وما عليها ليس مرهونا بأن أعلم أنها كروية أو غير كروية، وأستفيد من دوران الليل أو النهار مثلاً، سواء علمت أن الأرض تدور حول نفسها أو لم أعلم تلك الحقيقة، إذن الاستفادة من بعض الأشياء لا تتوقف على معرفة أسرارها، والكون موجود بكل خواصه ليفيد الناس، سخر لخدمة الإنسان بقدرة الله سبحانه وتعالى، والناس تستفيد من الكون، الفائدة التى تمكنهم من الحياة فوق الأرض سواء عرفوا كل خواصه، أو عرفوا بعض هذه الخواص فقط، فأنت مثلا تشعل المصباح بضغطة على زر الكهرباء، وتنتفع بضوء الكهرباء ولو أنك لا تعرف أسرارها، بل إن معظم الناس الذين يستخدمون الكهرباء ويستفيدون منها لا يعرفون أسرارها، ولكن ذلك لا يمنعهم من الاستفادة من خواصها، ولا يقلل ذلك من هذه الاستفادة.

إذن.. فعدم علمنا بكروية الأرض أو أنها تدور حول نفسها، لا ينقص منا شيئا من فائدة هذه الأشياء، بل نحن نستفيد من كل هذه الخواص، رغم عدم علمنا بها، ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم، تعرض لهذه المسائل تعرضاً لا يتناسب مع مستوى العقول واستعدادها، فإنه ربما يصرف بذلك العقول عن أساسيات القرآن، وهى العبادة إلى الجدل والمجادلة، حول ما يقوله، ولا يستطيع العقل أن يستوعبه أو يفهمه فى ذلك الوقت.

الحق سبحانه وتعالى قد ترك فى القرآن أشياء لإثبات العقول فى العلم، حتى إذا استطاعت العقول أن تكتشف شيئا فى الكون، وجدت خيطا يربط بين آيات الله فى الكون، وبين آيات القرآن الكريم، واكتشفت أن الأسرار الكونية التى وصلت إليها ليست علما جديدا، ولكنه علم وضعه الله سبحانه وتعالى فى الأرض ساعة الخلق، ثم بعد ذلك كشفه للعقول البشرية بعد ألوف السنين، ولو أن رسول صلى الله عليه وسلم فسر كونيات القرآن لجمد القرآن.. لماذا؟ لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد أن يفسر رسول الله، فيقف الأمر عند ذلك، وتأتى المعطيات الجديدة، والكشوف الجديدة، فلا تجد فى القرآن عطاء له.

ولذلك فإن عدم تفسير رسول الله للكونيات فى القرآن، هو تفسير لهذه الكونيات؛ لأنه ترك تفسير هذه الكونيات لعطاء العقول، فكل من يستطيع أن يجتهد ويوفقه الله إلى آية من آيات الأرض يجد إشارة لها فى القرآن الكريم. وهنا يكون المنع هو عين العطاء؛ لأنه أتاح الفرصة لعطاء متجدد للقرآن الكريم، إلى قيام الساعة، وكل عصر له عطاء يؤكد معجزة القرآن.